المماليك الشراكسة

تأليف
شفيق توفيق إسماعيل

دار رسلان

الأنبياء وارض مصر

t.me/alanbyawardmsr

المماليك الشراكسة

تذكر انك حملت هذا الكتاب

من جروب الأنبياء وأرض مصر

t.me/alanbyawardmsr

لكل ما هو حصرى وجديد وقديم و

نادر و مميز

جميع الكتب مجانية

المقدمة

لقد كتب العديد عن عصر المماليك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هل أنصفوا بذلك؟ ما هي مصادر ذلك التاريخ؟ فأغلب الكتاب المنصفين لذلك العصر قالوا بأنه عصر رقي وتقدم[1]، وخاصة ما يتعلق بالعلوم أو على الأقل ما يتعلق بالتاريخ وبالأخص سجل الحروب والشخصيات.

بالإضافة إلى العلوم الدينية وما يتعلق بها وفروعها بشكل منفصل وباقي العلوم التي كانت تشغل اهتماماتهم، وكان هناك العديد من المدارس الدينية والدنيوية مع تأمين ملحقاتها ومستلزماتها لطلاب العلم، ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟.

كان عصر الانحطاط عندما احتل العثمانيون بلاد الشام ومصر، ونذكر حينما خرج السلطان سليم الأول العثماني من مصر سحب كامل خيراتها وعلمائها وكتبها (المخطوطات)، وأجبر الصناع المهرة بالذهاب إلى عاصمة دولته، وتلا ذلك جعل لغة الدولة الرسمية اللغة التركية، ونعت نفسه بأنه خليفة المسلمين بإجبار الخليفة العباسي التنازل له، وأعلن بأنه حامي المسلمين[2]، ونقل عاصمة الحكم من القاهرة إلى الأستانة[3]،والجدير بالذكر أن العثمانيين أصل بيتهم من التركمان النزالة الرحالة[4].

جعل اللغة التركية رسمية بالدولة قد أثر على اللغة العربية وآدابها، وحدث بعض التزوير المقصود غالباً بنقل المعلومات السابقة والمكتوبة بالعربية إلى اللغة التركية سواء في نقل الأخبار والحوادث والشخصيات لفترة، وأثر ذلك على الحقيقة العلمية والمستقبل. وكما قيل (من استطاع أن يشوه التاريخ واستطاع أن يصادر المستقبل)[5].

t.me/alanbyawaramsr

---

[1] - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص 7.

[2] - مصر والشراكسة ص141 ومن الموجز في تاريخ سورية ج2 ص65.

[3] - الوطن في أدب الشراكسة ص15 والوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص17.

[4] - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص 201.

[5] - فلسطين والقرشاي من بداية الكتاب.

بعد إخراج العثمانيين من البلاد العربية يبدأ بالتدوين من جديد وبدأت الثقافة العربية نشطة، وبدأت كتابة التاريخ من جديد، ولكن استمر التركيز على الشخصيات ونتاجهم كما أعيد كتابة بعض المخطوطات القديمة مع بعض التعليقات والتنقيح عليها، وبدأت الكتابات الجديدة عن التاريخ مع ما حدث له من تشويه نتيجة السيطرة العثمانية على البلاد العربية أربعة قرون تلتها بعض الدول الأوربية على البلاد العربية (وهكذا صار التاريخ تاريخ الرسل والملوك وحتى يومنا هذا يدرس الناس التاريخ، حتى في الجامعات وفق الحقب الملكية، وليس حسب القضايا والأطوار الاقتصادية والاجتماعية والحضارية)[1]، وبقيت دراسة التاريخ مرتكزة على (الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال)[2].

تأليف كتاب تاريخي ليس بالأمر السهل، فلا بد من التساؤل حين قراءة أي كتاب: هل الكاتب منصف في كتابه أم لا؟ وهذا المنصف ما هي ميزاته.؟ هل كتابته كانت بدافع تأريخ الحقيقة ونشرها أم بدافع محبة أو كره لشخص ما، أو لزمن محدد أو لعمل أو أثر تاريخي وإلى آخره من الأمور. ثم لابد من التساؤل عن مصادر هذا الكاتب وخاصة عند الحديث عن عصر المماليك الذي أنقذ الخلافة الإسلامية، وأحيا الأدب العربي والتراث العربي بعد تدميره مع سقوط بغداد، كما أوقف المماليك جحافل المغول والتتار والصليبيين.

كتب في زمن المماليك الكثير، ولكن بعد سقوط دولتهم أين بقيت تلك المخطوطات والكتابات. لقد بقيت ما سلم منها في بعض المكتبات العربية مثل دمشق ومصر وأخذ الكثير إلى الآستانة مع عودة السلطان سليم وما بعده، كما استولى عليها بعض الأجانب. ونجد ما كتب عن ذلك العصر في بعض المكتبات في أوروبا وروسيا وأمريكا، كما تم إعادة نسخ وكتابات عنها بطبعات جديدة بما يوافق هوى أولئك القوم.

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص13.

[2] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص85.

يلجأ أغلب كتاب التاريخ إلى النقل أو الاقتباس مما كتب في تلك الكتب ومن مصادر غير عربية وخاصة من قبل المهتمين بذلك العصر وعلى مبدأ كلهم أجانب، وقد أوقعتهم هذه في تناقضات عن ذلك العصر. وتجد في الكتاب الواحد مع المؤلف نفسه تناقضات وصفية للموضوع ذاته. وقد تكون نيتهم سليمة، ولكن كما قال الإمام الكوثري:(وقع بعض الكتاب وأهل العلم في أغلاط تاريخية وبسبب قلة اهتمامهم بالتاريخ، وإهمال علمه وعلم الرجال والأعلام وتقصيها وهو العلم الذي لا يستغنى عنه في ساحات العلوم البشرية)[1].

سؤال آخر يطرح نفسه طالما أن كتب التاريخ مشكوك فيها، لماذا لا ندعها ونترك الماضي؟ لكن هذه المقولة غير جائزة. كما قال الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف (من وجه إلى ماضيه بندقية، ستوجه إلى مستقبله سبطانة مدفع)[2]. كما يُقال التاريخ يعيد نفسه ويقول الدكتور عبد اللطيف البغدادي:(ينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم)[3].ويجب على المهتم أن لا يقرأ كتاباً واحداً فقط ويعتقد بذلك وصوله للحقيقة، بل لابد من قراءة أكثر من كتاب ومن مصادر مختلفة عربية وأجنبية لتكوين فكرة صائبة وصحيحة. وفي كتابي المتواضع هذا عدت إلى العديد من المصادر المكتوبة باللغة العربية وهي متوفرة في المكتبات في الأسواق أو موجودة في المكتبات العامة في سورية مثل مكتبة الأسد ومكتبة الجامعة والمكتبة الظاهرية وغيرها. ومصادري وأغلبها الكتاب عرب في بلاد الشام ومصر، ومن كتب مترجمة عن أجانب انكليز وفرنسيين وأتراك وروس ومن بعض الكتاب الشراكسة في موطنهم وفي البلدان العربية المنتشرين فيها.

t.me/dlanbqawardmsr

---

[1] - مقالات الكوثري ص603 ـ 604.

[2] - فلسطين والقرشاي من بداية الكتاب.

[3] - كنوز الأجداد ص329.

قبل البدء في الكتابة عن عصر المماليك والذي ثبت الخلافة الإسلامية وأصبحت عاصمتها القاهرة في مصر وحكامها والسلاطين بعد أن نقلت من بغداد. والجدير بالذكر أن مقر الخلافة كان في دمشق زمن الأمويين، وقبلها المدينة المنورة زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

آخر خلفاء العباسيين في بغداد المستعصم بالله 640 ـ 656هـ ومع احترام المسلمين كافة للخليفة والتابعية الإسمية لبغداد إلا أنه في الحقيقة كان يشارك حكم العباسيين آخرون، ففي فارس كان يحكمها السلجوقيون وفي خوارزم الخوارزمية وفي أصبهان الإسماعيلية وفي أرمينيا إرم السلاجقة، وفي الموصل الأتابكية وفي مصر والشام الأيوبيون الأكراد[1].

سقطت الخلافة العباسية في بغداد على يد هولاكو وبالتآمر من قبل الوزير ابن العلقمي وتقدم الخليفة مع أولاده الثلاثة وكبار الدولة مستسلمين لهولاكو في يوم الأحد 10 شباط 1258م، وبعدها خربت بغداد وبشكل لا يوصف وقدر القتلى بمليونين. وفي يوم الأربعاء الموافق 20 شباط 1258م قتل هولاكو آخر خليفة عباسي في بغداد مع ابنه الأكبر، وأمر بتعقب أفراد الأسرة الحاكمة. أما ابن الخليفة الأصغر فقد أبقته زوجة هولاكو، ثم أرسل إلى سمرقند وتزوج بمنغولية وعاشت بنت الخليفة العباسي أسيرة في سمرقند حتى ماتت[2].

لابد في هذه المقدمة من ذكر شروط الحكم في الإسلام لمعرفة مدى صحة حكم السلاطين والذين سموا بسلاطين الإسلام.

t.me/alanbyawardnsr

أهم الشروط التي يجب توفرها في الحاكم سواء سمي بالرئيس أو الملك أو السلطان أو الأمير أو اسم آخر لابد أن يكون مسلماً لم يتلبس بأي كفر صريح، ومن الشروط لصحة الحكم لابد من البيعة ـ انتخاب أو استفتاء ـ من قبل أهل الحل والعقد سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة وأن يقترحه الخليفة مثلاً أو يعهد إليه من قبل الحاكم السابق، وأن يعلم الشعب والأمة وأهل الحل والربط بذلك، كما لا

---

[1] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص8.

[2] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص9.

يجوز الاستيلاء على الحكم بالقوة أو الثورة ـ وذلك جائز إذا كان الحاكم السابق قد مات أو عزل بسبب شرعي صحيح أو يكون الحاكم السابق هو الآخر هو استولى على الحكم بالقوة والمغالبة. وكذلك لا يجب القبول بالحاكم الجديد المستولي على الحكم إذا كان الأول حكم بموجب بيعة أو عهد إليه وهو موجود. كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): (إذا بويع الخليفتان فاقتلوا الآخر منهما)[1].

إذا تمعنا في هذه الشروط ومدى صحة حكم السلاطين نجد أنهم كانوا مسلمين بل كانوا يجاهرون بالإسلام والدفاع عنه ونشر تعاليمه وإقامة الشعائر الدينية ويقومون بالعبادات ويحضرون للصلاة ويحجون بيت الله الحرام بالإضافة إلى دفع الزكاة والصدقات، وهذه الأمور من أركان الإسلام، أما البيعة من الخليفة فمعروف أن استلام حكم السلاطين كان قبيل استيلاء هولاكو على بغداد الذي قضى على خليفة المسلمين.بل الذي حدث أن أحيا السلاطين الحكم الإسلامي والخلافة العباسية وذلك بعد ثبوت نسبة أحد أبناء العباسيين وهو أبو القاسم أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي، وبعد تدقيق صحة النسب وحسب آراء العلماء والفقهاء والقضاة تم تنصيبه خليفة للمسلمين واعترف به السلطان الظاهر بيبرس[2]، وكذلك الخليفة العباسي في مصر قد اعترف بالسلطان نائباً عنه وتمت البيعة للسلطان، ثم تتالى الخلفاء في البيعة للسلاطين، ولم يحدث في عهد السلاطين أن أصبح سلطانان حاكمين في وقت واحد مع امتلاك البلاد الواسعة التي تسلطنوا عليها.

آمل أن أوفق في هذا الكتاب لشرح بعض الملابسات وتبيان أوجه الحقيقة ومدى صحة ما قيل عن السلاطين. والله الموفق.

t.me/dlanbgawardmsr

---

[1] - الجهاد في الإسلام ص148.

[2] - من الموجز في تاريخ سورية ج2 ص63.والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص109 ومدن الشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص193.

تعاريف

اعتبر الكاتب طه حسين عصر المماليك عصر تقدم ورقي حيث يقول:(ما يقال إنه كان عصراً مظلماً ...هذا هو السخف بعينه، فهو من أزهى العصور الإسلامية وبالنسبة للقاهرة والبلاد العربية، ويمكن أن يقال عن عصر المماليك بأنه عصر دوائر المعارف وهذا يكفيه)[1]. وقبل أن نخوض بالكتابة عن ذلك العصر لابد من ذكر بعض التعاريف لمسميات كانت متداولة في ذلك العصر وما قبله وبعده، وقد تجد كلمات كثيرة تطلق لمسمى واحد يمكن اعتبارها مترادفات، وقد رأيت لابد قبل كل شيء من ذكر بعض التعاريف وتوضيح معانيها لأنها ستتردد بكثرة في هذا الكتاب.

1 ـ العبد:

جاء في مختار الصحاح: العبد: ضد الحر، وجمعه عبيد. وقرأ بعضهم (عبد الطاغوت)[2] أي خدم الطاغوت. وأصل العبودية الخضوع والذل ـ والتعبيد: التذليل ويقال معبد. والتعبيد أيضاً: الاستعباد وهو اتخاذ الشخص عبداً. قال تعالى: (فادخلي في عبادي)[3] أي في حزبي[4].

عبدتُ الله أعبده: هي الانقياد والخضوع وأعبدت زيداً فلاناً ملكته إياه ليكون عبداً. وعبده بالتشغيل: اتخذه عبداً وهو بين العبودية والعبدية[5].

عَبَدَه: خدمه وخضع له. وهو ملك هو وآباؤه من قبل، وعبَّده الله، وجعله أو اتخذه عبداً. وأعبده الغلام: ملكه إياه واتخذه عبداً. عامله كعبد له، والعبد

t.me/alanbyawardmsr

---

[1] - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص5 والوطن في أدب الشراكسة ص48 ومصر والشراكسة ص1ـ2.

[2] - قرآن كريم سورة المائدة آية 60.

[3] - قرآن كريم سورة الفجر آية 29.

[4] - مختار الصحاح ص 407 ـ 408.

[5] - المصباح المنير ص157 ـ 148.

الإنسان حراً أو رقيقاً. والمملوك جمع عبيد. وعباد. وعبد قن: من كان خالص العبودية، أو أبواه عبد وأمة[1].

تجد معانيَ كثيرة لكلمة العبد في القرآن الكريم منها العبودية لله رب العالمين للمخلوقات وللإنسان بشكل خاص وحتى للأنبياء فهم جميعاً عبيد لله.(ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب)[2]. وقد تذكر كلمة العبد لمن يعبد غير الله من مخلوقاته (وحدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين)[3].لكن نحن في كتابنا هذا نقصد بكلمة العبد ما كان معروفاً قديماً يباع ويشترى، وبهذا المعنى نجد في القرآن الكريم ثلاث آيات فقط وهي:حول القصاص قوله تعالى:(العبد بالعبد والأنثى بالأنثى)[4] وفي الزواج (وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم)[5].وكمثال قال تعالى:(ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء)[6].

تجد في السنة الشريفة أحاديث كثيرة، لكن لن أذكر سوى قوله صلى الله عليه وسلم: (للعبد المملوك الصالح أجران)[7].

توجد أحكام للعبد في الشريعة الإسلامية مثل: (لا تصرف الزكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمي ولا إلى مطلبي). وكذلك لا يدفع السيد زكاته على مكاتب نفسه لأنه عبد له، وتجد فئة من العبيد يقال لهم المكاتبون، ومن أحكام المكاتب مثلاً: يدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن رفع إلى المكاتب حاز[8].

t.me/alanbyawardmsr

---

[1] - منجد الطلاب ص457.
[2] - قرآن كريم سورة ص آية 30.
[3] - قرآن كريم سورة النمل آية 43.
[4] - قرآن كريم سورة البقرة آية 178.
[5] - قرآن كريم سورة النور آية 32.
[6] - قرآن كريم سورة النحل آية 75.
[7] - رياض الصالحين ص405.
[8] - إحياء علوم الدين ج1 ص261 ـ 262.

يستنتج أن أصل الكلمة والأصح بها أن العبد من ملك هو وآباؤه من قبل فالعبد القن هو من كان أبوه وأمه من العبيد، وكانت العرب تعتبر الشخص عبداً، إذا كانت الأم من العبيد مثل عنترة بن شداد إذ كان أبوه وقومه يعتبرونه عبداً، ورفض السماح له أن يتزوج بنت عمه التي أمها حرة، ومع أنه كان حامي القبيلة.

2 ـ الرقيق:

الرق بالكسر: من الملك والعبودية، والرق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق. والرقيق ضد الغليظ والثخين، وترقيق الكلام: تحسينه. واسترق الشيء: ضد الغليظ. والرقيق: المملوك. وترقرق الشيء: تلألأ ولمع[1].

رق الشيء من باب ضرب خلاف غليظ فهو رقيق. والرق بالكسر العبودية. ويطلق الرقيق على الذكر والأنثى وجمعه أرقاء، وقد يطلق على الجميع أيضاً، فيقال عبد رقيق، وليس في الرقيق صدقة، أي في عبيد الخدمة[2]. ورق العبد: صار أو بقي رقيقاً[3].

الرقيق ضد الغليظ. رق الشيء، يرق وأرقه غيره، ورققه ترقيقاً، وترقيق الكلام تحسينه، وترق له رق قلبه وفي الحديث:(هاتوا صدقة الرقة) أي الفضة والدراهم المضروبة منها. وأصل اللفظة الورق[4].

تجد كلمة رقبة يقصد تحريرها في القرآن الكريم كعقوبة على عمل خطأ وقع فيه المؤمن مثل قوله تعالى:(ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة)[5].وتجد نفس المعنى في سورة المائدة آية 89 المجادلة آية 3 والبلد آية 13و أما كلمة الرقاب فاستعملت لمن يدفع لهم أموال الصدقة في سورة البقرة آية177 وفي التوبة آية 60 فقط.

t.me/alanbgawardmsr

---

[1] - مختار الصحاح ص 253.

[2] - المصباح المنير ص 90.

[3] - منجد الطلاب ص256.

[4] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج1 ص274.

[5] - قرآن كريم سورة النساء آية 92.

توجد أيضاً أحاديث عن الرقاب نذكر منها ما رواه أبو ذر رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (قلت أي الرقاب أفضل؟ قال:أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً)[1].

يمكن الاستنتاج أن كلمة الرقيق هي أخف وطأة وألطف من كلمة العبد وربما استعملت أكثر بعد الإسلام.

3 ـ الأمة:

الأمة ضد الحرة والجمع إماء[2].

الأمة أربع لغات: أم بضم الهمزة وكسرها، وأمة وأمهة فالأمهات لغتان ليست إحداهما أصلاً للأخرى ولا حاجة إلى دعوى حذف ولا زيادة، وأم الكتاب اللوح المحفوظ، ويطلق على الفاتحة أم القرآن، والأمة أتباع النبي، والجميع أمم مثل غرفة وغرف، وتطلق الأمة على عالم دهره المفرد بعلمه. والأمي في كلام العرب الذي لا يحسن الكتابة فقيل نسبة إلى الأم لأن الكتابة مكتسبة فهو على ما ولدته أمه منها الجهل بالكتابة، وقيل نسبة إلى أمة العرب لأنه كان أكثرهم أميين[3].

الأمة: الخادمة المملوكة جمعها إماء وأموات وآم، وبالنسبة إليها أموي وتصغيرها أمية[4].لا يوجد في القرآن الكريم كلمة الأمة بمعنى موضوع بحث هذا الكتاب ولكن في السنة الشريفة توجد أحاديث منها حديث قيام الساعة (القيامة) وآياتها :أن تلد الأمة[5] ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان[6]) وفي التشريع الإسلامي وأحكامه تتساوى الحرة مع الأمة في عقوبة الزنا

t.me/alanbyawardmsr

---

[1] - رياض الصالحين ص404.

[2] - مختار الصحاح ص 37.

[3] - المصباح المنير ص 9.

[4] - منجد الطلاب ص13 ـ 14.

[5] - معنى (تلد الأمة ربتها) أي سيدتها، ومعناه أن تكثر السراي حتى تلد الأمة السرية بنتاً لسيدها، وبنت السيد في معنى السيد.

[6] - رياض الصالحين ص47.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها الحد، ولا يثرب عليها) وجاء في حاشية الكتاب الأمة: الرقيقة[1].

قال شمس الدين من الشيعة الإمامية في مؤتمر الرباط عن الإسلام وتنظيم الأسرة عام1971م هل يحق للزوج فقط أن يمنع حمل زوجته:(إن الولد حق للوالدين وحق للأمة...) أي تتساوى الحرة والأمة بهذا الحق[2].

يتضح مما سبق أن الأمة تطلق على الأنثى فقط وتقابل كلمة العبد.

4 ـ سراري:

قال الأخفش: هي مشتقة من السرور لأنه يسر بها، ويقال (تسرر) جارية وتسرى أيضاً. والسرور ضد الحزن واستسر القمر خفي ليلة. والسرار فربما يكون ليلة وربما كان ليلتين. وسره طعنه في سرته. وأسر الشيء كتمه وأعلنه.وأسر إليه حديثاً أي أفضى إليه به. وتساروا: تناجوا[3].

سريت الليل، وسريت به سرياً، والاسم السراية إذا قطعته بالسير، ويقال سريت يزيد وأسريت به، ويقال سرينا سرية من الليل والجمع السرى. وقال أبو زيد ويكون السري أول الليل وأوسطه وآخره وسرى الجرح إلى النفس معناه دام حتى الموت. والسرية قطعة من الجيش فعلية بمعنى فاعلة لأنها تسري في خفية والجمع سرايا وسريات، والسري الجدول وهو النهر الصغير والسري الرئيس والجمع سراة وسري المال خياره[4].

السراة: الظهر وارتفاع النهار، وسروات القوم: سادتهم. والسري صاحب المروءة في الشرف، أو السخاء في مروءة[5].

لا توجد في القرآن بمعنى السري موضوع البحث.

---

[1] - رياض الصالحين ص112.

[2] - تنظيم الأسرة في التراث الإسلامي ص231.

[3] - مختار الصحاح ص 295.

[4] - المصباح المنير ص 104 ـ 105.

[5] - منجد الطلاب ص315 ـ 316.

يلاحظ مما ذكر سابقاً أن السرية تقابل الأمة ولكن السرية ألطف مثل كلمة الرقيق ألطف من العبد.

يذكر في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج بإحدى عشرة امرأة وتجد أيضاً (وأما سرايه فقيل إنهن أربع، وهن مارية[1] القبطية أم إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام، وهي التي أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية، وريحانة[2]. القرظية، وواحدة وهبتها له زينب بنت جحش والرابعة أصابها في بعض السبي[3].

5 ـ وليدة:

الوليدة:الصبية والأمة، والجمع الولائد[4]. والوليد: المولود. الصبي. العبد، والجمع ولدة وولدان. مفرده وليدة، جمعه ولائد. أم الوليد: كنية الدجاجة، ويقال: فعل ذلك في وليدته: أي الحالة التي كان فيها وليداً[5].

لا توجد كلمة وليدة في القرآن بالمعنى المقصود بالكتاب.

جاء عن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أنها اعتقدت وليدة.. وذكر في الشرح الوليدة: الأمة[6].

يتضح أن الوليدة هي الأمة الصغيرة الصبية.

6 ـ ما ملكت أيمانكم:

ملكه، يملكه بالكسر. وملك المرأة تزوجها، والإملاك التزويج، وتملكه ملكه قهراً[7]. ملكه بفتحتين هو عبد مملكة بفتح اللام وضمها:إذا سبى وملك

t.me/alanbyawardmsr

---

[1] - ماتت سنة 16هـ أيام عمر رضي الله عنه.

[2] - ماتت في حياته سنة 10 هـ.

[3] - لباب الخيار في سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ص114.

[4] - مختار الصحاح ص 735 ـ المصباح المنير ص 257.

[5] - منجد الطلاب ص 940.

[6] - رياض الصالحين ص137.

[7] - مختار الصحاح ص 633.

دون أبويه. وملكت امرأة تزوجتها، فيقال ملكته امرأة وأملكته امرأة وعليه قوله عليه السلام ملكتها بما معك من القرآن أي زوجتكها[1].

ملكه الشيء: جعل ملكاً له، ملك القوم فلاناً عليهم: صيروه ملكاً. وملك الدابة: قوامها وهاديها، الواحد ملاك. والملاك: اصطلاح الحكومات، ويقولون أدخل فلان في ملاك الجيش، أو في الملاك الحكومي، أي سجل بين أصحاب المناصب الرسميين[2].

تجد في القرآن عبارة:(ما ملكت أيمانهم) كزوجة مثل قوله تعالى:(فإن خفتهم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم)[3]. وتجد هذه العبارة بنفس المعنى في سورة النساء الآية24وآية25، وفي سورة المؤمنون آية6 ، وفي سورة النور آية 31 وآية 33، وفي سورة الأحزاب آية 50 وآية 52و وفي سورة المعارج آية 30.

توجد عبارة (ما ملكت أيمانكم) بشكل عام للذكر والأنثى وبمعنى المملوك كقوله تعالى:(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم)[4]، وبنفس المعنى تجد في سورة النمل آية 71، وسورة النور آية 58، وسورة الروم آية 28.

نرى إذا جاز لنا تصنيف ما سبق من التعاريف أن عبارة (ما ملكت أيمانكم) هي بدرجة أقرب إلى الملك سواء كانت زوجة فهي أقرب لصاحبها وعبارة ألطف من العبد أو الأمة أو السرية أو الوليدة وكذلك بشكل عام عبارة (ما ملكت أيمانكم) ألطف من كلمة العبد والرقيق.

t.me/alanbyawardmsr

---

[1] - المصباح المنير ص 221 ـ 222.

[2] - منجد الطلاب ص 747.

[3] - قرآن كريم سورة النساء آية 7.

[4] - قرآن كريم سورة النساء آية 36.

7 ـ غلام:

معروف، وجمعه غلمة وغلمان. ويقال بين الغلومة والغلومية والأنثى غلامة[1].

الغلام: الابن الصغير، يطلق الغلام على الرجل مجازاً باسم ما كان عليه. وجاء في الشعر غلامة بالهاء للجارية، وقال الأزهري سمعت العرب تقول للمولود حين يولد ذكراً غلام، وسمعتهم يقولون للكهل غلام[2].

الغلام: العبد والأجير، جمع غلمان. الغلامة أنثى الغلام، الأمة[3].

تجد في القرآن الكريم كلمة غلام بمعنى الابن لأبوين حرين مثل قوله تعالى: (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا)[4]. وبهذا المعنى جاء في آل عمران الآية 40، وفي سورة الحجر آية 53، وفي سورة الكهف آية 80، وفي سورة مريم آية 8 والآية 25، وفي سورة الصافات آية 101، وفي الذاريات آية 28. وجاء في القرآن كلمة غلاماً بنفس المعنى السابق في سورة الكهف آية 74، وفي مريم آية 19، وجاءت كلمة غلامين بنفس المعنى السابق أيضاً في سورة الكهف آية 82.

كلمة غلام بقصد العبد فوجدت مرة واحدة فقط عن يوسف عليه السلام، عندما ألقى في بئر قال تعالى:(فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه يا بشرى هذا غلام)[5]، وجاءت بالجمع غلمان مرة واحدة كخدم الجنة قال تعالى:(ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون)[6].

t.me/alanbyawardmsr

---

[1] - مختار الصحاح ص 480.

[2] - المصباح المنير ص 172.

[3] - منجد الطلاب ص 525.

[4] - قرآن كريم سورة مريم آية 7.

[5] - قرآن كريم سورة يوسف آية 16.

[6] - قرآن كريم سورة الطور آية 24.

جاء في الحديث الشريف عن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر رضي الله عنه، وعليه حلة[1]، وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك، فذكر أنه ساب رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بأمه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنك امرؤ فيك جاهلية[2] هم إخوانكم وأخوالكم[3]، وجعلكم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم) متفق عليه[4].

يتضح أن كلمة غلام كانت للتحبب وغالباً لصغار السن وكخدم للبيوت.

8 ـ المملوك:

المملوك:هو العبد، وتملكه:ملكه قهراً، ملكه بفتح اللام أوضحها هو الذي ملك ولم يملك أبواه، وهو ضد القن فإنه الذي ملك هو وأبواه. وقيل القن المشترى. وحسن الملكة، أي حسن الصنيع إلى مماليكه، وفي الحديث (لا يدخل الجنة سيء الملكة)[5].

شيء مملوك هو ملكه بالكسر، وله عليه ملكة بفتحتين وهو عبده، ملكة بفتح اللام وضمها إذا سبي وملك دون أبويه، وملك على الناس أمرهم إذا تولى السلطنة. وملكت امرأة تزوجتها.الملاك بكسر الميم اسم بمعنى الإملاك، والملاك بفتح الميم اسم من ملكته بالتشديد وملكته بالأمر، فملكه من باب ضرب، وملكناه علينا بالتشديد أيضاً، فتملك. وملاك الأمر بالكسر قوامه والقلب ملاك الجسد[6].

ملك الشيء احتواه قادراً على التصرف والإستبداد به، وملك القوم استولى عليهم، ملك على فلان أمره، استولى عليه، وملك نفسه قدر على حبسها والمملوك

t.me/alanbyawardmsr

---

[1] - الحلة (بضم الحاء وتشديد اللام) ثوب مركب من ظهارة وبطانة من جنس واحد.

[2] - (إنك امرؤ فيك جاهلية) أي خلق من أخلاق الجاهلية، وهي ما قبل الإسلام.

[3] - الخول (بفتح الخاء والواو) الخدم والحشم.

[4] - رياض الصالحين ص402.

[5] - مختار الصحاح ص 633.

[6] - المصباح المنير ص 221 ـ 222.

العبد جمعها مماليك[1]. وقيل (المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي ملك، ويقال عبد مملكة بفتح اللام وضمها إذا سبي وملك دون أبويه ويبدو أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم، حيث وردت عبارات (ملكت أيمانكم) (ولا ملكت إيمانهم) و(ملكت يمينك) أكثر من مرة[2].

وقيل (مملوك، في أصلها اللغوي، مستخرجة من فعل ملك، لتعني الرقيق الذي يشترى بقصد تربيته، والاستعانة به كجند وحكام، على عكس لفظة العبد ومفرد عبد، ومؤنثها جارية، التي استعملت في العصر الإسلامي الأول، وذلك لأن الإسلام بميوله الإنسانية كان يرفع من شأن الرقيق، إن لفظة العبيد تعني العبودية، والعبد يولد من الرقيق، بينما المملوك يولد من أبوين حرين ويباع، كما أن العبد قد يعني إنساناً أسود، بينما المملوك كان غالباً أبيض)[3].

جاء في القرآن بتمليك الملكة بلقيس لكافة أفراد رعيتها مثل قوله تعالى:(إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء)[4]. وجاء في القرآن مرة بمثل المعنى المقصود من الكتاب (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء)[5].

تجد في السيرة أن بعض الصحابة رضي الله عنهم تمنوا أن يكونوا عبيداً ومماليك لما لهم من أجر فقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(للعبد المملوك الصالح أجران) والذي نفس أبي هريرة بيده لو لا الجهاد في سبيل الله، والحج، وبِّر أمي، لأحببت أن أموت وأنا مملوك) متفق عليه[6].

t.me/alanbyawardmsr

إذاً نستنتج أن المملوك هو من ملك ولم يملك أبواه وتأتي بمعنى السبي وهو الأسير وسب الرجل أبعده وغربه.

---

[1] - منجد الطلاب ص 746 ـ 747.

[2] - العصر المملوكي في مصر والشام ص7.

[3] - طومان باي ص12.

[4] - قرآن كريم سورة النمل آية 23.

[5] - قرآن كريم سورة النحل آية 75.

[6] - رياض الصالحين ص405.

نكتفي بهذه التعاريف عن غيرها فنجد المقصود بالعبد من كان أباً عن جد يستعبد ويشترى، وينسب بالعبد إذا كانت أمه من العبيد ولو كان أبوه حراً مثل عنترة بن شداد، وتقابل الكلمة للأنثى بالأمة، أما باقي تعاريف الكلمات المذكورة فكلها متشابه وتكاد تكون مترادفة لكلمة المملوك والذي هو ملك وليس أصله من العبيد فقد يكون أسر أو خطف أو ملك قهراً ثم تغرب فبيع. أي لم يكن أصله أي أبوه وأمه قد استرقا وملكا سابقاً.

t.me/alanbyawardmsr

أنواع العبيد

عرفت طبقة العبيد قديماً، إلا أن تنوع الطبقة وكيفية تشكلها وظهورها تستوجب تصنيفها ودراستها بوضوح:

1 ـ العبد أصالة:

في التعريف السابق للعبد قلنا بأن اصطلاح العبد يطلق على من كان أبواه عبدين، أي أصله عبد، ولكن متى ظهرت هذه الفئة وانتشرت؟.

قيل إن نوحاً عليه السلام حينما أمره ربه بركوب السفينة وحمل زوج من كل نوع من الحيوانات، كان معه أربعون شخصاً بما فيهم هو وأولاده الثلاثة وزوجاتهم، وبعد استقرار السفينة توفي الجميع عدا نوح عليه السلام وأولاده وزوجاتهم. إلا أن نوحاً غضب على ابنه حام لعدم تغطية عورة أبيه حينما انكشفت وهو نائم فدعا بأن يكون ابنه أسود وأن يكون هو وذريته عبيداً لأخويه يافث وسام، وحينما وزع عليهم الأرض كانت حصة حام إفريقية[1]، وقيل السبب إصابة حام امرأته في السفينة فدعا عليه نوح عليه السلام[2].

هذه الرواية ترد في قصص الأنبياء وفي كتب عديدة فإذا صحت فهذا يعني أن طبقة العبيد أصالة كانت موجودة منذ زمن نوح عليه السلام وبعد الطوفان، وربما هذا ما دفع الغرب وأقصد الأوربيين والأمريكيين خاصة حينما بحثوا عن أناس ليستعبدوهم وضعوا نصب أعينهم إفريقية السوداء، فكان الاستعباد معروفاً ومنتشراً فيهم.

2 ـ الأسر:

بعد كل معركة بين أي طرفين يقع أسرى، وفي حال انسحاب أو خسران أحد الطرفين للمعركة يتملك الطرف المنتصر أسرى من جنود الجيش الخاسر وهؤلاء

---

[1] - قصص الأنبياء ص105 ـ 106.

[2] - قصص الأنبياء ص94 وسفر التكوين 9:25 ـ 26 ـ 27 ومروج الذهب ومعادن الجوهر ج1 من ص44ـ45.

يسمون الأسرى مهما كانت صفتهم، وكان مصيرهم إحدى ثلاث: إما أن يمن عليهم الطرف المنتصر بإطلاق سراحهم، وقد يكون لها أسباب مثل الاتفاق بين الطرفين المتحاربين، أو تنازل الخاسر عن أمر ما أو ما شاء ذلك، أو يكون الفداء مثلما حدث لمن أسر بيد المسلمين في معركة بدر، ويكون ذلك بأن يفادي الأسير نفسه بدفع المال، أو يدفع عنه آخر سواء أهل الأسير أو الجماعة أو الدولة التي حارب لأجلها، وإذا لم يتم إطلاق سراح الأسرى بالشكلين السابقين كان مصيرهم الاستعباد بأن يوزعوا على الجنود أو القادة وهؤلاء ربما يبيعونهم لآخرين. ففي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نجد أنه بعث جماعة من الرجال وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، وفي مكان بين عسقلان ومكة، فأحاط بهم القوم فقالوا: (انزلوا، فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً) ونزل إليهم ثلاثة، منهم خبيب فربطوه مع زيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر فابتاع[1] بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن مناف خبيباً[2].

لكن هل يحق للمسلم أسر مسلم آخر لسبب ما؟.

حينما كانت ملطية بيد الأرمن كان بها جماعة من المسلمين، ومع الزمن تزاوجوا فيما بينهم حتى تزوجت المسلمات بالنصارى، وكان الجيش الإسلامي زمن السلطان ناصر الدين قلاوون يقاتل الروم، ويمرون قرب ملطية ولا يتقاتلون معهم. ولكن في إحدى المرات اعتدى هؤلاء الملطيون على بعض جماعة من جيش السلطان المسلم وقتلوا جماعة من المسلمين، وأسروا آخرين فما كان من السلطان قلاوون إلا أن جهز جيشاً وفتح ملطية بالقوة واسترق من فيها سواء كانوا نصارى أو مسلمين وتعاملوا وتزوجوا مع الأرمن إلا أن وقع الإنكار التام لأسر المسلمين. فأمر السلطان المسترقين من المسلمين ذكوراً وإناثاً)[3].

---

[1] - فابتاع: أي اشترى.

[2] - رياض الصالحين ص442 ـ 443 ـ 444.

[3] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج2 ص79 ـ 80.

نجد قديماً أن (كتب بختنصر إلى ملك مصر: إن عبيداً لي هربوا مني إليك، فسرحهم إليّ، وإلا غزوتك وأوطأت بلادك الخيل. فكتب إليه ملك مصر: ما هم بعبيدك، ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار، فغزاه بختنصر فقتله، وسبى أهل مصر، ثم سار في أرض المغرب، حتى بلغ تلك الناحية، ثم انطلق يسبي كثير من أهل فلسطين والأردن، فيهم دانيال وغيره من الأنبياء)[1].

يتضح أن الأسير المستعبد كان بالأمس حراً، بل ربما كان قائداً وكان يوجد احتمال أن يكون الذي أسره اليوم واستعبده هو المنتصر فيسترقه هو. وموضوع الأسر كان معروفاً ولا يستنكره أحد منذ القدم.

3 ـ بيع الأحرار:

المقصود من بيع الأحرار أن الشخص المستعبد كان حراً لم يمسه الرق أبداً ولا تنازل عن حريته بنفسه مثلاً ولم يقع بالأسر وإنما كل ما في الأمر أنه خطف من مكان ما، وخاصة إذا كان عابر سبيل فبيع بيع العبد. وكان هذا الأمر يحدث كثيراً والإسلام حرم ذلك فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه، ولم يعطه أجره) رواه البخاري[2].

نذكر جميعاً قصة يوسف الصديق كيف ألقي في الجب، وكيف أخرج من البئر، وكيف أن إخوته باعوه للسيارة وهم يقولون للمدلي استوثقوا منه لا يأبق. وكان ثمنه بخساً دراهم معدودة وقيل بعشرين درهماً. ووقف يوسف يقول: من يبتاعني ويبشر، فاشتراه ملك مصر، وهو ابن سبع عشرة سنة يومئذ[3].

نذكر معركة الخندق، ونعلم أن الصحابي سليمان الفارسي أنقذ المدينة المنورة باقتراحه عمل خندق حولها. وسليمان هذا كان ذا مكانة في أهله وقومه ترك الدنيا

---

[1] - قصص الأنبياء ص404.

[2] - رياض الصالحين ص471.

[3] - قصص الأنبياء ص231 ـ 232.

ومتاعها وسأل عن أعلم الناس فالتجأ إلى راهب، وبعد وفاة ذلك الراهب انتقل إلى آخر، وأخيراً قيل له إن نبي هذا العصر سيظهر في المدينة فالتجأ إليه وفي الطريق قبض عليه وبيع كبيع العبيد، ذلك الصحابي الجليل الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم:(سلمان منا أهل البيت).

تجد من بيع كذلك قطز. فقد جاء في رسالة هولاكو إلى السلطان قطز بعد احتلال دمشق ويستعد للاتجاه تجاه مصر (يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بأنعامه)[1].

بعد أن آلت السلطة للسلطان بيبرس وحده وجد رسالة من والد قطز الأمير ممدود إلى قطز يتضح بأن قطز استشار أباه بتغيير اسمه إلى اسمه الحقيقي وجاء في رسالة أبيه (وليس العبرة بالأسماء، لكن الخلال والأعمال. والله يعلم أنك محمود ابن ممدود ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأن التي تحت عصمتك هي ابنة خالك جلال الدين، فحسبك هذا من ربك)[2].

كان بيع الأحرار وارداً. ولكن حين البيع طبعاً لا يقال: إن هذا الرجل حر، قد يقول البائع أنه أسره أو اشتراه من آخر وقد يتغير الاسم واللقب وقد ذكر أن (أول منشأ المماليك كان في القرن الثالث عشر أي حين مجيء الفاتح جنكيز خان إلى روسيا الذي أرعب الناس وصاروا يفرون من روسيا إلى هنغاريا والقرم، وعند ذلك صار بعض التجار يأخذون الفارين غصباً، ويبيعونهم إلى الخارج كمماليك)[3].

4 ـ بيع الشخص نفسه:

أقصد بذلك أن يضع الشخص نفسه كعبد للعمل بأمر شخص ما وبملء إرادته بحيث يعمل بما يطلب منه ويكون كامل الإنتاج للآمر.ولا يستغربن أحد ذلك فهذا الأمر عرف قديماً.

---

[1] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص453 وولاة دمشق في عهد المماليك ص52.

[2] - والإسلاماه ص218 والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص 85.

[3] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ص57.

وإذا عدنا إلى قصة يوسف بعد أن أصبح وزيراً وأقام العدل ونهض باقتصاد مصر، كانت سبع سنين خيرة تلتها سبع عجاف وبدون طعام فكان القحط فجاء الناس أفواجاً إلى يوسف يريدون الطعام وبدأ بيعهم إلى أن نفذت الدراهم والدنانير وتبعها الحلي والجواهر فالدواب والأراضي والعقارات حتى أصبح الرجل يبيع نفسه فاسترقهم جميعاً ثم عرض الأمر على الملك فخيره بالأمر بأن الرأي رأيه فأعتقهم يوسف ورد أموالهم[1].

في حديث طويل أيضاً رواه أبو أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن طلب رجل مسكين من الخضر[2] وسأله بوجه الله فأجابه الخضر (آمنت بالله ما عندي شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني) وتم البيع بمبلغ أربعمائة درهم ولكن المشتري لم يستعمل الخضر إشفاقاً لكبر سنه وضعفه، ولكن الخضر طالب أن يعمل فكلفه المشتري بنقل الحجارة للبناء وسافر، وبعد عودته وجد البناء تم فاستغرب وطلب المشتري مستفسراً كيف تم ذلك، وأن يخبره بوجه الله، فأجاب الخضر:(سألتني بوجه الله ووجه الله أوقعني في العبودية) وشرح له أمره فخيره المشتري أن يحكم في أهله وماله وبما شاء أو يخلي سبيله فاختار الأخرى[3].

تجد عند اليهود كيف للرجل بيع ابنته إيفاء لدين (جزء 7:21) ولا ينطبق عليها قرار التحرر من العبودية بعد مضي سبع سنوات، كما هي الحال بالنسبة للرجل (خ21:7 ـ 11)[4].

جاء في معجم البلدان عن بلد (تركستان: هو اسم جامع لجميع الترك...ومنهم من يبيع ذكور ولده وإناثهم بما ينفقونه)[5].

تذكر الأخبار في محرم سنة ثماني عشرة وسبعمائة للهجرة أن وصلت بلاد الجزيرة وبلاد المشرق وسنجار والموصل وماردين وغيرها من النواحي قلة الأمطار

---

[1] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج1 ص360 ومن الموجز في تاريخ سورية ج1 ص60.

[2] - قيل اسمه يليا -وقيل أحمد- من ملكان وكنيته أبو العباس وهو من نسل نوح، وقيل هو حي بشربه ماء الحياة.

[3] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج1 ص602 ـ 604.

[4] - حوادث في قضايا المرآة والتراث والحرية ص49.

[5] - كتاب معجم البلدان المجلد الثاني ص378 ـ 379.

والأقوات وغلاء الأسعار وزوال النعم، وأكلوا كل ما وجدوه من الجمادات والحيوانات والميتات، (وباعوا حتى أولادهم فبيع الولد بخمسين درهماً وأقل من ذلك، حتى أن كثيراً كانوا لا يشترون من أولاد المسلمين، وكانت المرأة تصرح بأنها نصرانية ليشترى منها ولدها لتنتفع بثمنه، ويحصل له من يطعمه فيعيش وتأمن عليه من الهلاك)[1].

وقد يريد الأب أن يبيع ابنه لثمنه الغالي أو يبيع الأب ابنه لأنه سيؤخذ إلى مصر[2].

كان متعارفاً قديماً أيضاً حينما يكثر دين الشخص ويصبح غير قادر على الدفع أن يتفق مع صاحب الدين أن يعمل لديه إلى الأبد حتى الممات وبما يأمر الدائن وذلك مقابل تأمين الأكل والملبس والسكن مع إسقاط حق الدين أيضاً.

ربما يتعجب البعض من هذا القول، ولكن تجد في أحاديث كبار السن وأثناء روايتهم لحادثة ما، أو ذكر قصة وقعت بأن فلاناً كان مديناً لفلان فزوجه بنته، وكان مهرها مقابل الدين على أبيها، أليس هذا من بيع الشخص نفسه، إذ كيف يكون مهراً، والمهر عادة يتفق عليه حين عقد القران بينما المهر المزعوم هو مقابل دين قديم على والد العروس مثلاً. ثم أليس المهر من حق العروس وليس من حق أبيها وأهلها.

5 ـ الاستعباد لمدة:

قيل إن إسحق أمر ابنه يعقوب أن ينكح امرأة من بنات خاله لبان بن ناهر، فذهب لهناك خاطباً فقيل له: هل من مال أزوجك عليه؟ فقال يعقوب: لا، إلا أني أخدمك أجيراً حتى تستوفي صداق ابنتك، قال فإن صداقها أن تخدمني سبع حجج وتم ذلك[3].

---

[1] - البداية والنهاية ص87.

[2] - المماليك ص49.

[3] - قصص الأنبياء ص209 ـ 211.

تذكر قصة موسى عليه السلام حينما خرج من مصر إلى أرض مدين وكيف خدم الشيخ صاحب الغنم ثماني سنوات نظير أن يزوجه إحدى ابنتيه[1].

ذكرت هاتين القصتين وربما أحدهم يقول: إن ذلك ليس إلا استئجاراً ولا يدخل في نطاق العبودية ولكنها ذكرتني بشخص قيل إنه دخل رحبة ميكانيك وهو حدث لم يبلغ سن الثامنة عشر ولم يكن يعرف الميكانيك، لكن كان العقد ينص على أن يعلموه صنعة الميكانيك على أن يمارسها بعد تعلمه بأجر حدد بحيث يستوفي ثمن تعليمه. وإلى عهد ليس ببعيد كان القطاع الخاص يستقطب الصغار مجاناً مقابل استغلال جهدهم بتكليفهم بأعمال مختلفة بحجة أنهم يعلمونهم الصنعة سواء الميكانيك للشباب أو الخياطة للفتيات مثلاً. حتى على نطاق التعليم سابقاً بالكتاب كانت لخدمة من قبل المتعلم إذا لم يدفع الرسم المقرر للمعلم، كما تجد بعض المعاهد والجامعات التي تكلف كثيراً حتى يتخرج الطالب منها، قد يتقاضى مبلغاً كمصروف خلال دراسته يكلف بأن يخدم الدولة ثلاثة أضعاف المدة الدراسية، أو حتى إلى مدة غير محددة، ولفت انتباهي أحد الأشخاص المدنيين أنه أعطي شهادة تقدير كبطل إنتاج، وذكر فيه أن فلاناً من ملاك كذا.

أعود وأقول إن هذا اتفاق تعلم مقابل خدمة للمعلم سواء الأشخاص أو القطاع العام مثلاً، لكن أذكر أيضاً وقبل مدة ليست بطويلة أنه في إحدى الدول التي يذهب إليها الناس للعمل كان ملزماً للعمل بأمر من أمن له الفيزا كما يقال وفي حال تركه العمل كان يعلن عنه من قبل الوكيل الذي أمن الفيزا له بقوله: (من وجد عبدنا فلان) وحالياً استبدلت العبارة لبشاعتها إلى عبارة (من شاهد عاملنا فلان).

أعود وأقول بأن ذلك يمكن تبريره أيضاً في (الاستعباد) ولكن ماذا يقال عن شراء الرياضيين الدارج حالياً. فقد ذكر في جريدة ما يلي: (حقق بريان روبسون كابتين منتخب انكلترا السابق ومدرب فريق ميدلسيره الحالي صفقة ناجحة وخطوة كبيرة لدعم فريقه، عبر شراء نجم منتخب البرازيل جوفينو واعتبر البعض

---

[1] - اليهود في القرآن ص194 ـ 196.

المبلغ الذي دفعه النادي المتواضع وقدره 5،7 مليون دولار ضرباً من الجنون مقابل لاعب شاب عمره 23 عاماً).

(هذا العقد يؤكد طموح بريان روبسون لجعل فريقه واحداً من فرق المقدمة من الدوري الإنكليزي، وكان قد دعم فريقه بلاعب صاعد آخر اسمه بامبي من فريق توتنهام مقابل 8 ملايين دولار).

(ورغم صغر سن جوفينو لكنه اختير أفضل لاعب في البرازيل لهذا العام وحاولت عدة أندية أوروبية شراءه منها الأرسنال الإنكليزي وأنترميلانو الإيطالي وبورتو البرتغالي)[1].

يذكرني هذا بعصر المماليك موضوع هذا الكتاب. ألا ترى في ذلك الزمن عصر الحروب والانتصارات بأن من نعتوا بالمماليك المشترات مثل هؤلاء اللاعبين؟ أولئك لساحة الوغى وهنا في الملعب الأخضر؟ فهل يا ترى سيذكر بعد سنوات أن اللاعبين البارعين ذوي الأقدام الذهبية استعبدوا أو استرقوا؟.

6 ـ الاستعباد قانوناً:

عندما ولد يوسف عليه السلام دفع به أبوه يعقوب إلى أخته عمة يوسف تحضنه، وكانت أكبر أولاد إسحاق، وصارت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، ووقعت نفس يعقوب على ابنه يوسف فأتى أخته وقال: يا أخية سلمي إلي يوسف، قالت: فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه. فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه؟ ثم قالت:لقد فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها ومن أصابها. فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لي لَسَلَم (بالفتح) أصنع فيه ما شئت. وأتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها أنت وذاك، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت. قال: فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل)[2].

---

[1] - جريدة الموقف الرياضي العدد 1547 تاريخ 1965/11/25 ص7.

[2] - قصص الأنبياء ص228 ـ 229.

تكرر الأمر مع يوسف عليه السلام حينما خبأ صواع الملك مع أمتعة أخيه بنيامين وسأل يوسف إخوته وهم لا يعرفونه عن جزاء من سرق فقالوا: جزاؤه في حكمنا بأن يسلم لفعله ذلك إلى من سرقه حتى يسترقه كما قال تعالى: (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) ويعني حكم ملك مصر وقضاته لأنه لم يكن في حكم مصر وقضاته أن يسترق السارق بما سرق، ولكن يوسف أخذ بكيد الله له حتى أسلمه ودون اعتراض إخوته لأن من شريعتهم[1].

نجد في التاريخ وقبل إلغاء الرق دولياً حيث أنه في حال عدم تمكن الشخص من دفع ديونه لكثرتها وتخطى سن الشباب أن يتفق المدين مع الدائن بأن يبقى المدين في خدمة الدائن حتى الممات مقابل دينه ويكلف بما شاء من أعمال على أن يقدم الدائن المأكل والمشرب والملبس والمنام.

تجد نوعاً آخر من العبودية المبطنة وهو لا يدخل في الاستعباد حيث كان الشخص يلجأ إلى أمير ما يعمل عنده في الزراعة مثلاً طيلة الحياة مقابل أن يؤمن له الأمير متطلبات المعيشة إضافة إلى تأمين حياته. وعند العرب أيضاً كان يلجأ فقير أو مستبعد من قومه وموطنه إلى ديار أمير آخر ويعمل عنده مقابل حمايته، وغالباً ما كان المستجير هذا ينادي الأمير بكلمة عمي، ويكون قريباً منه وفي خدمته كتقديم القهوة للضيوف مثلاً.

[1] - قصص الأنبياء ص247 ـ 248 واليهود في القرآن ص166 ـ 169.

1 ـ قديماً:

قيل إن أول ما عرف الاستعباد هو في عهد إدريس عليه السلام الذي نزل عليه نقلاً عن أهل التوراة ـ ثلاثون صحيفة وكان قد مضى من عمر آدم ستمائة واثنتان وعشرين سنة، وكان إدريس أول من خط بعد آدم وجاهد في سبيل الله، وقطع الثياب وخاطها، وأول من سبي من ولد قابيل، فاسترق منهم)[1].

قيل بعد الطوفان (إن نوحاً دعا لسام بأن يكون الأنبياء والرسل من ولده، ويكون ليافث بأن يكون الملوك من ولده، وبدأ بالدعاء ليافث وقدمه في ذلك على سام، ودعا على حام بأن يتغير لونه، ويكون ولده عبيداً لولد سام ويافث)[2].

ذكر ابن إسحاق كيف أتى أصحاب النجوم نمرود فقالوا له: نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قريتك، فبدأ نمرود بسجن الحبلى من النساء حتى تلد فيقتل الذكور (إلا ما كان من أم إبراهيم امرأة آذر فإنه لم يعلم بحبلها، وذلك أنها كانت جارية[3] ـ حدثه فيما يذكر ـ لم يعرف الحبل بطنها... فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها)[4].

نذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع فرعون مصر وكيف قال عندما سأله فرعون عن زوجته سارة فقال: إنها أخته، وانتهى الأمر بأن فرعون تركها وردها إلى

---

[1] - قصص الأنبياء ص78.

[2] - قصص الأنبياء ص106.

[3] - جاء في المصباح المنير ص38، قيل للأمة جارية على التشبيه لجريها مستسخرة في أشغال مواليها، والأصل في الشابة لخفتها ثم توسعوا حتى سموا كل أمة جارية، وإن كانت عجوزاً لا تقدر على السعي تسمية بما كانت عليه، والجميع الجواري، انظر منجد الطلاب ص81.

[4] - قصص الأنبياء ص135.

إبراهيم ووهب لها هاجر، وهي جارية قبطية، ثم وهبتها سارة لإبراهيم فولدت إسماعيل عليه السلام[1].

تمر الأيام ويصبح محمد صلى الله عليه وسلم صهراً لأهل مصر من مارية القبطية التي أهديت له من المقوقس صاحب الإسكندرية.

2 ـ أوروبا:

نظام الطبقات عرف في أوروبا وهو يختلف عن نظام العبيد، فحين قيام الثورة الفرنسية عهد الملكة أنطوانيت لم يذكر شيء عن طبقة العبيد، بل كانت هناك طبقة الشعب المالكين فهم كانوا أحراراً لكن فقراء معدومين تقريباً يقومون بكل أنواع الأعمال وكان لكل منهم سكن خاص به مع أسرته، وكانوا مستغلين من قبل الملوك والأمراء والنبلاء. وفيما بعد احتاجت أوروبا لليد العاملة بعد نهضتها الصناعية فأصبحت تجلب السود من إفريقية للعمل كعبيد يشترونهم ممن يجلبهم سواء كانوا عبيداً أم لا. ومجرد وصولهم إلى أوروبا وبلونهم الأسود كان كافياً لاعتبارهم عبيداً في خدمة البيض.

انتقلت فئة العبيد من أوروبا إلى أمريكا التي بدأت تجلب السود من إفريقية، وكانوا لا يساوونهم في كل شيء.

أول ما يخطر على البال عند ذكر أوروبا الشرقية هي روسيا التي (كانت متخمة وبدائية في البداية فقد أغدقت عليها الدول الأوروبية (وخاصة فرنسا) الأموال، وأمدتها بالعلماء والأساتذة والمعلمين لتعليم اللغة الفرنسية والموسيقى والعلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء سواء من فرنسا أو ألمانيا حتى بدأت طبقة معينة تظهر، وتمتد في المدن الروسية، وكان الأقنان يشكلون مع ذلك 80% من السكان، وكانوا في حالة يرثى لها من البؤس والفقر بسبب الاستغلال)[2].

ولكثرة نسبة الروس الأقنان جاء في كلمات شاعر جوال قوله:

---

[1] - قصص الأنبياء ص144 ـ 146 ومروج الذهب ومعادن الجوهر ج1 ص49 وكتاب معجم البلدان المجلد الأول ص339.

[2] - نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال ص14 ـ 15.

إبراهيم ووهب لها هاجر، وهي جارية قبطية، ثم وهبتها سارة لإبراهيم فولدت إسماعيل عليه السلام[1].

تمر الأيام ويصبح محمد صلى الله عليه وسلم صهراً لأهل مصر من مارية القبطية التي أهديت له من المقوقس صاحب الإسكندرية.

2 ـ أوروبا:

نظام الطبقات عرف في أوروبا وهو يختلف عن نظام العبيد، فحين قيام الثورة الفرنسية عهد الملكة أنطوانيت لم يذكر شيء عن طبقة العبيد، بل كانت هناك طبقة الشعب المالكين فهم كانوا أحراراً لكن فقراء معدومين تقريباً يقومون بكل أنواع الأعمال وكان لكل منهم سكن خاص به مع أسرته، وكانوا مستغلين من قبل الملوك والأمراء والنبلاء. وفيما بعد احتاجت أوروبا لليد العاملة بعد نهضتها الصناعية فأصبحت تجلب السود من إفريقية للعمل كعبيد يشترونهم ممن يجلبهم سواء كانوا عبيداً أم لا. ومجرد وصولهم إلى أوروبا وبلونهم الأسود كان كافياً لاعتبارهم عبيداً في خدمة البيض.

انتقلت فئة العبيد من أوروبا إلى أمريكا التي بدأت تجلب السود من إفريقية، وكانوا لا يساوونهم في كل شيء.

أول ما يخطر على البال عند ذكر أوروبا الشرقية هي روسيا التي (كانت متخمة وبدائية في البداية فقد أغدقت عليها الدول الأوروبية (وخاصة فرنسا) الأموال، وأمدتها بالعلماء والأساتذة والمعلمين لتعليم اللغة الفرنسية والموسيقى والعلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء سواء من فرنسا أو ألمانيا حتى بدأت طبقة معينة تظهر، وتمتد في المدن الروسية، وكان الأقنان يشكلون مع ذلك 80% من السكان، وكانوا في حالة يرثى لها من البؤس والفقر بسبب الاستغلال)[2].

ولكثرة نسبة الروس الأقنان جاء في كلمات شاعر جوال قوله:

---

[1] - قصص الأنبياء ص144 ـ 146 ومروج الذهب ومعادن الجوهر ج1 ص49 وكتاب معجم البلدان المجلد الأول ص339.

[2] - نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال ص14 ـ 15.

أشعاري تمجد سلطانا
الشيخ منصور، بطل الإيمان منذورة لبأسه
همام في الوغى، لا غبار على سيره وسيرته
لقد آمنت به أديغة وداغستان وشروان
يحكي، قد استعرت في القلوب نيران
عن المآسي والأهوال، ويحمى حمانا
مسيرته سلسلة هائلة من الانتصارات
ويروى، بعبوره، ساحة الإيمان المقدسة
بالدم لكل موسكو في رقيق[1].

3 ـ آسيا:

عندما بدأت جيوش المسلمين في فتوحاتها لآسيا بعد بلاد الشام لم يأت ذكر في الأماكن التي سيطر عليها المسلمون في ذلك الوقت وجود عبيد فيها.

وكان الأمر كما هي القاعدة في الفتوحات الإسلامية يخير القوم بين الإسلام أو الجزية أو القتال وكنظام كان سائداً في البلاد العربية قبل الإسلام حيث يسبى ويستعبد من يخسر في المعركة.

استمر الأمر بعد الإسلام مع حثه بالطبع إعتاق الرقاب والعبيد، ونجد في بعض الكتابات عن الفتوحات الإسلامية بعد رفض الطرف الآخر الدخول للإسلام أو دفع الجزية كانت الحرب فيسبى الناس وتأخذ أموالهم، مما يؤكد أن تلك الشعوب والأقوام لم تكن تعرف حينها طبقة العبيد على الأقل، كما جاء في (ذكر مصالحة جند سابور: ثم سار بعض المسلمين عن السوس فنزل بجند سابور وزر بن عبد الله محاصرهم فأقاموا عليها يقاتلونهم فرمى إلى من بها من عسكر المسلمين بالأمان فلم يفاجأ المسلمون إلا وقد فتحت أبوابها وأخرجوا أسواقهم فسألهم المسلمون فقالوا: رميتم لنا بالأمان فقبلناه وأقررنا الجزية. فقال المسلمون ما فعلنا. وسأل المسلمون بعضهم من فعل ذلك، فإذا هو يدعى مكثفاً كان أصله منها فعل هذا.

---

[1] - دروب الهجرة ص32.

فقالوا: هو عبد. فقال أهلها: لا نعرف العبد من الحر، وقد قبلنا الجزية وما بدلنا فإن شئتم فاغدوا. فكتبوا إلى عمر فأجاز أمانهم فأمنوهم وانصرفوا عنهم)[1] ، وهذا يدل على ما ذكرته.

انتشر الإسلام وساد حتى جاءت جحافل المغول والتتار، وقد تحدثت بعض الكتب عن أمور السبي وبعض أشخاصها، مثل سبي بنت آخر خلفاء العباسيين في بغداد المعتصم بالله، أو سبي فئة ما فنجدها من أصحاب بعض الصنائع المهمة بالنسبة لهم، ممايدل أن موضوع العبودية وبيع الأشخاص كعبيد غير دارج والمعروف أن المغول كانوا يقتلون كل إنسان من أعدائهم حتى الصبية ويتفاخرون في قطع الرؤوس وجعلها كالتلال، ويهدمون كل بناء، ويحرقون كل شيء حتى الأشجار وبعد أخذهم الأموال المنقولة فقط.

بما أننا نتكلم عن عصر السلاطين أود ذكر ما جاء في جواب السلطان الملك المنصور قلاوون للسلطان المغولي في رسالة جوابية: قنغرطاي ـ كونغوراداي ـ بالروم، وهي بلاد في أيديكم وخراجها يجبى إليكم، وقد سفك فيها وقتل وسبي وهتك وباع الأحرار وأبى إلا التمادي على الإضرار والإصرار[2].

4 ـ بلاد العرب:

كانت العرب تعرف العبيد بمعناه القديم الشراء والبيع كالسلعة، وأعني بأنه كان هناك عبيد يشترون ويباعون ويعتقون، كان منهم من أحفاد إسماعيل عليه السلام. فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لئن أقعد أصلي مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة[3] حتى تطلع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربعة[4]، من ولد إسماعيل، ولئن أقعد مع قوم

---

[1] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية الجزء 1 ص137.

[2] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص378.

[3] - الزمن من الفجر وفسر الغدوة ما بين الغداة إلى طلوع الفجر.

[4] - في نسخة رقية أي ينال ثواباً.

يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحب إلى من أن أعتق أربعة) رواه أبو داود[1].

يتضح من هذا الحديث أن القيام بذكر الله أفضل من عتق العبيد، فالعبودية كانت سائدة ودارجة عندهم كنظام وبشكل طبيعي وفي بداية الإسلام كان لابد من الإيمان أولاً فلهذا كان الحث والتركيز على ذكر الله وخاصة بعد صلاة الفجر فالنهوض لصلاة الفجر بالجامع والبقاء فيه ذاكراً الله حتى طلوع النهار يدل على الإيمان.

بعد أن ترسخ الإيمان بوشر الجهاد والقتال في سبيل الله فكان الحض على قتال الكفار من أولى المهمات فاعتبر الجهاد أفضل من عتق العبد. فقد جاء في حديث رواه أنس ابن مالك أيضاً قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رمى رمية في سبيل الله قصر أو بلغ كان له مثل أربعة أناس من بني إسماعيل أعتقهم)[2].

بعد الجهاد جاء الحث على عتق الرقاب مثوبة أو كفارة كما في حالة القتل الغير متعمد، وكفارة اليمين، وما إلى ذلك. ونذكر أن بلال الحبشي رضي الله عنه مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عبداً يعذب وبعد إسلامه رفض أن يلفظ الكفر ثم اشتري وأعتق، ومما ذكر يبدو أن نظام العبودية كان موجوداً متعارفاً عليه عند العرب ونقلوه إلى مختلف البلدان التي فتحوها.

---

[1] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج1 ص295.

[2] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج1 ص281.

نظام الطبقات

1 ـ الطبقات بشكل عام:

خلق الـلـه آدم عليه السلام ومنه حواء ورزقا بنين وبنات وزوجهم لبعض، ولكـن رأى قابيل أنه هو الأحق ولم يرضَ بما قسمه ربه، وحسد أخاه هابيـل فقـال لأقتلنـك، لأن الـلـه تقبل قربانـك ورد قربـاني، وتريـد أن تـنكح أختـي الحسـناء وأنكـح أختـك الدميمة، فيتحدث الناس بأنك خير مني، ويفخر ولدك على ولدي[1].

ظهرت الطبقات بعد إدريس عليه السلام ونقـلاً عـن علـماء الفـرس، قيـل أن جم بن بونجهان ملك خمسين سنة للأقـاليم السـبعة كلهـا وسـخر لـه الإنـس والجـن ووضع على رأسه التاج وصنف (الناس أربـع طبقـات: طبقـة مقاتلـة، وطبقـة فقهـاء، وطبقة كتاباً وصناعاً وحراثين، واتخذ طبقة مـنهم خـدماً، وأمـر كـل طبقـة مـن تلـك الطبقات بلزوم العمل الذي ألزمهم إياه)[2].

نعرف أن العرب زمن الجاهلية كانوا قبائل وعشائر ولكل منها أمـير أو شـيخ لـه أتباعه ثم من يقومون بالخدمة، وكانوا يملكـون العبيـد. وقبـل وصـول الرسـول صـلى الـلـه عليه وسلم المدينة المنورة كانت يثرب تنوي أن تعلن عن ملك لهـا. وحـال دون ذلك وصول الرسول الأمين وتعليمات القـرآن الكـريم الـذي يـدعو إلى مسـاواة النـاس والتفضيل يكون بالتقوى فقط.

ظهرت الطبقات ولم تلغ بتاتاً حيث تجد في العهد الذي كتبه الإمـام عـلي بـن أبي طالب كرم الـلـه وجهه إلى والي مصر الأشتر النخعي أكد وجود طبقات متمايـزة. كـما جاء في نهج البلاغة، (واعلم أن الرعية لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى لبعضها عن بعض، فمنها: جنود الـلـه. ومنها كتاب العامة والخاصـة ومنهـا: قضـاة العـدل ومنهـا: أعمال الإنصاف والرفق. ومنها: أهـل الجزيـة والخـراج، ومنهـا أهـل الذمـة ومسـلمة الناس ومنها التجار، وأهل الصناعات ومنها:

---

[1] - تفسير البشائر وتنوير البصائر ج1 ص397 ـ 398.

[2] - قصص الأنبياء ص8 و 82.

الطبقة السفلى، ومن ذوي الحاجة المسكينة، فالجنود حصون الرعية، وسبل الأمن.. ثم لا قوة للجنود إلا من يخرج الله لهم من الخراج.. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب.. ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات)[1].

استمر حال الطبقات حتى عصر السلاطين موضوع بحث هذا الكتاب، فقد جاء عنهم (طبقات منها الفلاحون والعمال والتجار والصناع والموظفون، ثم طبقة الأغنياء والوجهاء، ثم طبقة المماليك وكان لهم النفوذ والهيمنة على مصائر البلاد)[2]

عرف نظام الطبقات عند الأوروبيين أيضاً، فكان منهم الملوك والأمراء والنبلاء وعامة الشعب فلاحين وصناع، والجدير بالذكر أن هذه الطبقات مع اختلاف التسميات هي تقريباً نفس ما جاء في قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه فعند الأوروبيين الملوك والأمراء كانوا الحكام، والنبلاء مثل المحافظين لكل ولاية نبيل. أما طبقة عامة الشعب فهم الزراع والصناع أما المختص للدفاع فهم الأمراء والنبلاء فقط فعامة الشعب لا تقاتل بل تعمل وتنتج فقط ومن يدافع عنهم وعن الوطن هم الأمراء والنبلاء والفرسان حتى الملوك كانت تخوض المعارك بل تقودها بنفسها.

2 ـ طبقات الشراكسة:

لابد من البداية من ذكر نظام الطبقات عند الشراكسة في بلادهم القفقاس، وسيتضح السبب فيما بعد عند دراسة سلاطين مصر والشام حيث تجد أن أغلبهم من الشراكسة كما سيتم ذكر سبب قدومهم في حينه.

قبل ذكر تفاصيل نظام الطبقات لدى الشراكسة لابد من بيان أن نظام الطبقات لم يكن لدى كل قبائل الشراكسة بل أن ذلك النظام انتقل إليهم من الآخرين، وأقصد الروس الذين وصلهم من أوروبا.

كانت دولة الروس عبارة عن ما عرف بإمارة موسكو، بعد أن استقر وضعها بدأت رغبتها في التوسع والوصول إلى المياه الدافئة، وكانت بلاد الشراكسة سداً

---

[1] - مجلة العربي العدد 367 حزيران 1989 ص25 ـ 26.

[2] - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص19.

منيعاً أمامهم لمدة طويلة، وكان لابد من التقرب إليهم لخرق هذا الجدار، فتقربوا للقبرطاي الذين يسكنون في الوسط بين بحري قزوين والأسود ليكون لهم منفذ من الشمال إلى الجنوب أي إلى جورجيا وأرمينيا.

بعد ذلك عرف القبرطاي نظام الطبقات، وكذلك البجدوغ وهم من شراكسة الغرب ـ لاتصالهم الحدودي، كما عرف آخرون أيضاً نظام الطبقات، لكن كان يختلف عن نظام القبرطاي.

قبل سرد نظام الطبقات لدى الشراكسة لابد من توضيح مصطلح (بشي ـ بشيتل ـ بشيل) والذي قصد به وترجم بمعنى عبد خطأ، فقد ترجمه بعض الروس وغيرهم من الأجانب والرحالة والمسافرين، كما ادعى لابينسكي 1963 بأن الشركس أخذوه في الأصل عن التتار[1].

المعنى الحقيقي لكلمة (بشيتل) هي (رجل الأمير) أي تابعه، وليس رقيقاً، كما فهم الناس إذ لم يتواجد عبيد عند الشراكسة في تاريخهم، وقد أسيء فهمه بعيداً عن الحقيقة[2].

يوجد فرق بين العبد وغيره، فالعبد مستملك لا يقدر أن يملك بل كل ما يملكه ـ إن وجد ـ فهو لسيده، ولا تجوز دفع الزكاة للعبد كما ذكرنا سابقاً، وكذلك العبد لا يقاتل بإرادته هو، بينما طبقة (بشيتل) كانوا يحملون السلاح ويشكلون جزءاً من القوات المحاربة[3]، كما يتملكون ملكية خاصة بهم فيتملكون المواشي مثلاً، ولهم حق مقاضاة سيدهم وجعله يمتثل أمام القاضي، والعلاقة القائمة كانت بأن على (البشيتل) أن يقدم أعطيات معينة إلى النبيل، أو العمل عنده مقابل حمايته والدفاع عنه ويتحمل كافة النفقات[4]. هذا كان عند القبرطاي ـ أما فئة الأتباع المذكورة لدى القبائل الشركسية الأخرى (في كثير من الأحيان أفضل من شروط

---

[1] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص66.

[2] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج1 ص57.

[3] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص66.

[4] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص66 ـ 67.

وحياة الأحرار، وبالنسبة للعادات المتبعة في الولادة والزواج والدفن وغيرها من أمور الحياة اليومية السارية بين الأتباع فقد كانت نفس عادات الأمراء)[1].

إذا سردنا نظام الطبقات عند الشراكسة بالتفصيل فنجدها كما ذكرها دولبيز دومونتارو خمس طبقات هي الأمراء ـ النبلاء ـ الأحرار ـ الخدم ـ الأتباع[2].

لا توجد فئة للعبيد كما ترى، بينما الكاتبة أي ساندرث قسمت الشركس إلى خمس فئات أيضاً هي الأمراء ـ النبلاء ـ الأحرار ـ العبيد ـ التابعين ـ والأتباع[3]، ويتضح أن كلمة العبيد أدخلت بالتقسيم بشكل غير صحصح، إذ كيف تكون فئة العبيد، إذا كانت موجودة أصلاً في مرتبة أعلى من الأتباع، نفس الأمر يقال لتقسيم جاباني عن المجتمع الشركسي الذي قسمه إلى أربع فئات هي[4]: الأحرار (البشي) ـ النبلاء (ورق) ـ الفلاحون الأحرار (تليقوتل) ـ العبيد (بشيتل) ومعهم أيضاً الخدم (ونه أوت)[5]. وكما ذكرنا كلمة العبد غير صحيحة وهي تعني رجل الأمير.

إذا اعتبرنا وفرضنا كما جاء في التقسيم أن كلمة (بشيتل) أي (رجل الأمير) أفضل من (ونه أوت) وتعني (الخدم ـ أشخاص الحوش ـ الذين ينتظرون أمام الباب) وباعتبار أن (ونه أوت) الخدم ليسوا عبيداً وهم أدنى درجة من (بشيتل) رجل الأمير فيعني أن كليهما ليسا من طبقة العبيد كما جاء في بعض التراجم.

إذاً كانت طبقات الشراكسة هي أمير القوم رئيسهم ثم النبلاء ويقسمون فئتين درجة أولى وثانية. ثم فيما بعد جعل الأمير جان خواتوقه باسلان من القبرطاي فئة النبلاء هذه خمسة درجات والطبقة الثالثة هي الجمهور وقسمها أيضاً الأمير جان إلى أربع فئات، والطبقة الرابعة منها هي رجال الأمير.

---

[1] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص 67.
[2] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص 53.
[3] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص 55.
[4] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص 55.
[5] - مصر والشراكسة ص14.

ومـن الواضـح أن هـذه الفئـات وضـعت لأسـباب مختلفـة وتعـدل الظـروف أو الأهواء ولمجرد التميز أو كمناصب خاصة لطبقة النبلاء فتعطى أسماء الفئات حسـب ما يقدمه النبلاء من بطولات وشجاعة.

يتضح ما أعنيه إذا عدنا لتقسيم الأمير جان خواتوقه باسـلان الـذي قسـم النـبلاء إلى خمس درجات وهي (تلاقوه تلش) وتكتب (لقوه لاش) وتعنـي الشـهير المعـروف، وتأتي بمعنى الحائز على أصناف الشهامة والشـجاعة، ثـم درجـة (يظنوغـوه) وتكتـب (ديظنوقه ـ دبجونوقه) وتعنـي ابـن الفضـة، وتطلـق عـلى أولاد الأمـراء مـن الطبقـة الثانية (انتبه إلى كلمة أولاد الأمراء فهم نبلاء فلا يكون الأمير بالوراثـة والنسـب)، ثـم درجة (قودز) وتكتب (كوه دزس) وتطلق على أعيان النبلاء الأجانب الذين تشركسـوا واستوطنوا مع الشراكسة، وتعني الكلمة ركاب العربات، فكأن الشراكسـة لا يعترفـون لهؤلاء الدخلاء بالفروسية. ثم درجة (بشـيش ورق ـ ورق صـاوه لـه غوسـه) وتكتـب (ورق شاوه تلي غوسه) ومعناها الرفيق الأصيل الشجاع المرافق للنبلاء.

أما فئة الشعب فيقسمها الأمير جان إلى أربع درجات هي: (بشي قـان)، وتكتـب (بشي كاو) وتعني رجل الأمير أو تابع الأمير ثم درجة (أوك تلاقوه) وقد تكتب (أوجـو ـ لاكوصاو) تعني فتيان القبيلة.ثم درجـة (الخوقـول) وقـد تكتـب مـن قبـل الـبعض، (فقول) تعني جمهـور الشـعب (ونـه أوت) وتعنـي كـما ذكرنـا سـابقاً خـدم البيـت. والجدير أن هذا النظام طبق لأول مرة لدى القبرطاي[1].

لوعدنا إلى الوراء قليلاً لوجدنا في رواية الآسـتيين نقـلاً عـن الجـورجيين (الكـرج ـ المنغوليين) بأن الشراكسة فئة واحـدة ولهـم أمـير مميـز، وهكـذا كـانوا حتـى وصـول القبرطاي من القرم[2]. والجدير بالذكر أن الجورجيين جيران للشراكسة من الحنوب.

---

[1] - تاريخ القوقاز ص175 ـ 177 وموجز تاريخ الجركس ص118 والـوطن في أدب الشراكسـة ص95 ـ 62 وعشائر الشام ج1 ـ2 ص6.

[2] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج1 ص10.

بعد الاتصال بين الشركس والروس ظهرت عدوى الطبقات، ثم حاولوا تطبيق النظام الإقطاعي على المجتمع الشركسي بجعله فئتين فئة الأمراء ومعهم النبلاء والفئة الأخرى الفلاحون التي تغيرت اللفظة إليها بدل كلمة الشعب والتي تضم لدى الإقطاعيين الأحرار وأتباع الأمراء[1]، مع العلم أن النظام الإقطاعي لم يمارس لدى الشراكسة بالشكل المعروف كنظام ظهر سابقاً.

يؤكد شورا بيكمورزين بوغموت هذا التقسيم إلى نبلاء وفلاحين ويقسم النبلاء إلى خمسة أقسام والفلاحين إلى تابعي الأمير والفلاحين العاملون ورجال الحوش والخدم[2].

إذا فصلنا أكثر بين القبائل التي تعرف بالشركس بشكل عام[3]، نجد أن الشيشان لم يكن لهم إقطاعيات ولا عبيد، وكلهم كانوا متساوين وديمقراطيين[4].

تجد الأبخاز تُبعوا مع الجورجيين للإمبراطورية البيزنطية خلال حكم جوستنيان، وفرض النظام الإقطاعي بطبقاته المصطنعة المختلفة عليهم، فكان لدى الأبخاز الطبقات التالية: أمير أبخازيا ـ الأمراء والتابعون ـ النبلاء ـ طبقة بين النبلاء والفلاحين كالفرسان ـ وفلاحون أحرار ـ فلاحون تابعون ـ العبيد ـ مع التأكيد أن لكل شخص ذكر أو أنثى حق حمل السلاح واستخدامه. وكان حمل السلاح أمراً يميز الحر من العبد أي من يحمل السلاح لا يصبح عبداً.

النظام الإقطاعي في أبخازيا كان هشاً ضعيفاً وأغلب الفلاحين والأمراء كانت بينهم رابطة قربى بالإضافة إلى المساواة بالسلوك، والعادات والتقاليد والامتيازات والقضاء، فيمكن لأي فلاح مقاضاة الأمير[5].

---

[1] - إبادة الشراكسة ص10.

[2] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص 54.

[3] - عشائر الشام ج1 ـ2 ص685.

[4] - عبر دروب الجبال ص144.

[5] - الأبخاز الشراكسة أزل وأبد ص74 ـ 75 ـ 78.

لم أعتمد على المصادر الشركسية فقط لتوضيح الطبقات الشركسية بل على مصادر روسية وأوروبية وغيرها حيث تجد اختلافاً كبيراً في كتاباتهم حول الطبقة الدنيا، وللمطالع لها يتضح بأنها لم تكن طبقة عبيد مطلقاً. فمثلاً يقول ن.ج، دانيليفتسكي عام1847 أي خلال الحرب بين قياصرة الروس والشراكسة والتي استمرت أكثر من مائة عام (وقبل إلغاء الرق وطبقة العبيد في روسيا الذي تم عام 1861م) فيقسم القبرطاي إلى خمس فئات كما يلي: (الأمراء ـ أصحاب السلطة الروحية ـ النبلاء ـ الفلاحون ـ غير الأحرار الأسرى)[1].

يجب أن نذكر أيضاً بأن الأبزاخ الشراكسة لم يكن عندهم طبقات مثل القبرطاي ولم تكن الإمارة بالوراثة، وكان أتباع الأمير المنتخب أو المعين متساوين مع أي شخص أو سيد آخر فيما يتعلق بالعمل، وكانت لهم الممتلكات الخاصة والمنقولة ولهم سكن خاص، يمكنهم إصلاح الأراضي واستغلالها[2]، وبشكل عام عند شراكسة الغرب ـ أي الساكنون في بلادهم من جهة الغرب ـ كانت الأمور فيها تتم ديمقراطياً (كما يحدث لوليه عن مناطق الناتخواج والشابسوغ والأبزاخ بأنها أقاليم ديمقراطية بسبب الانتخابات للحكام وعدم وجود أمراء وحتى في ظل الأمراء في بقية المناطق أو القبائل ـ القبرطاي ـ البجدوغ...الخ، فقد كان تمثيل الشعب موجوداً من قبل المندوبين في المؤتمرات الشعبية الكبيرة، التي تحسم المشاكل الكبيرة، أو في القضاء في الشؤون اليومية فكانت هناك مجالس قضاء، وكان الحكم يصدر من قبل مجموعة قضاة منتخبين)[3].

حول البجدوغ نذكر الحرب المشهورة المسماة حرب بزيقوه والتي كانت عبارة عن ثورة الشعب ضد الأمراء[4]، ومما يجدر ذكره أن قبيلة البجدوغ قتلت أمراءها بعد رفضهم النصيحة، وبعد تكرار الدعوة إليهم بأن يكون الحكم فيما بينهم

---

[1] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص 54.

[2] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص 68.

[3] - نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال ص73 ومجلة الشرق الأوسط العدد 5863 تاريخ 1949/2/17.

[4] - حرب بزيقوه ج1 وج2.

حكم الأخوة والعدالة والشرعية فلم يخضعوا فتم قتل أمرائهم في قرية تونجة قاي عام 1275هـ[1].

تجد هناك ألقاباً تطلق، لكن هذه الألقاب المأخوذة أو المعطاة لأفراد معينين في فترة ما قد تستمر، ولكن ذلك لا يعني كونها ناتجة عن نظام الطبقات دوماً فبعض الشراكسة مثل قبائل البسلني والجمكوري والبجدوغ والأباظة لهم اهتمامات بالألقاب ويحافظون عليها ويحترمونها بينما تجد قبائل شركسية أخرى مثل الأبزاخ والشابسوغ والناتخواج والوبيخ قد انتهوا منها نهائياً بعد النهضة القومية التي حصلت في بلادهم، ولم يكتفوا بهذا القدر بل أخرجوا الأمراء وأتباعهم[2].

تجد أن الطبقات لدى الشراكسة والتي على الأغلب استعيرت أو فرضت من الآخرين عليهم ولا يعني أن يكون الأمير أو النبيل ذا سلطة بلا منازع أو ملكاً مطلقاً فكما ذكرنا كان للإنسان العادي حتى الأتباع لهم حق محاكمة الأمير وهذا من ضمن عاداتهم وصفاتهم على مرور الزمن. حتى في زمن السلاطين في بلاد مصر والشام مثل السلطان الشركسي الأشرف قايتباي والذي حكم أكثر من تسع وعشرين سنة كما يذكر في التاريخ، وكان له سلطة واسعة ومع ذلك لا يتقيد بتقاليد الملوك، وعيب عليه مرة كيف ينزل إلى الأمير يشبك وهو تابع له وتحت سلطته في الوطاق[3] مرتين، بخلاف عادة الملوك وقواعدهم القديمة[4]، حتى بعد أن هجر أغلب الشراكسة عن بلادهم وشتتوا في أنحاء المعمورة حيث تجدهم حالياً متواجدين في أكثر من خمسين دولة في العالم مع ذلك تجدهم في البلاد التي هجروا إليها محافظين على عاداتهم وتقاليدهم فقد قيل عنهم (إن هذه الشعوب تعتبر أفرادها جميعاً متساوين في القيمة الاجتماعية (مجتمع الطبقة الواحدة) بغض النظر عن المعايير المادية أو الوظيفية أو الوراثية، مما هو متعارف عليه في المجتمعات اليوم. وقد بقي الشراكسة على عاداتهم حتى في المهجر، كما عاشت قبائلهم بدون

---

[1] - ميزوا باشا وصفي كتاب وثائقي ص157.

[2] - تاريخ القوقاز ص178.

[3] - الوطاق: الخيمة الكبيرة الخاصة بالسلاطين والأمراء.

[4] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص52.

سلطات تنفيذية، وإنما يتقيدون بعاداتهم وتقاليدهم بدافع ذاتي ناجم عن شعورهم بالمسؤولية فطروا ما عليه ويشعر به كل فرد منهم، هم لذلك لا يأتمرون إلا بالمجالس[1]، خاصة مجالس كبار السن الذي يمثل في نظرهم السلطة الوحيدة التي يعتبرون قراراتها واجبة التنفيذ ولا يتأخر أحد بتنفيذها تلقائياً وقد قادت الحرب الروسية الشركسية مجالس من هذا النوع)[2].

خلاصة القول إن عبارة (طبقات الشركس) تسمية غير دقيقة ولا صحيحة إن لم تكن هناك فروق كما ذكرنا بين جل الأشخاص، وكان يمكن الانتقال من طبقة إلى أخرى فمثلاً من طبقة الشعب إذ أبدع شخص في معركة قد ينتقل إلى فئة النبلاء مثلما كان يحدث في أوروبا فيعطى رتبة فارس عندهم. وعند الشركس كان يفرض على الأمراء ممارسة نشاطات محددة مثل القتال والفروسية وحماية الوطن والمواطن وكان أيضاً لا يسمح لهم بمزاولة نشاطات من عامة الشعب مثل الفلاحة[3]، أي توزيع نظام الطبقات عندهم ليست ميزة خاصة بالأفراد بل هي توزيع المهام والعمل أي توزيع الأعمال على الشعب.

3 ـ دفاع الشراكسة:

نجد في سرد تاريخي مختصر للأقوام التي هاجمت القفقاس في القرن الرابع قبل الميلاد الغوت الذين هاجموا بلاد القفقاس وحاربوا الأنت وهم قدماء الشراكسة، ولكن أشد الهجمات كانت من خان الأوار المغولية (بابان ـ باقان) عام 560 ق.م، وقام بتخريب البلاد بسبب عدم تمكنه من غريمه وأميرهم (لاورتياس) فلجأ إلى القسوة والعنف وتدمير البلاد بوحشيه.

بعد سيطرة الأحرار على الروس تقدموا إلى منطقة القبرطاي وطلب باقان من الأمير الشركسي لاوريستان بالاستسلام لكن الأمير رد عليه بالتهديد والاحتقار.

---

[1] - محاضرة بعنوان العرف والأساطير الشركسية للمؤلف ألقيت في 1999/5/20 ومن هذه المجالس المجلس الشعبي ومجالس الحرب ومجالس الأمهات.

[2] - الشركس في فجر التاريخ ص92 ـ 93.

[3] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص 54 ـ 55.

ومما جاء في رده: سنحاربكم ونقاومكم حتى لا يبقى من الشراكسة شخص واحد وبيده سيف، كما أرسل الأمير إلى بنالقوه الشركسي أمير منطقة (أنان ـ وطه مز ـ تسه مز) وللأسف قبل وصوله كان الأوار هاجموا لاوريستان الذي قتل في المعركة وتابع الأحرار مسيرهم والتقوا بالأمير بنالقوه في بادئ الأمر وانتصر الأوار، ولكن الأمير بنالقوه لَم شمل جيشه مع القوات التي كانت مع لاوريستان وقاموا بهجوم معاكس انتصروا فيها على الأوار الذين انسحبوا مغلوبين إلى الشمال وتخلصت بلاد الشراكسة من ويلاتهم وهمجيتهم.

بعد ذلك جاء (الوراق) وهم من الفايكنغ ومن الفرع الشرقي لشعب النورمان وهي قبيلة غازية شمالية جاءت من بلاد الاسكندينافية بقيادة زعيمهم (رويك) وهؤلاء الوراق غزوا روسيا ثم اتجهوا جنوباً، وكانوا جبابرة قيل إن البطل الشركسي سوسروقه الأسطوري حاربهم، وبعد فترة غزو الوراق ظهرت طبقة النبلاء وسميت مع الزمن باسم (وراق) واستمرت هذه الفئة الحاكمة من منتصف القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر حتى جاء جنكيز خان إلى روسيا واحتلها وقلب الأوضاع رأساً على عقب[1].

جاء غزو تيمورلنك عام 1388م، وهو عام شؤم للجورجيين (الكرج) حيث غزاهم، كما حارب الخان (توقتاس) عظيم جيش القبيلة الذهبية، وفي غياب قائدها عنهم احتل بلادهم في شمال قزوين ودخل عاصمتهم بلدة ساراي على مصب نهر الفولغا، ثم اتجه إلى بلاد كرجستان عن طريق مضيق داريال[2].

وفي العهد القريب كانت الحروب الروسية القيصرية ضد الشراكسة، والتي دامت أكثر من مائة عام، لقد جند الروس كافة إمكاناتهم للقضاء على الشركس بالحرق والتدمير والتهجير وارتكاب أبشع الجرائم ومما يذكره مؤرخوهم قبل غيرهم عن تلك الحروب والتي كانت حرب بقاء بالنسبة للشركس ـ فكان الأولاد وأمهاتهم يهاجمون الجنود الروس بأنفسهم مع الرجال عند نشوب

---

[1] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج1 ص41ـ53ـ56 وموسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص235ـ236.

[2] - الشيشان حرب إبادة وجريمة عصر ص20 ـ 22.

المعارك من أجل شرف الوطن وفي حال احتدام المعارك وعند رجحان كفة الأعداء كانت بعض النساء تقتل أبناءها كي لا يقعوا في يد الأعداء ثم تقاومن حتى الاستشهاد وبعض الرجال كانوا يقتلون نساءهم كي لا يقعن في يد الأعداء وقد تلجأ إحداهن إلى قذف نفسها في هوة أو واد سحيق أو في تيارات الأنهار الجبلية المتدفقة الحارقة[1] خشية الأسر.

كانت الحرب قاسية جداً على الناس وعلى الحيوانات التي كانت تنهب وتقتل، أما الأشجار والمزروعات فكانت تحرق والبيوت تدمر وتمحى عن سطح الأرض. وتجد في كل المصادر بأن الشركس دافعوا عن الوطن والشرف وكان مبدؤهم النصر أو الاستشهاد فكان المحاربون لا يستسلمون إذا غلبوا ويفضلون الموت على الوقوع في الأسر[2].

نعود إلى موضوع الكتاب ألا وهو عصر السلاطين الذين أغلبهم من أحفاد أولئك الناس، لذلك تجد هدفهم القضاء على الأعداء وهم لا يستسلمون، بينما تجد السكان الأصليين تراخوا عن ذلك الموضوع لانشغالهم بزراعتهم وصناعتهم وتجارتهم، في حين أن هؤلاء الوافدين المتشربين للإسلام أصبحوا فئة محاربة منفصلة عن بقية المجتمع نتيجة العمل العسكري الذي اختصوا به من جهة كونهم مختلفين عنهم أساساً في نواحي كثيرة مثل العادات واللغة والأعراف والتمييز وإيمانهم العميق بقضيتهم، وفي حالة السلم، أو في حال إعفاء أحدهم من مهنته العسكرية كان من السهل ملاحظة المكانة المرموقة له في المجتمع بمجال العلم والثقافة[3].

---

[1] - نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال ص43 ـ 347 ـ 349 الشيشان حرب إبادة وجريمة عصر ص21 ـ 22 ـ 26 ودروب الهجرة ص76 والشركس في فجر التاريخ ص12 واحتلال الروس للقفقاس ص162.

[2] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج1 ص56 وشامل في القفقاس وفي روسية ص16.

[3] - مدن الشام في العصر المملوكي ص176 ـ 177.

4 ـ اللاجئون لبلاد الشركس:

في الحروب التي خاضها الشراكسة مع أعدائهم لم يذكر بأنهم أسرو أو استرقوا أحداً، والذين بقوا من الأعداء في بلادهم أو الفارين من أمكنة أخرى أو الوافدين إليهم وسنسميهم جميعاً اللاجئون إلى بلاد الشراكسة.

إذا رجعنا إلى الوراء نلاحظ أن الأقوام التي جاءت إلى قفقاسيا كالمصريين والسوريين وغيرهم قديماً اختفت جنسياتهم واندمجوا بالأكثرية الشركسية وتلاشوا مع الزمن وتمثلوا في العناصر المحيطة بهم أي تشركسوا[1].

وتجد أيضاً أن المجريين جاءوا إلى بلاد القبرطاي الشركسية وكانوا أصدقاء متحابين وبعد انقراض مملكة الخور في القرن العاشر للميلاد لجأت عائلات خزرية إلى الشراكسة وعاشوا بينهم بسلام، وقدم اليونانيون للتجارة ونشر الدين المسيحي فعاشوا بسلام في بلاد الشركس.

وصل العرب مبشرين بالإسلام إلى تخوم البلاد الشركسية واندمجوا مع بعض القبائل وخاصة في داغستان.

بعد انكسار التتار آثر البعض العيش مع الشراكس حتى على نطاق خاناتهم الكبار واعتبرهم الشراكسة من النبلاء ولكنهم أبعدوهم عن الرئاسة والزعامة ومن الأمراء التتار الذين عاشوا بسلام في بلاد الشركس عائلة باخجري خان التي عاشت مع القبرطاي وعائلة سعادت كري خان وعاشت مع قبيلة الأبازه، وعائلة جوبان كري خان التي عاشت مع الحاتقواي.

كذلك باقي من التجأ إلى الشراكسة من الأتراك بعد فشل حربهم مع الروس في القرم وحتى كثير من الروس والأرمن والجورجيين أيضاً كانوا في بلاد الشركس يعيشون بسلام، ولم يستعبدهم الشراكسة مطلقاً[2].

إذا عدنا إلى ذكر طبقات الشراكسة وطبقة (البشيتل) حين ذكرنا بأن قسماً منهم هم من أسرى الحروب وكما كتب بيل 1940 عن أسرى الحرب بأن

---

[1] - تاريخ القوقاز ص148.

[2] - تاريخ القوقاز ص149 ـ 175.

الشراكسة كانت معاملتهم جيدة، ومن فترة قريبة ذكرت الصحف عن معاملة الشيشان الحسنة مع أسراهم في حربهم الاستقلالية الأخيرة مع الروس.

لم تذكر الأدبيات ولا كتب التاريخ أن استعبد الشركس أي أسير حرب لديهم مما يؤكد عدم وجود عبيد عندهم أيضاً، فكانوا يتركونهم أو يتم الاحتفاظ بهم للتبادل مع أسراهم[1].

ليس الأمر هكذا بل حتى في حروب الشراكسة مع الروس القياصرة فقد كانوا يطلقون بعض العيارات النارية أولاً لتنبيههم قبل الهجوم عليهم[2].

5 ـ كلمات استعملت:

شاع استخدام بعض الكلمات والمصطلحات قبل وبعد وخلال عصر السلاطين وقد استعملت للتقرب والتحبب والإخلاص، وليس بالمعنى الحرفي والظاهر، أو ما يفهم منها اليوم. وسأذكر أمثلة من بعضها لتوضيح المقصود مع تفصيل أكثر للكلمة الأولى:

آ ـ المملوك:

المقصود من هذه الكلمة هي المجاملة، مثلما يقول الشخص لآخر هذه الأيام، سيدي، أستاذ، وما شابه ذلك لتوضيح ذلك لنعد إلى عهد صلاح الدين الأيوبي، وهذا قبل عصر السلاطين موضوع الكتاب، وبغض النظر عمن قال إن البطل الأيوبي كان من العبيد، كما (قال ابن القارس: كان شادي جد صلاح الدين ـ مملوك بهروز الخادم[3]. نجد أن كلمة مملوك استعملت في رسالة كتبها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين يهنئه بنصر حطين (كتب المملوك هذه الخدمة، والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها والدموع لم تمسح من خدودها)[4]. وكذلك القاضي نفسه يهنئه بفتح حصن برزيه سنة 583هـ (الحمد لله، وحاضرها الله أكبر.ما بقي

---

[1] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص 68.

[2] - والشركس في فجر التاريخ التاريخ ص68.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج6 ص3.

[4] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص129.

المملوك يستبطئ خبر أنطاكية فقد ألقت الأرض أفلاذها..)[1]. وكذلك في رسالة ملك الأرمن كاغليوس إلى الأيوبي: (مما أطلع به علوم مولانا وملكنا السلطان الناصر...)[2]. وبالطبع لا يقصد صاحب قلعة الروم بأنه من مماليك صلاح الدين. ونجد في رسالة لأبي الهيجاء وهو تركي إلى صلاح الدين الكردي حول موضوع نصرة صلاح الدين ومنع الصليبين من أخذ القدس فيقول أبو الهيجاء: اجتمع عنده جماعة المماليك والأمراء[3]. ولا يقصد هنا عبيداً، وكيف يكون ذلك وهم يقرون خوض المعركة مع صلاح الدين أم لا. كما نجد صلاح الدين نفسه في رسالة إلى الخليفة يكتب (المملوك يخدم الحرم الشريف باحترامه، والفناء الكريم بإعظامه، والبساط المقبل بطول استلامه... كذلك المملوك أمسك حين كانت الأخبار بجانبه مشتبهة، والحقائق لديه غير متوجهة فإن طاغيّ الكفر القسطنطينية وصقلية كانا قد أوقدا للحرب ناراً)[4].

نجد أن صلاح الدين كتب للصالح إسماعيل بن نور الدين فقال: (أنا مملوك الصالح ما جئت إلا لأنصره وأخدمه)[5].

كانت كلمة المملوك تستعمل في المخاطبات للملوك والشخصيات الكبيرة في البلاد العربية ومع الملوك الأجانب فنجد فردريك الثاني يكتب للسلطان الكامل: (أنا مملوكك وعتيقك وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر. وقد علم البابا والملوك اهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خايباً انكسرت حرمتي بينهم، هذه القدس فهي أصل اعتقادهم وضجرهم. فإن شاء السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيادة فيكون منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر)[6].

---

[1] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص174.
[2] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص183.
[3] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص227.
[4] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص189.
[5] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص38.
[6] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص99.

نجد القاضي الكاتب محي الدين بن عبد الظاهر الذي عاصر السلطان الظاهر بيبرس يورد في كتابه عن سيرة الملك الظاهر ويكرر عبارة يقصد بها نفسه مثل (وكان المملوك الأصغر شاهداً سفراً وحضراً، ومعاينة لا خبراً)[1]. وهذا بالطبع دليل الاحترام والتقدير ودليل على تواضعه أمام ولي نعمته[2].

تجد بعد ذلك رسالة الأشرف خليل بن قلاوون إلى صاحب اليمن ليبشره بفتح طرابلس الشام 688هـ (المملوك يجدد خدمته ويقتفي فيها أثر والده، ويجرى في تبليغها على أجمل عوائده)[3]. فالأشرف خليل لم يكن هو ولا أبوه السلطان تابعاً لصاحب اليمن بل كان الأخير يتودد للسلطان ويخاف منه، وإنما كانت المجاملات بين أصحاب السلطات. وتجد في الرسالة التي لم يبعثها السلطان بنفسه بل ابنه وضمنياً تعني الرسالة لصاحب اليمن بأن انتبه. انتصرنا على الصليبيين ولن تعجزنا أنت ولا غيرك.

بعد عصر السلاطين وقدوم العثمانيين وفي مرسوم للسلطان سليم لأهل دمشق: (فعلت عساكرنا المنصورة بهم، فربطوا الخيالة لهم الطرقات، لئلا ينهزم منهم أحد، وصاحت عليهم مماليكنا الإنكشارية والتفكجيه)[4]. ومعلوم أن الإنكشارية هو جيش صنعه العثمانيون بأخذ الأولاد من ذويهم وهم صغار وشكلوا منهم جيشاً لهم.فلا يعرفون إلا أن أبوهم السلطان وأمهم دولة العثمانيين، وهذه الفئة لا تنطبق على المماليك، ولكنها استعملت وكذلك نجد كتابة على مسجد سليمان باشا تنص (قد بنى وعمر الجناب العالي مملوك سلطان السلاطين سليمان خان من آل عثمان، أدام الله دولته إلى يوم الدين، وهو أمير المصريين سليمان باشا اللهم اجعله من الفائزين مسجداً لوجه الله المعين طلباً لمرضاة رب العالمين ليعبدوا فيه الله وكان تاريخه فاركعوا لله مع الراكعين)[5].

---

[1] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص23 ـ 30 ـ 46.

[2] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص20.

[3] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص302.

[4] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص292.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص161.

ذكر سابقاً أن قيل أن شادي جد صلاح الدين من المماليك وكذلك السلاطين في الدولة التالية البحرية والبرجية ونجد من يقول أن العثمانيين من المماليك فقد ذكر: (ورثت دولة المماليك الثلاث وهي على التوالي: المماليك البحرية، والمماليك الجركسية، والمماليك العثمانية...حكم الديار المصرية والبلاد الشامية خمسة قرون)[1].

فيما بعد ذلك استمر استخدام الكلمة ذاتها، فقد جاء (الأمير الكبير محمد ابن أبي الذهب أحد أمراء مصر وولاتها الذين قاموا بدور خطير في سياستها فقد كان مملوكاً للأمير علي بك الكبير، ثم عينه خازندار له، ثم قلده الصنجقية، وألبسه الخلعة في حفلة أقيمت في القلعة، فسر بذلك محمد بك، وصار يوزع هبات ذهبية، وينشر الذهب على الفقراء فعرف بأبي الذهب، ثم عهد إليه في سنة 1185هـ ـ 1771م، بقيادة جيش كبير فتح سوريا باسم علي بك الكبير...)[2] ، فكيف يكون مملوكاً عبداً وله هذا الذهب الذي يوزع على الأحرار. أما كان الأجدر له ـ اللهم إن صح القول بأنه عبد ـ أن يشتري نفسه ويعتقها؟ ومن كان يمتلكه؟ هل هو الأمير علي بك الكبير؟ وإذا كان صحيحاً فمحمد بك هو وكل ما يمتلكه لعلي بك، ألا ترى أن تلك الكلمات وما شابهها وضعت من قبل واضع جهلاً أو بقصد السوء والانتقاص من أهمية الانتصارات العظيمة التي حدثت في بلاد الشام ومصر من الأعداء والأجانب سواء التتار والأتراك والأوربيين.

أعود وأؤكد أن هذه الكلمة وما شابهها تعني الاحترام للمخاطب، ولم تكن مقصورة على طبقة الأمراء بل حتى السكان العاديين كانوا يستعملونه، فقد اشتهر أهل دمشق بلباقتهم في سلوكهم، سواء أكان ذلك فيما بينهم أم مع الغرباء، وقد تأثر كثيرون ممن أقاموا بينهم بما فيهم من اللطف والاهتمام بالآخرين، والانطباع الذي وضعه كل من ابن جبير وابن بطوطه ـ وهذا كان قد جاب في طول الأرض وعرضها وتنقل براً وبحراً ـ حري بأن ينقل. فقد قال ابن جبير: مخاطبة أصل هذه

---

[1] - صور ومظالم من عصر المماليك من المقدمة.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص175.

الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد، وبامتثال الخدمة، وتعظيم الحضرة، وإذا التقى واحد منهم آخر مسلماً يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة، كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً، والجد عندهم عتقاء مغرب، وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هوياً)[1].

ما هي حقيقة المماليك إذاً؟ (فالمماليك لم يتم شراؤهم من قبل الأشخاص ـ إن صحت كلمة الشراء عليهم ـ بل السلاطين دفعوا لاستقدامهم من بيت مال المسلمين)[2]. لجعلهم جنوداً للدفاع عن بلاد المسلمين وما دفعه بيت المال لا يعني مطلقاً في الإسلام شراء عبيد أو أشخاص[3]، ولنذكر ما كتبه الدكتور شوكت المفتي: (وهنا تعبير آخر يجب ذكره هو (المملوك) مع العلم أن المماليك لم يكونوا في حال من الأحوال أرقاء بل كانوا جنوداً يخصون الملك أو الأمير كحرس خاص، ويخدمون مقابل رواتب وأجور، ويستخدمون أيضاً ليناهضوا غيرهم من الجنود المحاربين الأجانب كالفرس والترك، والدليل على ذلك أنهم حينما تهيأت لهم الفرص، أصبح المماليك ملوكاً واثبتوا جدارتهم في الحرية كما شهد لهم بذلك التاريخ)[4].

تذكر بعض الكتب بأن المماليك هم الجنود الميليشيا والذين أصبحوا طبقة عسكرية ثم طبقة حاكمة[5]. ويذكر في التاريخ الانتصارات التي حققوها ضد الصليبيين والمغول ويرى المرحوم محمد زاهد بن الحسن الكوثري وهو عالم دين إسلامي عاش آخر أيامه في مصر وله مؤلفات بالفارسية والتركية والعديد بالعربية، وأغلبها متعلقة بالدين قال: (إن أسير الحرب لا يدل على أنه غير أصيل، بل يدل على

---

[1] - دمشق في عصر المماليك ص136.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص54.

[3] - المماليك ص82.

[4] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج1 ص57.

[5] - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ص22 ـ 23.

أنه وطني صحيح عانى كل شقاء في سبيل الدفاع عن بلاده، ويرى أن إطلاق المماليك إنما هي شتيمة لا تبيحها الشريعة الإسلامية ولا يستسيغها الخلق الكريم)[1].

بـ ـ عبد:

استعملت بمعنى احترام للأعلى مرتبة، كما جاء في الرسالة الشفهية لقائد الجيش المغولي كيتويوقا لهولاكو بعد أن خسر المعركة ـ في عين جالوت ـ (مادامت نفسه الشريفة ـ أي هولاكو ـ آمنة وسالمة فإنها تكون عوضاً لكل مفقود، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير)[2].

ج ـ عتيق:

جاء في رسالة الأمير الإمبراطور فريدريك الثاني إلى الملك الكامل لما قدم إلى سورية عام 626هـ من أجل بحث موضوع القدس: (إني عتيقك، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج وأنت كاتبتني بالمجيء...)[3]. فهل يعقل من أكبر ملوك الفرنج أن يعتبر نفسه عبداً مثلاً؟.

د ـ غلام:

جاء في رسالة جوابية من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين: (إن قاعدة الفرنج إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار يتبعه وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إلي وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي)[4]. ويتضح أن كلمة غلام التي جاءت في الرسالة لا تعني نهائياً بمعنى العبودية ولا تساوي كلمة عبد. ونجد أيضاً في رسالة

---

[1] - الوطن في أدب الشراكسة ص32 ومصر والشراكسة ص44 ـ 48.

[2] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص358.

[3] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص247 ـ 248.

[4] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص535.

الإمبراطور فريدريك الثاني إلى الملك الكامل، ويكتب عن نائبه (إن هو إلا أقل غلماني فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له)[1].

هـ ـ أجلاب:

استعمل في عصر السلاطين وخاصة في القسم الثاني منها حسب تقسيم كتاب التاريخ وتحت اسم الدولة الجركسية أو البرجية كلمة جلب أو جلبان أو أجلاب عن أناس جاء بهم السلاطين[2]، لأغراض مختلفة، إلا أنهم أطلقوا هذه الكلمة على من أتى به لينضم إلى الجيش[3]، فجلب (إلى عرش السلطنة مقدمو الوحدات العسكرية المملوكية، الذين كانوا في ذلك الحين أصحاب النفوذ الحقيقيين،... فقد شنوا حرباً ضروساً ضد كل من المغول والإمارات الصليبية)[4].

الكلمة نفسها استعملت لمن جلب لأغراض غير حربية مثل جلب بعض العلماء ومن مناطق مختلفة ليزدادوا معرفة بالعلوم وخاصة الدينية فكتب الكوثري: (هـا هو الظاهر برقوق، ــ وهو من السلاطين الشراكسة في مصر ـ يتفقه على الإمام أكمل الدين البابرتي، ويشارك المحدثين في رواية الصحيحين، ويجلب أمثال ابن أبي المجد من كبار المسندين من الأقطار النائية رغبة منه في إعلام سند المتعلمين بمصر بسماعهم الحديث من أصحاب الأسانيد العالية، ويفعل مثل ذلك المؤيد ـ وهو من سلاطين الشراكسة في مصر ـ حيث كان هو نفسه يروي الصحيح عن السراج البلقيني، بل ابن حجر سمع الحديث عن المؤيد هذا، وترجم له في عداد شيوخه في (المعجم المفهرس)، وقد جلب المؤيد إلى مصر العلامة شمس الدين الديري صاحب (المسائل الشريفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة). وكذلك ترى الظاهر جقمق ـ وهو من السلاطين الشراكسة في مصر ـ يسمع الصحيح من أبي الجزري، ويجلب كبار المسندين إلى مصر ليتلقى منهم المتعلمون بمصر ومروياتهم في السنة من

---

[1] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص248.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص34.

[3] - مصر والشراكسة ص38 ـ 39 ـ 40.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص39.

الصحاح والمسانيد ، ويجعل القلعة المصرية مجمع هؤلاء العلماء وموضع تلقي المتعلمين لتلك الكتب من هؤلاء المسندين، تنويهاً بأمرهم وإعلاء لشأن العلم، وبهذه العناية من الملوك والأمراء كانت مصر دار حديث وفقه وأدب في القرون الثلاثة. السابع والثامن والتاسع)[1].

و ـ خاتمة وإيضاح:

جلب أو استخدام أناس من الشمال لم تكن بعملية بيع وشراء، فالذي يطلب قدومهم هو من نفس قوميته[2]، والجدير بالذكر أن من يجلبهم ـ التجار ـ غالبيتهم من غير العرب أيضاً[3]. ولم يكن ما سموا بالتجار يشترون أناساً مثلاً أو يخطفونهم[4]، مما يؤكد قولنا ما رأيت الحكومات السلطانية (على تحذير الناس من انتقال مملوك عن طريق البيع إلى كاتب أو عامي ـ أي إلى أحد من غير المماليك ـ ومن كان عنده مملوك فليبعه، ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنده مملوكاً فلا يلوم إلا نفسه)[5].هذا علماً بأنه كان يتم استقبال القادمين بالترحاب مما يؤكد رفض كل ما قيل عن شرائهم فقد كتب أبو حامد المقدسي، في آخر كتاب دول الإسلام الشريفة (ومولانا السلطان لان يسمع بأن فلاناً وصل من جركس فيرسل إلى باب حلب لملاقاته بفرس بسرج ذهب وكينوش كاملية طرش، ويقف النائب في خدمته وكذا كل من مر عليه، بل ومن حين وصوله يعمل خاصكياً قبل أن يقلع قماش الأجلاب فما يرى نفسه إلا ملكاً لا مملوكاً)[6] ، وإذا عدنا إلى المصادر التاريخية لذلك العصر نجد بأنه من كان يستقدم تلك الفئات كان يعين بلقب خواجة، والخواجة تعني الأستاذ في ذلك العصر، وكانوا يعتبرون أفراداً مهمين في الدولة،

---

[1] - مقالات الكوثري ص166.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص27 ومصر والشراكسة ص37 ـ 38 ـ47.

[3] - المماليك ص76.

[4] - صور ومظالم من عصر المماليك ص78.

[5] - مصر في عصر دولة لمماليك البحرية ص157 ومصر والشراكسة ص40 ـ 44.

[6] - مصر والشراكسة ص48.

ويشرف عليهم أميراً عاماً [1]، ويتم الأمر بموجب تفويض السلطان نفسه[2]، ويعهد إليهم بالاتصالات الدبلوماسية مما يؤكد كذلك هو قدوم السلطان برقوق ـ طبعاً قبل أن يكون سلطاناً وكان وقتها أميراً ـ طلب قدوم أخيه وأولاده ووالده أنس (آنص)[3]، علماً أن والده أنس مات بعد سنتين من وصوله وقد تجاوز الثمانين عاماً، وتم قدومه واستقباله باحتفال، وقبل برقوق يد والده ووضعها على رأسه[4]، فلا يعقل أن تكون هناك معامل إنتاج للعبيد بل كان الغرض استقدام أناس ذوي كفاءة ومعرفة سابقة بهم. فكثيراً ما نجد الأسرى والجنود هم أقرباء، وكان المرء إذا ارتاح واستقر وضعه في مصر حينما يكون ذا مكانة كان يطلب من أقربائه القدوم للعيش الرغيد كما يقال، وكما فعل السلطان برقوق حيث استقدم أقرباء آخرين غير أخيه ووالده[5]، وكذلك الأمر أيضاً مثل أمير الشام سيباي الذي له أعمال في الشام مثل قناة العوني جنوبي السويقة، وخان نقيب الأشراف في باب الجابية، وشرع في غرب الجابية بناء تربة له فيها، فتوفيت أمه فكانت أول من دفن فيها، مما يدل على أن استقدام الشراكسة إلى بلاد الشام ومصر لم يكن بيعاً بل باختيارهم إذ لو كان بيعاً كيف يأتي الآباء والأبناء وما شابه ذلك كما ذكرنا في موضع آخر[6]، والجدير بالذكر (أن هذه الطائفة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل عدم اندماجها في الأهالي الوطنيين وابتعادها عن الاحتكاك معهم) وقد كانوا (يحرصون على التزاوج بينهم وبين أنفسهم) أي من جنسهم[7].

---

[1] - نظم السلاطين المماليك في مصر ج1 ص15 ـ 16.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص26.

[3] - مصر في عصر دولة لمماليك الجركسية ص8.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج11 ص182 ـ 183 ـ 203 ـ 218.

[5] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص30 ـ 37 و المماليك ص220 و النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج11 ص182 ـ 255.

[6] - دمشق في عصر المماليك والعثمانيين ص66.

[7] - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ص23 ومصر والشراكسة ص41 ـ 42.

وصلت في العشر الأخير من رمضان 852هـ أخت السلطان جقمق قادمة من بلاد الشركس، والمذكورة تزوجت يوم الأربعاء الثامن من ربيع الآخر 854هـ على الأمير تنم بن عبد الرزاق المؤيدي[1]، كما قدم يوم الأحد السابع والعشرين جمادي الآخرة 853 هـ أخو السلطان جقمق من بلاد الشركس، وكان قدم قبل هذا التاريخ مرة سابقة في الدولة الأشرفية[2]، وكذلك نجد أن السلطان قايتباي جلب قانصو الأول خال الناصر محمد بن قايتباي وكان لا يعرف إلا باللسان الشركسي[3]، فيتضح لك أن قدوم أشخاص من بلاد الشركس كان لأغراض وحسب ما يقتضي الأمر وحسب ما يطلبه السلاطين الشراكسة أنفسهم، وليس بضاعة تعرض، وكانت هناك اتصالات بين السلاطين في مصر والشراكسة في بلادهم. وقد كان يكلف أشخاص كأدلاء للطريق ذوو مكانة بارزة، وليس تجاراً كما كتب بعض الكتاب عنهم فكلمة خواجة تعني في كثير من اللغات ومنها الشركسية الأستاذ ذو المعرفة بشيء ما.

استعملت كلمة استيراد أيضاً في بعض الكتابات. أما سبب استيرادهم إن صحت التسمية هو النظام الذي اتبعوه في ذلك العصر للحفاظ على عنصرهم. فقد (اعتمد على استيراد الرجال الجدد في كل جيل لأخذ المناصب الأعلى في الدولة ليحل محل العائلات المملوكة السابقة، والتي برغم أنها أعطيت موقعاً... وهناك سبب للاعتقاد أن المماليك كانوا مخفقين بيولوجياً في مصر وسورية، وأنهم أخفقوا في إنشاء أسر كبيرة، تستمر فترة طويلة)[4]. ولهذا السبب استقدموا النساء أيضاً للزواج حيث الشراكسة لا يتزوجون غالباً إلا منهم، وتجد الخاصة لديهم من القديم إلى الوقت الحاضر في بلادهم القفقاس وفي بلاد المهجر المختلفة. ويذكر في الكتب العديد من النساء اللاتي قدمن لبلاد الشام ومصر، فتجد السلطان جقمق

---

[1] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص182 ـ 258.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص213.

[3] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص10.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص186 ـ 194 ـ 195 ـ 201 ـ 285 ـ 435 ـ 436 بناء دولة مصر محمد علي ص239.

الشركسي تزوج من بنت أمير بلاد الشركس كرتباي التي وصلت إلى مصر مع أبيها[1]، وقبل ذلك تزوج السلطان جقمق من خوند شقراء بنت السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق[2]. مع العلم أنهم لم يحاولوا الامتزاج بأهلها[3].ولكنهم شاركوا ليس بالدفاع عن مصر وبلاد الشام بل كانوا مشاركين مهمين في عملية بناء المجتمع[4]، ومهما قيل عنهم بأنهم هبطوا مختارين أو أسارى أو متخطفين)[5].

6 ـ كلمات بغير معانيها:

إن اللسان العربي غني بكلماته، وقد يحدث أن يستعمل العرب كلمة معناها شيء ويقصد بها شيء آخر خلال استعمالها لدى الناس عبر العصور وفي كلامهم العادي واليومي، وقد يتكلم المرء بشيء ويعني شيئاً أخر غير ما هو وارد في المعاجم العربية، أو كلمة تطلق بمعنى حسن لإخفاء حقيقة أخرى.

لتوضيح ذلك نجد مثلاً كلمة صعلوك تعني الفقير الضعيف وجمعها صعاليك، وقولهم صعاليك العرب، كان يعني فقراءهم[6]، واستعملت لمن يقوم بعمل مشين غير رزين وقد كان يطرد من قبيلته، بينما حالياً تعني الكلمة لدى الناس الفهلوي والشاطر، وإذا قلت لآخر أنك صعلوك لا ينزعج حالياً بل قد يبتسم.

كلمة استعمار أصل الكلمة جيد، وحسن بمعنى السير للأعلى والبناء، والعمران، ولكن المعنى الحالي للكلمة هي الاحتلال بالقوة لأرض الآخرين واستنفاذ خيراتهم.

---

[1] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص224 و مصر في عصر دولة لمماليك البحرية ص157 و دمشق في عصر المماليك والعثمانيين ص91.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص260.

[3] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص288.

[4] - مصر والشراكسة ص138.

[5] - صور ومظالم من عصر المماليك ص3 ـ 4.

[6] - مختار الصحاح ص363 ومنجد الطلاب ص405.

استعملت قديماً كلمات مثل مفاز (بفتح الميم) أي برية طويلة قليلة الماء، ولكن في الحديث الطويل عن غزوة تبوك (واستقبل سفراً بعيداً مفازاً) سميت مفازاً تفاؤلاً، كما يسمى اللديغ سليماً[1].

كذلك كلمة الجزية التي كانت تفرض على أهل الكتاب في ديار الإسلام مقابل حمايتهم وعدم الاعتراض لهم، فهذه الكلمة قد يعتبرها الناس بمعنى المهانة مع أن الكلمة لا تدل بوزنها ولا أصل اشتقاقها على معنى من المعاني أو الاحتقار، ويذكر (أن نصارى بني تغلب قالوا لعمر نحن عرب لا نؤدي ما يؤدي العجم، ولكن خذ منا كما يأخذ بعضكم من بعض، يعنون الصدقة (أي الزكاة) فقال لهم عمر: هذا فرض على المسلمين. قالوا: (فرد ما شئت لهذا الاسم لا باسم الجزية. ففعل.. وفي رواية: (ضاعف عليهم الصدقة، وقال: سموها ما شئتم)[2].

---

[1] - رياض الصالحين ص28.

[2] - الجهاد في الإسلام ص134 ـ 136.

توسع القفقاسيون قديماً من أراضيهم إلى الأقطار الأخرى في هجرات قبل الميلاد، ففي بلاد الرافدين تجد السومريين وهم أجداد الشراكسة[1]. كما تجد من يقول بأن الحيثيين أصلهم شراكسة[2]، وحتى الفراعنة يقال عنهم أنهم من الشراكسة[3]، وهناك من أكد أن البعض منهم شراكسة مثل أخناتون[4].

ليس عجباً ما ذكرناه، ففي الدراسات الحديثة في العالم تقسم العروق البشرية إلى ثلاث هي العرق الأبيض الذي سمي القوقازي ومنهم الشراكسة، ويعتبر الساميون العرب منهم أيضاً، والعرق الأصفر المغولي شرق آسيا، والعرق الأسود الزنجي في إفريقية[5].

حدثت الفتوحات الإسلامية، وانتشر الإسلام في ربوع جنوب وشرق القفقاس خاصة.وإثر قدوم الإفرنج وحروبهم لبلاد الشام وهي ما تعرف بالحروب الصليبية، عاد بعض العرب وقادتهم أدراجهم لحماية بلاد الشام وبلادهم العربية وأتى معهم برجوعهم القواد والعساكر الإسلامية من البلاد التي نشر فيها الإسلام في شرق آسيا كالأذريين وفي الشمال وأقصد الشراكسة، ورد ذكر أمراء منهم حتى قبل عصر السلاطين وقبل حكمهم لبلاد الشام ومصر. وحتى بعد عصرهم قدم آخرون بعد حرب ضروس بينهم وبين قياصرة الروس وبتآمر بين الحكومات الروسية والعثمانية والإنكليزية تم تهجير أغلب الشراكسة قسراً عن أراضيهم وشتتوا في أكثر من خمسين دولة في العالم حالياً. وكان آخر الوافدين منهم إثر قضاء الشيوعيين على دولة شمال القفقاس بين بحري الأسود وقزوين والتي قسمت إلى تسع كيانات بمسميات مختلفة.

---

[1] - انظر كتاب الأصول الشركسية في اللغة السومرية وكتاب العلاقة بين اللغتين السومرية والشركسية.

[2] - انظر كتاب تاريخ القوقاز.

[3] - انظر كتاب الحلقة المفقودة.

[4] - مجلة البروز العدد التاسع كانون الثاني شباط 1998 ص14 ـ 15.

[5] - مبادئ الجغرافية العامة والعالم ص88 ـ 89.

كتب العديد عن الشراكسة سواء أصابوا بما كتبوه أم لا ، ومنهم من سماهم ونعتهم بأسماء مختلفة فكان لابد من إيضاح بعض النقاط وبشكل مختصر للقارئ مع التركيز على عصر السلاطين.

1 ـ عدم التفريق بين الشركس والأتراك:

آ ـ بشكل عام:

إذا عدنا للدراسات التاريخية القديمة، وبالعودة إلى مورجان ونظريته التي تتلخص بأن سكان بين بحري قزوين والأسود ومن أول التاريخ المسيحي هم من العرق الأبيض وهم آريون وطورانيون وبنظريته تلك وللأسف جعل مورجان الشراكسة من الطورانيين الأصليين وعلى هذا الرأي جرى جميع مؤرخي الغرب وطبعاً لأسباب راقت لهم[1].

مع تقديم العلم والفنون ولتكوين البيانات وبشكل أصدق وأفضل ولمعرفة جنسيه الإنسان ومنبته فقد ركز العلماء البحث عن حجم الجمجمة وأبعاد طول الجسم وألوان العيون والشعور والجلود وغيرها. وبناء على القواعد العملية الأخيرة، قرر العلماء الذين فحصوا الشراكسة ودققوا في درس تكوينهم وخلقتهم أنهم من السلالة الآرية وليسوا من السلالة الطورانية[2].

ب ـ عصر السلاطين:

تجد أغلب الكتاب خلال كتابتهم عن عصر السلاطين لم يميزوا بين الشركس وغيرهم، فمثلاً يكتب عن دولة المماليك البحرية بأن ملوكها بالأصل أتراك (وأول من نازع الأمويين منهم الملك وهو عز الدين أيبك عام 648هـ، ثم استقرار الأمر لقطز كما أسلفنا، ومن ملوكها بيبرس... والناصر قلاوون وقد عني بنشر العلوم والمعارف وبناء المساجد والمباني الفخمة)[3].

---

[1] - تاريخ القوقاز ص68.

[2] - تاريخ القوقاز ص69.

[3] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص18.

إن الأسماء المذكورة ليس منها من أصل عثماني ولا تركي فعز الدين هو تركماني وقطز خوارزمي، وبيبرس وقلاوون من الشراكسة، وقيل من القبجاق.

يكتب البعض (استعمل المؤرخون العرب في العصر المملوكي كلمة أتراك ويعنون بها المماليك، وكلمة الأروام بمعنى العثمانيين)[1]. وذلك يفسر اختلاف المماليك عن العثمانيين، ولكن العثمانيين ليسوا بروم بل هم جزء من الأتراك وهم من العرق الطوراني، بينما المماليك وخاصة أغلب السلاطين والأمراء فقد ثبت بأنهم من الشراكسة وإطلاق اسم الأتراك عليهم غير صحيح.

نجد أبو شامة والذي عاصر دخول السلطان قطز إلى دمشق بعد الانتصار في عين جالوت في عام 658هـ يمدحه بقوله:

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدر جنسهم ولكل شيء آفة من جنسه[2]

فيعتبر التتار من الأتراك وكذلك قطز الذي هو خوارزمي.

يقول الدكتور السيد الباز العريني: (إن لفظ الترك يشمل معاني كثيرة، فهو تسمية خاطئة لدولة المماليك الأولى في مصر، وهو اسم جنس المماليك الذين جاءوا من بلاد القبجاق فهم أصحاب السيادة في العصر المملوكي الأول)[3]. ويقول أيضاً (والجراكسة عنصر قوقازي الجنس، وهم قلة في الجيش المملوكي والشركس أو الشراكسة وفي القليل الجهاركس مع إنهم عنصر من الجنس التركي العام، فإن المصادر العربية تشير إلى أنهم أعداء الأتراك. أما موطنهم فهو المرتفعات الجنوبية من بلاد القبجاق بين البحر السود وبحر قزوين)[4]. نلاحظ قوله أن الشراكسة من العنصر القوقازي الجنس ويقول هم من الأتراك مع العلم أن الأتراك من الجنسية الطورانية.

---

[1] - تاريخ البصروي ص178.
[2] - تاريخ البصروي ص6.
[3] - المماليك ص59.
[4] - المماليك ص63.

مثال آخر (وبالجملة كانت محاسنه أكثر من مساوئه وكان خيار ملوك الترك بالنسبة إلى من جاء من السلاطين ولو لم يكن عنده بعض طمع لكان من أجل ملوك الشراكسة وكان من خيارهم)[1] ، وتجد الكاتب ونفس الكتاب ونفس الصفحة يقول مرة من الأتراك ومرة من الشراكسة ألا يدل ذلك على عدم التمييز بين الشراكسة والأتراك علماً أن لغة الشراكسة مختلفة عن التركية ـ كاختلاف اللغة الانكليزية عن الروسية ـ وكذلك جنسهم من أصل قوقازي أما الأتراك فمن أصل طوراني.

كاتب آخر يقول عن وصول أنس والد برقوق (وصل أنس بن عبد الله العثماني والد برقوق)[2] ، وفي نفس الكتاب في صفحة أخرى يقول: (أنس بن عبد الله الجركسي والد برقوق كان كثير البر والشفقة لا يمر به مقيد إلا ويطلقه)[3] ، ويذكر اسم أنس أيضاً في بعض الكتب وتجد في كلام برقوق وأصله في رسالة ثانية أرسلها إلى تيمورلنك يرفض فيها تسليم القان أحمد الذي التجأ إليه طالباً الأمان (ولو لم يكن في ذلك كيف يجوز في شرع المروءة والنخوة والوفاء أن نسلم ضيفنا ونزيلنا والمستجير بنا؟ خصوصاً جنسنا جركس جنس ملوك الإسلام السالفين وخدام الحرمين الشريفين الذين اتفق لهم مع التتار ما يشهد به التواريخ، ومن عادتنا وشأننا وطباع جنسنا أننا لا نسلم ضيفنا ولا نزيلنا ولا من استجار بنا أحداً، وإن كنت لا تصدق ذلك فعندك من هم من جنسنا سلهم يعرفوك، فنحن لا يضام لنا نزيل، نقري الضيف ونعامله بالجميل، وهذه جبلتنا الغريزية وعادة أصلنا الأصيل، فإرسال القان أحمد إليك مستحيل)[4].

---

[1] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص209.

[2] - الدولة المملوكية والتاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص20 ـ 281 والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج11 ص182.

[3] - أنباء الغمر بأبناء العمر ص249 ـ 284.

[4] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص429.

ج ـ في العصر الحاضر:

نجد وكيل الحقوق وأستاذ الشريعة بجامعة القاهرة سابقاً الأستاذ الكبير الشيخ أحمد أبو زهرة يقول عن الإمام الكوثري المتوفي عام 1371هـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، بعد مديح للإمام: (فكان بعض القارئين ـ لسلامة المبنى ودقة المعنى ولإشراق الديباجة وجزالة الأسلوب ـ لا يجول بخاطره أن الكاتب تركي بل يعتقد بأنه عربي ولد عربياً وعاش عربياً، ولم تظله إلا بيئة عربية. ولكن لا عجب فإنه تركي في سلالته ونشأته في حياته الإنسانية في المدة التي عاشها في الآستانة، أما حياته فقد كانت عربية خالصة، فما كان يقرأ إلا عربياً...)[1].

يصف أستاذ الحقوق المذكور الكوثري في موضع آخر (ويظهر أن ذلك كان في دمه الذي في عروقه، فهو في الجهاد في الحق منذ نشأ، وإن في أسرته لتقوى وقوة نفس وصبر واحتمال للجهاد، إنه من أسرة كانت في القوقاز حيث المنعة والقوة وجمال الجسم والروح وسلامة الفكر وعمقه)[2].

كتب في البداية بأنه تركي ومرة ثانية بأنه من القوقاز وهي بلاد الشراكسة، وربما السبب كتابات الكوثري فقد كتب باللغة التركية قبل قدومه لمصر وللتوضيح كتب الكوثري كتاباً باللغة الفارسية بالإضافة إلى عدد من الكتب القيمة التي ألفها باللغة العربية فهو رحمه الله كان يعرف عدة لغات بالإضافة إلى لغته الشركسية. أما نسب الإمام المذكور كما ذكره بنفسه هو محمد بن أحمد أفندي[3] بن الحسن الحلمي هو ابن علي الرضا وهو المهجر من القفقاس ابن نجم الدين خضوع بن باي بن قنيت بن قانص المنحدر من أصل شركسي ومن فخذ يعرف جدهم باسم الكوثري[4].

---

[1] - مقالات الكوثري ص16.

[2] - مقالات الكوثري ص17.

[3] - أفندي كلمة تركية معناها السيد، وكانت تطلق على أفراد البيت المالك العثماني، وعلى كبار العلماء ولا تزال في مصر تستعمل كلمة (أفندم) ومعناها (سيدي) في مجال الأدب والتكريم.

[4] - مقالات الكوثري ص28.

2 ـ حب القوم:

يردد بعض الأفراد وحتى بعض الكتاب ينعتون بها غيرهم بصفات مثل الشعوبية وغيرها من الكلمات المرادفة لها.

أعجب كيف يصف الكتاب وهم في بلادهم بصفات لأناس يعيشون معهم، مع أن تلك الفئات والمجموعات لا يشكلون نسبة تذكر، مع العلم أن ما ينعتونهم به غير صحيح وأغلب الذين يعيشون في البلاد العربية ـ أقصد جاليات أصلها غير عربي ـ خاصة في سورية الديمقراطية الحرة متمسكون بجنسيته العربية ويتكلمون بلغتها متمسكين بوطنهم العربي، ويدفعون عنه واستشهد كثير منهم مع أبناء الضاد في خندق واحد، ولم يصدر عن أي منهم أية خيانة مهما كانت، ومخلصون في أعمالهم وينعمون بأمان ويقدمون الإنجازات فتجدهم ضباطاً ومدراء في دوائر الدولة وممثلين في مجلس الشعب.

لنتمعن في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أيها العرب، الرب واحد والأب واحد، و الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي)[1].

يجب التنبيه بأن الله خلق البشر وكل يحب نفسه أولاً ثم أهله، ثم قرابته ثم حمولته، ثم وطنه ويذكر قول برقوق عن أبناء قومه: (هم أولاد عمي وعشيرتي)[2]. ويحكى أيضاً عن السلطان محمد بن قايتباي حين ذهابه إلى القناطر العشر للاحتفال بيوم من أيام فتحها فيرى من القلعة في موكب ضخم ومعه أولاد عمه وعدد كبير من الخواص[3]. ويمكن وصف دولة السلاطين الثانية بأنها عصر الأقارب والأصهار[4]، وهذا لا خلاف فيه بين البشر ولا مستنكره أحد ولا عصبية فيه، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يلام الرجل في حب قومه).

---

[1] - مجلة العربي الكويتية العدد 367 حزيران 1989 ص55.

[2] - قيام دولة المماليك الثانية ص111.

[3] - الطرب في العصر المملوكي ص20.

[4] - المماليك ص71.

ظهر اصطلاح الشعوبية أواخر الخلافة العباسية ليستأثر البعض في الحصول على المناصب في الخلافة العباسية التي توسعت إلى حدود الصين حيث كان العرب المسلمون قلة بالنسبة لسكان المناطق، كما ذكرنا وهذا لا يطلقه البعض في القرن العشرين حيث صدرت القوانين والمراسيم ورسمت الحدود ووضعت معايير للجنسية وما شابه ذلك.

لتوضيح الفكرة التي أقصدها سأعود إلى الحديث الشريف والسبب هو ما للأحاديث من قدسية لدى المسلمين والعرب فلو قلت قال فلان فربما الكثيرون لن يعرفوه وما اعتقدوا بصحة ذلك القول فقد روى (عائذ بن عمرو: أن أبا سفيان أتى إلى سليمان[1] وصهيب[2] وبلال[3] في نفر فقالوا:ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم[4]، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم: فأجاره، فقال يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم؟ لئن أغضبتهم لقد أغضبت ربك[5]، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم[6]. قالوا: لا[7] يغفر الله لك)[8].

نجد النهي عن العصبية في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة) رواه البخاري[9].

---

[1] - هو صحابي أصله من فارس ويعرف بسليمان الفارسي.

[2] - هو صحابي أصله من الروم ويعرف بصهيب الرومي.

[3] - هو صحابي أصله من الحبشة ويعرف ببلال الحبشي.

[4] - سماه أبو بكر سيداً، وأمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصالح هؤلاء السادة الثلاث لآن رضاهم من رضا الله مع العلم إن أبا سفيان حماه الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو رئيس قبيلة وصاحب كلمة وسلطان في قومه.

[5] - أي تعديت على أوليائه.

[6] - هل تكدرتم في دفاعي عن أبي سفيان.

[7] - أي ما أغضبتنا ثم دعوا له بالغفران.

[8] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج4 ص143.

[9] - رياض الصالحين ص242.

نعود إلى عصر السلاطين موضوع البحث فقد جاء: (لم تتم دراسة ثقافة بلاط المماليك حتى الآن، فلا نعرف إلا مقداراً ضئيلاً من التمارين والتدريبات العسكرية، ولكننا نعرف جيداً وبشكل كاف وجود نقص في إدراك التفاهم المتبادل بين الجماهير والغرباء الذين لم يستطيعوا تحقيق محبة أفضل بسبب احتكارهم للخدمة العسكرية، واعتماد بقية المجتمع عليهم، وفصلت ثغرة واسعة الحكام عن الرعية، التي لم تستطع الطموح للحصول إلى مناصب عسكرية، ومنزلة هامة في الدولة)[1].

هل السبب احتكار الخدمة العسكرية حقاً؟ لابد من التساؤل فابن خلدون يؤكد في إحدى الحروب أنه حينما فتح باب الجهاد لم يتقدم أي مصري وبعد ذلك أيضاً كيف كان الوضع؟ لنكتب عن زمن محمد علي الذي أبعد كل من بقي من ذرية السلاطين في الجيش، كما أبعد الأتراك، وكل عنصر غير عربي، وبنصيحة ـ الفرنسيين ـ طالما فكر محمد علي بالانفصال عن العثمانيين وإقامة دولة مستقلة في مصر ـ (فقد عمد إلى تجنيد أهل البلاد، حتى أصبح جيشه بأجمعه في الوقت الحاضر من أبناء العرب)[2].ومنح ميزات جيدة لمن يريد الدخول بالجيش، فلم يتقدم إلا أفراد، فما كان منه إلا إلزامهم للخدمة العسكرية وقيل السبب هو (تعلقهم بأرضهم وقراهم، ذلك التعلق القوي الذي يقارب العبادة، وقد دفعهم من ناحية إلى مقاومة التجنيد لأنه يباعد بينهم وبين أوطانهم[3]. كانت الخدمة الإلزامية مربكة لمحمد على حيث أصبحت أفراد أسرة الجندي تلحق به أينما حل. ولعدم إقبال المصريين على التجنيد فما كان من محمد علي إلا الاعتماد على الأتراك، وباقي أولاد السلاطين الذين نجوا من مذبحة القلعة التي قتل فيها محمد علي الأبرياء

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص89.

[2] - بناء دولة مصر محمد علي ص237 ـ 238.

[3] - بناء دولة مصر محمد علي ص474.

والقادة العظام بخدعة، وكان السبب هو حبة للسيطرة وإبعاد أي منافس له، فأمر بتعليم القادة السابقين ولكن بقيادة الفرنسيين[1].

3 ـ وجودهم قبل حكمهم:

لقد ذكرنا أن المسلمين تجاوزوا باب الأبواب، ودخل الداغستانيون وغيرهم من هؤلاء الذين يسمون في بلاد العرب الشراكسة، فوصل إليهم دعاة الإسلام، وكان لهم إدارة مميزة دامت عصرين من الزمن[2]. لكن من القرن العاشر بدأت الحملات الصليبية، وتعرضت لها بلاد الشام وأدت إلى انسحاب الجيش العربي من القفقاس وزوال الحكم العربي[3]، وقدم من تلك البلاد أناس للدفاع عن ربوع الإسلام.

قبل استلام الشراكسة كسلاطين في بلاد مصر والشام تجد ارتقاء بعض الشراكسة إلى مناصب رفيعة. وعلى سبيل المثال نذكر الأمير فخر الدين شركس الذي قال عنه خلكان وهو أبو المنصور جهاركس بن عبد الله الناصري الملقب فخر الدين حيث كان من كبار أمراء الدولة الصلاحية. وكان كريماً نبيل القدر عالي الهمة وقد عمل نائباً للعامل في بانياس وتبنين. وهو الذي بنى القيسارية الكبرى في القاهرة المنسوبة إليه، وبنى في أعلاها مسجداً معلقاً وربعاً، وصف بأن لا نظير لها في البلدان في حسنها وعظمتها وإحكام بنائها، وإليه ينسب قباب شركس بسفح جبل الصالحية بدمشق تجاه تربة خاتون ودفن بها حيث انتقل لرحمته تعالى في شهور عام 608هـ وترك ولداً صغيراً فأقره السلطان على ما كان يليه أبوه وجعل مديراً له الأمير صارم الدين قطلبا التنيسي[4].

---

[1] - بناء دولة مصر محمد علي ص183 تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ص 88 الوطن في أدب الشراكسة ص156 ومصر والشراكسة ص200.

[2] - مصر والشراكسة ص13 وعشائر الشام ج1 و2 ص683.

[3] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص367.

[4] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص83 ـ 84 والبداية والنهاية ج13 ص63 ومصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص74.

يذكر أن الخليفة الفاطمي العزيز (استقدم جماعة من الأتراك والشراكسة الذين استطاعوا فيما بعد الاستيلاء على السلطة)[1].

4 ـ رفض اعتبارهم عرباً:

آ ـ أقوال الشراكسة:

نجد في بعض المؤلفات العربية خصوصاً التي تحمل صفة تاريخية بعض الأقاويل عن كون الشراكسة وخاصة أمراؤهم وأشرافهم من سلالة العرب الساميين أبناء سام بن نوح عليه السلام، وأنهم من قبيلة قريش، ومنهم من يقول: إنهم من سلالة مصرية قديمة. فينسب البعض بان الأمير أينال الشركسي من سلالة مصرية كما سطره (القولخيد ـ الآز) وتجد من الشيشانيين من يقول أن جدهم الأكبر هو ناخوتسو زمن حدوث ذلك. وإذا عدنا إلى أغلب الباحثين الشراكسة فإنهم يعتبرون ذلك خطأ، ولم يثبت صدق تلك الادعاءات[2].

الجدير بالذكر أن الشراكسة لم يحاولوا الاختلاط مع غيرهم فيما يتعلق بالنسب حتى في عصر السلاطين، وكان أغلبهم يتزوجون من بني جنسهم[3]، وكمثال أسرده نجد عام 920هـ ـ كلف السلطان الغوري المقرب إليه كثيراً أبو أنس العادلي وبرفقته حامية بالسفر إلى دمشق لخطبة ابنة نائب الشام سيباي إلى ابنه محمد الغوري، فعقد القران على شقراء بنة سيباي[4] وقبلها، تم زواج إبراهيم ولد السلطان المؤيد بنت السلطان الناصر فرج[5]. وكذلك تجد من قبل أن السلطان قلاوون طلب فتاة للزواج من بلاده القفقاس، كما عقد قران السلطان محمد بن قلاوون (على المرأة التي قدمت من بلاد القبجاق)[6]، وكذلك الناصر محمد نفسه زوج ابنته على الأمير قومصون الكبير الساق الناصري أحد كبار الأمراء في الدولة

---

[1] - الدولة المملوكية والتاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص17.

[2] - تاريخ القوقاز ص69 ـ 70 ـ 77 ـ 245.

[3] - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ص23.

[4] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص261.

[5] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص319.

[6] - البداية والنهاية ج14 ص.

هو من بلاد القبجاق أي من جنسه[1]، كما تزوج السلطان الناصر ابنة أمير الشام وزوج ابنته لولد تنكز[2]. وكذلك تجد أن السلطان السعيد بن بيبرس تزوج غازية خاتون بنت الأمير سيف الدين قلاوون قبل أن يصبح سلطاناً[3].

وقد قيل (يعتبر القبردينيون ـ من الشراكسة ـ أنفسهم من سلالة العرب. وليس من المستبعد أن يكونوا من بقايا الجيوش التي سبق أن أرسلها الخلفاء إلى القوقاز، ويقول آخرون أن القبرطاي القبردينيين هم سلالة المماليك[4].

تجد على نطاق آخر لما بعد المات في القاهرة مقبرة تسمى مقبرة المماليك تحوي مجموعة من القباب بميزات معمارية فريدة وفي المقبرة دفن الأمير أنس والد السلطان برقوق. وهذه المقبرة تضم رفاتهم في ذلك الوقت.

سبب ذكر المقبرة المذكورة هو حكاية محمد جلبي أحد المدافعين عن الداغستان الذي هجر من وطنه الداغستان ودارت الأيام به وذهب إلى والي مصر لمقابلة محمد علي ليتوسط له مع السلطان العثماني ليسمح له بالعودة إلى بلاده لكن الأخير اعتذر فكان خيبة أمل له، ولم يستطع العودة بعدها إلى دمشق حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في ربوع مصر، وكانت وصيته (أشعر أن يومي قد اقترب، ولن يكتب لي على ما أعتقد أن أدفن في تراب وطني داغستان فإذا مت هنا يا أصدقائي ادفنوني في تربة الجراكسة التي زرناها معاً لأكون على الأقل بين أبناء وطني وعشيرتي، ثم دفع لنا ما كان يحمل من مال وقال: أعتقد بأن هذا يكفي لتجهيزي إلى قبري)[5].

ب ـ أقوال الأجانب:

يقول كابروث بأنه سأل الشراكسة عن منشئهم فأجابه هيئتهم المختارة بأن أجدادهم من مدينة سينمر من قديم الزمان وهي موجودة في بلاد الشراكسة شمال

---

[1] - النظام النقدي المملوكي ص729.

[2] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص157.

[3] - البداية والنهاية ج13 ص270 ـ 317 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص269.

[4] - رحلات إلى الأقاليم الجنوبية الشركسية ص20.

[5] - حكاية والدي ص145.

القفقاس ومنها خرجت قبائلهم ونشأت شعوبهم لكن مع ذلك يقول كابروث: (إن الإدعاء بأن أحد أمراء الكميركوي الذي اسمه من قبل (عرب خان) قد أتى من بلاد العرب أو مصر غير محتمل)[1].

يؤكد مورجان بوجود فكره بأن أصل الشراكسة من العرب. ويقول هيردوت أنه حينما رأى أناساً سود الوجود في القفقاس استغرب فعمد إلى البحث والتدقيق فتوصل إلى أن أصلهم من المصريين أتوا زمن الفرعون رمسيس الثاني. ولكن الجدير بالذكر أن زمن قدومهم المعتقد يعود إلى القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد كما جاء عند مورجان بينما هيردوت كان في القرن الخامس قبل الميلاد فكيف يبني حكمه بأن الشراكسة من أصل مصري استناداً إلى تلك الفئة القليلة سود البشرة الباقية؟.

العالم بانتيوهوف وهو عالم بالأمم والشعوب التي سكنت جبال القفقاس وسهولها وآسيا الصغرى منذ آلاف السنين وعلماء آخرون يشتغلون في علم الأنثربيولوجيا وبعد البحث العميق توصلوا إلى نتائج تؤكد بأن الشراكسة من السلالة الهند أوروبية الكيمريين السومريين أحفاد عومر[2].

لابد من التنويه هنا بأن من نسب الشراكسة للعرب قال ذلك بدافع محبة الدين الإسلامي، لكن كما ذكرنا فبعض هذه المقولات أقدم من ظهور الإسلام وانتشاره.

ج ـ توجه نحو العرب:

عاش الشركس مع العرب في سلم وأمان ولا يكاد يفرق بينهم أحد منذ القديم وإلى الوقت الحاضر، وسأذكر ما كتب عن العلاقة بين العرب والشركس من الزمن الراهن ورجوعاً إلى الوراء.

---

[1] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس ج1 ص31.

[2] - تاريخ القوقاز ص70 إلى 72 ـ 91 مصر والشراكسة ص6 ـ 7.

حروب الاستقلال:

حينما قامت الثورة العرابية في مصر كان من قادتها الشركسيان محمود سامي البارودي الذي أصبح فيما بعد وزيراً للحربية، والفريق راشد حسني باشا.

نذكر في أواخر زمن احتلال العثمانيين للبلاد العربية كيف كانت الحركات الوطنية في أوجها، ولابد من ذكر عزيز بيك المصري الشركسي بطل برقة في نضاله عند احتلال الايطاليين لليبيا. هذا البطل مؤسس جمعية العهد العسكري، الجمعية القحطانية في الآستانة، وكان مطالباً باستقلال البلاد العربية عن العثمانيين ويذكر عنه أنه اعتذر عن قبول الرئاسة الفخرية لقيادة الثورة قبل عرضها على الرئيس محمد نجيب.

بعد ثورة 23 تموز 1952 كان الكثير من الشراكسة في تنظيم الضباط الأحرار مثل وجيه أباظة وصلاح سالم وأخوه جمال، والأخيران كانا عنصرين ضمن تشكيل مجلس قيادة الثورة وكذلك محي الدين وخالد محي الدين، ولمع بعد الثورة فؤاد محي الدين زعيم حزب التجمع الوطني[1].

في الأردن لمع أمير اللواء ميرزا باشا وكان له دور وأثر بارزان إثر إعلان الثورة الكبرى حيث انضم إليها مع قوات الفرسان الشركس.

يذكر أن الأمير فيصل بن حسين دخل دمشق في 1918/10/3، وبعد قرار المؤتمر السوري العام المنعقد في 1920/3/28 باستقلال سورية، وكيف سار الفرنسيون نحو دمشق في 1920/7/24 رافضين الرغبة بالاستقلال والحرية. ووقف البطل يوسف العظمة في ميسلون وقفة شرف حتى استشهد.

حين أصبح الملك فيصل ملكاً على أول حكومة سورية مستقلة وجه نداءه إلى العرب للدفاع عن كيانهم واستقلالهم، كان قبل معركة ميسلون، كما وجه رسائل ونداءات إلى القادة العسكريين البارزين والهيئات والقبائل والعشائر، وكان ضمنها رسالة تفصيلية حملها الشريف محمد على البدوي إلى ميرزا باشا طلب فيها

---

[1] - محاضرة تحت عنون الشراكسة في مصر منذ عهد محمد علي باشا1991م مجلة البروز العدد 11 تشرين الثاني شباط 1999 ص17 ـ 18.

الإسراع في إعادة تشكيل قوة الفرسان الشركس التي كان يقودها فسارع المرحوم ميرزا باشا، وأعاد تشكيل القوة المذكورة واتجه نحو دمشق للاشتراك مع القوات العربية، لكن ورود برقية من القائد العام في سورية يوسف العظمة جاء فيها مناشدته بأن الوطن يدعو الجميع للذود عنه والطلب لتشكيل مجموعة من المقاتلين والتوجه بسرعة باتجاه القنيطرة[1].

في سورية يذكر الجميع كيف خاضت الفرقة الشركسية الحروب مع أبناء سورية ضد احتلال الصهاينة لفلسطين حين اندلعت الحرب في 15 أيار 1948، وجاد الشركس بدمائهم فداء الوطن واستشهد العديد من أبناء الشركس في حرب فلسطين[2]، وكذلك في حرب حزيران 1967 وفي حرب تشرين التحريرية 1973 فقد قاتل الشركس في البر والجو، واستشهد العديد منهم في الأمكنة التالية: الأغوار ـ باب الواد ـ بانياس ـ بستان الخوري ـ بئر العجم ـ تل أبي الريش ـ تل الدريجات ـ تل العزيزيات ـ تل النيرب ـ تل الودارة ـ جسر المخاضة ـ جبل الشيخ ـ حيفا ـ خسفين ـ خشنية ـ دمشق ـ سمخ ـ عدنانية ـ قطنا ـ قلقليا ـ القنيطرة ـ كعوش ـ لبنان ـ معضمية ـ منصورة ـ نابلس ـ نجمة الصبح[3].

تهجير الشركس:

تم تهجير الشراكسة من وطنهم قفقاسيا في نهاية القرن الماضي إثر مؤامرة حيكت بالاتفاق بين قياصرة الروس والسلطان العثماني والإنكليز، كانت نتيجتها تشتيت الشراكسة في أماكن مختلفة ومتفرقة من العالم، حتى أن الأسرة الواحدة وزعت إلى أكثر من دولة. هؤلاء قسم منهم هجروا إلى البلاد العربية وخاصة إلى سورية الحبيبة وقالوا عنها هذه أرض مقدسة.

تشبه الشراكسة في البلاد العربية بالعرب وحالياً بالكاد تميز بينهم فلباسهم واحد وقد لبسوا الجلابية ووضعوا على رؤسهم الكوفية والعقال. وكما روى ابن

---

[1] - ميرزا باشا وصفي كتاب وثائقي ص118 ـ 119 ـ 121.

[2] - انظر كتاب السيف والتابوت.

[3] - دليل الأنساب الشركسية ص30 إلى 55 وأقوال أحد المجاهدين.

عمر رضي الـلـه عنهما قال:قال رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم: (من تشبه بقـوم فهو منهم) وتكلموا باللغة العربيـة وأبـدع الـبعض فيهـا حتـى أصـبح العديـد مـنهم أعضاء في اتحاد الكتاب العرب. وبعد صدور قوانين الجنسية كانوا أوائل مـن تجنسـوا بها، وأصبحوا في عداد العرب. وكما جـاء في حـديث ابـن مسـعود عـن الرسـول صـلى الـلـه عليه وسلم قال: (من كثر سواد قوم فهو منهم).

عاش الشركس جنباً إلى جنب مع السكان الأصليين بسلام ووئـام وامتـازوا بسرعـة اندماجهم وعملوا بإخلاص مطلق وتفانٍ كبـير في خدمـة المصـلحة الوطنيـة واشـتهروا بإتقانهم العمل وشجاعتهم في القتال[1].

قدم الشركـس إلى الـبلاد العربيـة ـ كـما ذكرنـا ـ بعـد انتهـاء الحـرب القفقاسـية الروسية القيصرية بالتحديـد بعـد عـام 1864م. وقـدم إلى الـبلاد العربيـة بعـد ذلـك وافدون آخرون إثر قضاء الشيوعية على جمهوريـة شـمال القفقـاس وتطبيـق النظـام الشيوعي فيها بعد ثورة أكتوبر ـ تشرين الأول ـ 1917 ويذكر أيضـاً لجـوء آخـرين إلى البلاد العربية لكن بعدد قليل إثر انتهاء الحرب الثانية حينما صدرت الأحكام العرفية زمن ستالين، وبدأ تشتيت العديد من أبنـاء القوميـات غـير الروسـية فيهـا سـواء مـن الشراكسة وغيرهم.

عصر السلاطين:

تألبت قوى أوروبا واتجهت إلى البلاد العربية وخاصة الساحل السـوري ونشـبت الحروب التـي عرفـت بـالحروب الصـليبية، فـما كـان مـن قـواد المسـلمين إلا الـدفاع أمام حقهم، لقد قدم كثير مـن المسـلمين غـير العـرب وكـان بيـنهم شراكسـة وأكـراد وتـركمان. وبعـد أن سـقطت الخلافـة العباسـية في بغـداد أصـبح سـلاطين المماليـك يحكمون بلاد الشام ومصر، وكان أغلب هؤلاء مـن الشراكسـة سـواء الدولـة البحريـة أو البرجية. فعاشوا مع العـرب بسـلام وحكمـوا بالعـدل مـع أنهـم كـانوا ينتمـون إلى أقـوام غـير عربيـة، إلا أنهـم بإقـامتهم في أرض العروبـة اعتـبروا أنفسـهم عربـاً، بـل حماة للعرب حتى كان من ألقاب سـلاطينهم (سـيد ملـوك العـرب)، وعـدوا أنفسـهم

[1] - الجولان أطماع العدو تاريخياً وبشرياً وجغرافياً واقتصادياً ص96 ـ 97.

مصريين، بل اكتسبوا من الروح المصرية لحياتهم الطوية على ضفاف النيل قبل وبعد قيام دولتهم،... كانوا يتعلمون العربية ويتقنونها، حتى صار كبارهم وأمراؤهم، بل جمهرتهم يتكلمون العربية الفصحى ويتخاطبون بها. وكان السلطان الأشرف خليل يعقد المجالس الأدبية ومجالس الأدباء والشعراء، مع معرفته بصناعة الإنشاء، واشتهر كذلك السلطان جقمق بفصاحة اللسان بالعربية الفصحى البليغة، وكذلك جان بك (868) هـ وخايربك (887) هـوحبيب العلائي الإينالي (893) هـ وكذلك السلطان قانصوه الغوري حيث كان يجيد العربية، إضافة إلى ست لغات أخرى وكان شديد الولع بعلومها وآدابها، وله فيها مشاركة كبيرة، كما كان يتذوق الشعر إلى ما شهر عنه من غرامه بقراءة السير والتواريخ وله مجالس عرفت باسمه عنوانها (مجالس الغوري) وهي مناظرات كانت تجري في مجلسه[1]، وكان الظاهر بيبرس مولعاً بالتاريخ[2]، وأهم ميزة تذكر عن ذلك العصر اعتمادهم على اللغة العربية لغة الدولة ومخاطبة الملوك والآخرين بالإضافة إلى الاعتناء بها و (كانت اللغة الرسمية في عهدهم...وكذلك دولتهم أرقى دولة في عصرها)[3].

قصة سرى كسا:

تجد في بعض الكتب بأن الشركس من الغساسنة[4]، فقد جاء (وكذلك يمر القارئ بمسائل ذات خطر في التاريخ والسياسة إذ ذاك كقول السلطان: الجركس من الغساسنة فهم عرب)[5]، ويذكر الكاتب أن ذلك ورد في كتاب (نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية لمؤلفه حسين بن محمود الحسيني.

سبب هذا المقولة ما قيل عن حكاية (سرى كسا) وخلاصة القول فيها أن أحد عظماء الشركس في زمن الفاروق رضي الله عنه أسلم وأثناء حجه ضرب مسلماً آخر

---

[1] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص69 ـ 70 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص293.

[2] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص293.

[3] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص7 طومان باي ص41.

[4] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص28 ـ 29 مصر والشراكسة ص102.

[5] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص192 طومان باي ص29.

فشكا الأخير ذلك لعمر فأمر بالقصاص، فطلب هذا العظيم التمهل للغد، وحينما رأى لابد من القصاص خرج ليلاً إلى بلاد الشام ثم إلى الشمال إلى بلاد القفقاس، وهذا الملك كان اسمه كسا ولأنه سرى ليلاً من مكة إلى الشمال فقيل في الصباح الثاني سرى كسا ومع الزمن سميت سركس أو الشراكسة.

الجدير بالذكر أن الشركسي غالباً ما يستعمل أسماء غير أسمائهم كألقاب، فمنهم من قال بأن كسا هو جبلة بن الايهم[1]، كما كتب في كتاب إيقاظ المؤرخين وهو ثلاثة أجزاء لمؤلفه المرحوم محمد علي بك بشحالوف.

يضاف أن جبلة من سلالة ماغان التي تنحدر من فرع آز التي تعتبر من أمراء الدرجة الأولى، ويطلق أحياناً ماغان كاس، وكاس كلمة انحرفت عن غسان[2].

قال آخرون أن المقصود بـ (كسا) ليس جبلة وإنما هو عكرمة بن ود العامري وهو الذي لم يقبل بحكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسرى ليلاً إلى الشمال[3]، ولكن أغلب الشراكسة ومفكريهم إن لم تقل جلهم لا يعتقدون بصحة مثل هذه التفاسير ويرون بأن ذلك ربما حدث زمن عصر المماليك لإظهار أن الشراكسة والعرب هم أمة واحدة لا تختلف أنسابها بوجه من الوجوه مع التأكد أن كتاب العرب يؤكدون هروب كسا دون ذكر تفصيل أو تدقيق بالأمر.

هناك من يرفض فكرة خروج قسم من العرب إلى بلاد الشركس زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويوضح أن خروج الشركس من العرب ـ إذا حدث ذلك ـ تم قبل البعثة، وقبل افتراق قبائل من العرب إلى أقطار الأرض، ويعتقد ذلك قبل 1900 سنة[4]، كما يقول كاتب: (والأغرب من ذلك أن بعضاً من الأشخاص من عشيرة عنزة البدوية في سورية) كانوا يقولون للمهاجرين الشراكسة نحن وأنتم أقرباء

---

[1] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص27 ـ 28 ـ 48.

[2] - عاد وثمود ص103 إلى 105.

[3] - عاد وثمود ص106 موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص49 فتوح الشام ج1 ص64.

[4] - نور المقابس في تاريخ الجركس ص7 ـ 10.

فنحن العنار ـ بشدة على النون ـ وأنتم المعاز ـ بشدة على العين ـ ولا أعلم من أين أتوا بهذه الفكرة)[1].

نسب الرسول(ص):

نعود أدراجنا إلى زمن أقدم، فهناك من يقول بأن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام أصلهم من الشركس فيعيدون نسب إبراهيم عليه السلام إلى سبعة جدود بأنهم من الشراكسة، ومما كتب عن ذلك (مكة التي كانت محتوية على مقام إبراهيم وكانت تحت سيطرة عشيرتي جرهم (دووز وروم) وإسماعيل (سميل) المنتمين إلى أشرف وأنبل قبيلة الأباظية الشركسية)[2].

استغربت الأمر فيما يتعلق بهذا الموضوع وخاصة بعد أن قرأت في كتاب آخر عن نسب السلطان الشركسي برقوق، وإليكم ما جاء جول نسبه، برقوق صاحب مصر أول ملوك الجراكسة بالديار المصرية ابن آنص الشركسي ابن تمر بغابن بليغا بن جها نكير بن رسم الكبير بن جها نشاه بن بيربداف بن يشبك بن أزبك بن إينال بن درويش بن ترخان بن قطلوق شاه ابن كسا بن عكرمة بن عمرو بن ود العامري ابن الحرث بن مزيد بن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النظر بن كنانة بن خزيمة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان)[3]، كما يذكر أنه جاء السلطان برقوق من قبيلة كسا الجركسية[4].

استغربت الأمر أكثر وتذكرت بأنني شاهدت لوحة تحوي نسبب الأنبياء فعدت إليها وإلى نسب إسماعيل عليه السلام وإذ اللوحة مذكور فيها بأن محمد صلى الله عليه وسلم وإسماعيل عليه السلام من العرب المستعربة[5]، فقلت لابد من العودة إلى كتاب يحوي حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم حول ذلك الموضوع، فوجدت

---

[1] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص49.

[2] - عاد وثمود ص56.

[3] - قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة ص20 ـ21.

[4] - قيام دولة المماليك الثانية ص37 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص48 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج11 ص183.

[5] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص16.

حديثاً طويلاً حول إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر، وكيف تركها إبراهيم عليه السلام عند البيت الحرام، وكيف ظهر نبع زمزم، وكيف (مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً. فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء...فنزلوا وأرسلوا على أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، حين شب فلما أدرك الحلم، زوجوه امرأة منهم...).

انظر إلى كلمة فتعلم العربية منهم، وقرأت في الحاشية حول ما ذكر عن جرهم (هو ابن قحطان بن عامر بن شالخ بن راد فخشد بن سام بن نوح، وقال ابن إسحاق: (وكان جرهم وأخوه قطورا أول من تكلم العربية عند تبليل الألسن، كان رئيس جرهم مضاض بن عمرو قطوراً السميدع ويطلق على الجميع جرهم). وعدت أيضاً إلى ما جاء بالحاشية حول (وتعلم العربية منهم): وفيه إشعار بأن لسان أمه وأبيه لم يكن عربياً، وفيه تضعيف لقول من روى أنه أول من تكلم بالعربية، (إن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم، وأول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان ثم إسماعيل)[1].

كون إسماعيل عليه السلام تعلم العربية فيما بعد أم لا. لا يعني أن يكون شركسياً، ولكن لفت انتباهي في تاريخ ابن كثير ثلاثة أمور:

جاء في تفسير ابن كثير في سورة الصافات: (فو الذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة حتى وحش يعني يبس)[2] ، وكذلك جاء في تاريخ ابن كثير (عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرها فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي. قال سفيان لم يزل

---

[1] - مختصر صحيح البخاري ص483 ـ 484 ـ 486 ـ 487.

[2] - تفسير القرآن العظيم ج4 ص15.

قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا، وهكذا روي عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكة، واسحق لا نعلم إن قدمها في حال صغره والله أعلم)[1].

صحيح أن الشراكسة من رموزهم وضع قرن في دورهم ويعلقونها في المضافات وغرف ضيوفهم وتجد منهم من يطلب ممن يزور القفقاس موطن الشراكسة أن يبتاع له قرناً ليحتفظ به في منزله.

لفت انتباهي في تاريخ ابن كثير (قوله وذلك أن رجلاً كان اسمه زردشت هو إبراهيم الزردشت أحد الأنبياء الذين ظهروا في وادي نهر الأرس بقفقازيا المشار إليهم في قوله تعالى: (وأصحاب الرس) فإن الرس تخفيف أرس...)[2].لاشك المقصود بقفقازيا هي القفقاس إذ لا يوجد في العالم مكان يشبه نفس التسمية لها. ولكن من هو إبراهيم أحد الأنبياء المقصود؟ هل ولد إسماعيل أم غيره؟ الله أعلم.

يذكر في بعض لوحات شجرة الأنبياء وشجرة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن نسب عدنان من الأديكه وربما هي محرفة مع الزمن عن الأديغة.

كلمة أديغي هي المقصود من هذه الفقرة فكلمة الشركس هي تسمية سماهم بها الآخرون. أما الشراكسة أنفسهم فيسمون أنفسهم باسم اديغي أو أديغة منذ القدم. وحينما يسأل شخص آخر يقول هل أنت أديغي؟ فيكون القصد بذلك هل أنت شركسي. فكلمة الأديغي هو الاسم القومي لهم.

هناك من يقول إن الشراكسة من سلالة العرب وأنهم من قبيلة قريش[3].

أعود وأقول حول نسب الشراكسة فيما إذا كانوا من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم فإني أتمنى أن يكون الشراكسة من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكني لا أعتقد ذلك، وإنما ما جاء في بعض الكتب للاطلاع، ليدقق من شاء في

---

[1] - البداية والنهاية ج1 ص159 تفسير القرآن العظيم ج4 ص17.

[2] - البداية والنهاية ج2 ص44.

[3] - قفقاسيا ص30.

الأمر ولكن يتضح أن هناك محبة من قبل الشراكسة للإسلام وللعرب فهذا لا يمكن أن ينكره أحد.

جبل قاف:

عرفت بلاد القفقاس قديماً وسميت بأسماء مختلفة، وكذلك جبل القفقاس حيث يسمى الشراكسة أعلى قممه بجبل الخير طبعاً بعد ترجمة الكلمة إلى العربية وسماه بعض العرب وغيرهم بجبل قاف الذي أنبت الله تعالى منه باقي الجبال وجعلها أوتاداً للأرض كعروق الشجر[1].

كتب أحد المؤرخين عن جبل قاف (لقد ذكر القرآن أسماء البلاد المقدسة الخمسة وأولها وأفضلها بلاد القوقاز التي هي مهبط الأنبياء الأولين فقد قال عنها في الآية (ق والقرآن المجيد) وأردف بها اسم كتابه الكريم في معرض القسم (قاف) في هذا القسم هي بلاد القوقاز باتفاق أكثر العلماء وأما البلدان الأربعة المقدسة التي أقسم بها تعالى في القرآن)[2] ، هي: الشام والقدس والطور ومكة المكرمة، ولا أعرف من هم العلماء الذين اتفقوا على أن (ق) تعني جبل قاف ـ أي جبل القفقاس ـ ولم يذكر الكاتب أسماء العلماء.

ذكر عن جبل القفقاس أنه (هو جبل في بلاد الجركس بين بحر الخزر (قزوين) والبحر الأسود[3]. وسمي جبل القفقاس باسم القبج والقبجق والقبجاق[4]، وكلها لاسم واحد ولكن اختلفت حسب الكتاب وحسب نطق الكلمات وحسب الترجمات.

لابد من لفت النظر بأن أماكن كثيرة في بلاد الشركس بالقفقاس سميت بأسماء عربية وأذكر فقط منها في جمهورية قبردينا بلقار الشركسية (توجد منطقة

---

[1] - كتاب معم البلدان المجلد الأول ص22 وشمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص10.

[2] - عاد وثمود ص56.

[3] - نور المقابس في تاريخ الجركس ص10.

[4] - قفقاسيا ص9.

اسمها الحسينية نسبة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب بالرغم من عدم وجود أي إنسان عربي فيها ولكن الحضارة العربية وصلتها لا القوات المسلحة)[1].

العرب البائدة:

إذا عدنا قهرياً أكثر فهناك من يقول بأن قوم عاد من الشراكسة، وأقاموا في بلاد القفقاس ثم انتقلوا إلى بلاد العرب. كما يذكر البعض بأن العمالقة هم من الشراكسة، ويذكر البعض بأن العرب البائدة يبلغ عدد قبائلها المشهورة تسعاً منها خمس هي: عاد وثمود وعمليق وعبيد (آبيد) وجرهم وبأنهم من الشراكسة الأقحاح[2].

إن الموضوع شائك، ولكن لكي لا أعود إلى موضوع أصل الشركس وعلاقتهم بالعرب سأذكر ما نقله كاتب غير عربي والكتاب طبع بالفرنسية وترجم إلى العربية مع التنبيه بأن الأبخاز هم فرع من الشراكسة. ويقول الكاتب (وهذه القرابة الأبخاز وسرماتية وميدية، يمكن أن تفسر لنا الأسطورة المذكورة أعلاه والتي تقول بأن الابخاز هم أحفاد شعب أبيض قديم يسكن الجزيرة العربية، وكان يدعى آباز أو أبازاع. وهناك في الجزيرة العربية وفي المنطقة التي يسميها العرب مادهيخ أو مادهيج أو مذحج كانت قبيلة تسمى أباسينوي وكانوا مجاورين للساباي (أي سبأ) وللحضرموت (الحضرميين) إن المقصود هنا دون شك هو شعب ميدي، وأن الأسطورة الأبخازية يمكن أن تكون مختلفة بذكرى عودة جزئية للأباسينوري إلى غرب القفقاس وإذ توغلت بعض القبائل الميدو ـ تراسية في سوريا وفلسطين والجزيرة العربية وحتى في إفريقيا الشمالية من الأزمنة القديمة أمر قد ثبت صحته الآن بأن الرجال ذوي القامة الطويلة، والشعر الأشقر والعيون الزرق، الذين نعرف أنهم كانوا يوجدون في تلك المناطق في العصور القديمة، وهم شهود على تلك الهجرات. ألم يكن معد يطلق على بعض القبائل العربية التي تنحدر بأصلها من شمال الجزيرة العربية

---

[1] - فلسطين والقرشاي ص5.

[2] - عاد وثمود ص16 ـ 23 ـ 24 ـ 109.

كما يقال؟ ألا تحدثنا الرواية نفسها عن الحروب المستمرة بين هؤلاء المعديين والقبائل اليمنية في العصر الجاهلي)[1].

في مكان آخر يكتب يجب أن نضع الأسطورة الأبخازية بموازاة أسطورة أخرى كانت تربط النارتيين القفقاسيين بشعب يعود أصله هو أيضاً إلى الجزيرة العربية وإليكم ما يقوله المسعودي في ذلك: (بالقرب من سامساخايين تفليس وقصر الالان توجد مملكة السناريين حيث يلقب كل ملوكها باسم كوريسكوي مع أنهم كلهم أي الساساع والسنار مسيحيون ولكنهم يفتخرون بأنهم عرب من أحفاد نزار بن معد بن معز، عن طريق فخذ من فرع عقيل الذي استقر في هذه الأرجاء في زمن قديم، وهم الآن يمارسون سلطة كبيرة فيها. والذي يبدو أنه يؤكد هذا الزعم، هو أني قابلت في بلاد مأرب التابعة لليمن بعض المتحالفين من المذحجيين الذين يتشابهون بمقومات كيانهم مع إخوتهم في القفقاس في نقاط (عديدة) ويردد ذلك المؤلف العربي (أي المسعودي) بعد عدة صفحات ويقول: (إن السناريين يزعمون في روايات كثيرة مفصلة بأنهم قد انفصلوا في القديم عن العقيليين في مأرب)[2].

يقول المؤرخ شورانوغموقه وهو مؤرخ شركسي ولد عام 1794م أنه ورد في التواريخ العربية أن رجلاً خرج من مدينة بابل وذهب إلى مصر ومنها انتقل إلى القفقاس واستوطن بلاد الشراكسة وتشركس، وصار منهم ومن أشرافهم ووصل إلى أعلى درجات النبل والإمارة ويعتبر أن الأمير ينال هو من القادمين من مصر وهو من أحفاد الحثيين الذين توطن نسلهم في مصر، حتى أصبح منهم أمراء حاكمين وعاد قسم منهم إلى بلاد القفقاس وحكم البعض أقساماً من بلاد الشركس بقفقاسيا[3].

---

[1] - أصل الشركس ص92 ـ 93.

[2] - أصل الشركس ص93.

[3] - تاريخ القوقاز ص87 ـ 178 قفقاسيا ص11.

1 ـ نبذة عن ولاة المسلمين:

آ ـ الخلفاء الراشدون:

بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه اجتمع الصحابة في سقيفة بني ساعدة، وبعض الأنصار وتشاوروا في أمر الخلافة، فقال بعضهم منا أمير ومنكم أمير، فقد أراد الأنصار أن يكون الخليفة منهم، ولكن حسم الأمر كله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومد يده يبايع أبا بكر الصديق رضي الله عنه[1]، والحجة التي قبلت لتقديم أبو بكر الصديق للخلافة بأن (الصلاة عماد الدين فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا[2].

قدم آخرون من الصحابة لخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عبد الله بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوة أنه رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم للآذان ولآن (الآذان مقدم على الإمامة حيث روى عن أبن عباس رضي الله عنه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علمني أو دلني على عمل يدخلني الجنة فقال كن مؤذناً، قال: لا استطيع، قال: كن إماماً قال: لا أستطيع، فقال: فقم بإزاء الإمام. رواه البخاري)[3].

رفض بالطبع بلال الحبشي، كيف بعد أن رفض أن يخلف الرسول الأنصار حيث قيل لهم: يجب أن يحكمهم قرشي، ورغم أن علي بن أبي طالب كرم الله وجه قرشي إلا أن الاختيار وقع على أبي بكر رضي الله عنه وتمت المبايعة الخاصة والعامة.

الخلفاء الراشدون على التوالي: أبو بكر الصديق وكانت مدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وتسعة أيام، وانتقل بعدها إلى جوار ربه فخلفه عمر بن الخطاب وحكم

---

[1] - فتوح الشام ص102 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص40.

[2] - إحياء علوم الدين المجلد الأول ص206.

[3] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج1 ص174.

عشر سنوات وستة أشهر قتل بعدها من قبل فيروز ـ أبو لؤلؤة ـ غلام المغيرة بن شعبة، ثم استلم الخلافة عثمان بن عفان واستمر في الخلافة إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً. (ولما قتل أقام مطروحاً إلى الليل، فحمله رجل على باب ليدفنه، فتعرض له أناس ليمنعوه، فوجد قبراً لغيره فدفنه، صلى عليه جبير بن مطعم، وقتل وهو ابن ثمانيين سنة، ولما دفنوه غيروا قبره) ثم خلفه علي بن أبي طالب وبقي في الحكم أربع سنين وتسعة أشهر وقتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي ودفن ليلاً بالكوفة وغيب قبره، أما الحسن بن علي فخلع نفسه لمعاوية[1].

تجد أن الخلفاء الراشدين الأربعة ثلاثة منهم انتهوا قتلاً، أما أولهم فمات ميتة طبيعية رضي الله عنهم جميعاً فيكون المعدل الوسطي لفترة حكم الواحد منهم هو سبع سنين وأربعة أشهر.

ولاة مصر في عهد الخلفاء الراشدين بعد فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا خمسة وكلهم من العرب عزل ثلاثة منهم وقتل اثنان أحدهما قتل قبل استلامه الولاية بمصر فتكون مدة حكمهم منذ فتح مصر أربع سنين وخمسة أشهر وخمسة أيام فيكون الوسطي لكل والٍ سنتين وعشرة أشهر[2].

تجد لدى البعض قسوة فمثلاً آخر الولاة محمد بن أبي بكر الصديق قتله معاوية بن حديج، ودون الرد على عمر، وبعد أن قتله ألقاه في جيفة حمار ميت ثم أحرقه بالحمار، وقيل قطع رأسه، وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وهو أول رأس يطاف به[3].

ب ـ الخلفاء الأمويون:

نقل مركز الخلافة إلى دمشق كما أصبحت الخلافة وراثية ملكية. بلغ عدد ملوك بني أمية 14 رجلاً وبلغت أيام حكمهم بعد حذف أيام عبد الله بن الزبير 83

---

[1] - الجوهر الثمين ج1 ص33 ـ 40 ـ 52 ـ 54 ـ 56 ـ 57 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص43 إلى 45.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج1 ص76 ـ 79 ـ 93 ـ 104 ـ 107.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج1 ص110.

سنة وأربعة أشهر ومجموعها ألف شهر كاملة فيكون متوسط حكم أحدهم حوالي خمس سنوات وثلاثة أشهر وأسبوع، وفاة عشرة منهم طبيعية وثلاثة منهم قتلاً وواحد خلع نفسه[1].

يذكر أن خلافة معاوية بن زيد بن معاوية دامت أربعين يوماً، وإبراهيم بن يزيد الناقص سبعين يوماً، وأخوه زيد بن الوليد خمسة أشهر وكانت مدة مروان بن الحكم تسعة أشهر وعشرة أيام[2].

أما ولاة مصر في خلافة الأمويين فبلغ عددهم 22 والياً، اثنان منهم استلم الولاية مرتين، وواحد استلمها ثلاث مرات، أما عمرو بن العاص فكان والياً في عهد عمر بن الخطاب ثم عاد والياً في عهد معاوية بن أبي سفيان، وكل الولاة كانوا عرباً. واثنا عشر منهم عزل وواحد هرب وآخر استعفى وآخر خلع نفسه، باعتبار عمرو بن العاص ولي مصر للمرة الثانية عام 38هـ وآخر الولاة الأمويين بمصر هو عبد الله بن مروان بن موسى عام 130هـ فيكون تقريباً وسطي حكم أحدهم حوالي ثلاث سنوات وشهر ويومين[3].

يذكر أنه بعد وفاة يزيد بن معاوية بأن الناس بايعت عبد الله بن الزبير في مكة وكان منهم أهل مصر، فبعث عبد الله بن الزبير والياً من قبله على مصر وهو عبد الرحمن بن جحدم سنة 64هـ حكم مدة تسعة أشهر فحاربه مروان بن الحكم ودخل الأخير مصر فعزل عبد الرحمن[4].

من أحداث هذا العصر وفي عام 61هـ خرج الحسين بن علي قاصداً الكوفة بعد أن بايعه الناس هناك (فتلقاه عسكر ابن زياد، فقتلوه بالطف (النجف) وقتلوا معه اثنين وسبعين رجلاً من أولاده وإخوته وبني عمه وأصحابه ومواليه، وسبوا حريمه، وبعث عبيد الله بن زياد السبي والحريم ورؤوس القتلى إلى عند يزيد بن معاوية،

---

[1] - الجوهر الثمين ج1 ص73 إلى 109.

[2] - البداية والنهاية ج13 ص232.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج1 ص75 إلى 316.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج1 ص165.

وكان يزيد في دمشق، فردهم إلى المدينة وحمل رأس الحسين على رمح، وهو أول حمل في الإسلام.

(وفي أيامه خرج عبد الله بن الزبير بمكة، وفي سنة ثلاث وستين كانت وقعة الحرة، أخرج أهل المدينة واليهم عثمان ـ وهو ابن محمد بن أبي سفيان ـ فقتلوه، وأخرجوا جميع بني أمية فبعث يزيد الجنود مع مسلم بن عقبة المري، فقتل أكثر أهل المدينة من الصحابة جماعة... وأقاموا ينهبون المدينة ثلاثة أيام، وفيها سفك الدماء في حرم الله بمكة ورميت الكعبة بالنار في قتال ابن الزبير وفي سنة أربع وستين رميت الكعبة بالمنجنيق حتى انهدم جدارها، فبعد ذلك بأحد عشر يوماً مات يزيد)[1].

استلم الوليد بن عبد الملك عام 86هـ وهو الذي بنى جامع أمية في دمشق فكان نائب الوليد على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، ومما قيل عنه (أحصى من قتله الحجاج صبراً، سوى من قتله عساكره فكانوا مائة وعشرين ألفاً، ومات في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون امرأة، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد ولم يكن لسجنه سقف يسير الناس من الحر في الصيف أو المطر في الشتاء، وكان مرخماً بغير سقف، وله غير ذلك من أنواع العذاب)[2].

ج ـ الخلفاء العباسيون:

نقل مركز الخلافة إلى بغداد، وكان أول الخلفاء العباسيين عبد الله بن محمد السفاح الذي تولى الحكم يوم 14 ربيع الآخر 132هـ وآخرهم المستعصم بالله استسلم لهولاكو فقتله بعد أيام في محرم ـ وقيل في صفر ـ 656هـ ـ شباط 1258م[3]، وبلغ عدد الخلفاء العباسيين في بغداد تسعاً وثلاثين خليفة، فيكون متوسط حكم أحدهم تقريباً ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، مات منهم 18 ميتة ربه

---

[1] - الجوهر الثمين ج1 ص78 ـ 79.

[2] - الجوهر الثمين ج1 ص88.

[3] - مصر في دولة المماليك البحرية ص179 والمماليك ص254 ولاة دمشق في عصر المماليك ص48 مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص182.

وقتل منهم ستة، أحدهم أسر وقتل سراً، وخلع عن الخلافة خمسة، أحدهم خلع نفسه وهرب وواحد خلع نفسه واعتقل حتى مات وآخر خلع نفسه طائعاً، واثنان خلعا ثم قتلا، وقيل سمم خمسة من الخلفاء، وسملت أعين ثلاثة منهم، وكان أول خليفة سملت عيناه هو محمد القاهر، وواحد من الخلفاء حبس وآخر هرب خوفاً على نفسه تاركاً الخلافة[1].

أمور حدثت زمن الخلافة العباسية:

أنفق الخليفة علي المكتفي بالله في (حرب القرامطة الأموال العظيمة، حتى أبادهم وأستأصلهم، وكانوا عرباً خرجوا على الحجاج ونهبوهم وقتلوهم بمكة، ورموهم في بئر زمزم، اقتلعوا الحجر الأسود وأخذوه إلى بلادهم[2].

في عام سبعة عشر وثلاثمائة للهجرة أقام الملعون أبو طاهر القرمطي في مكة إلى يوم التروية، فقتل الحجاج وهم محرمون حول البيت، وملأ بهم بئر زمزم، واقتلع الحجر الأسود وأخذه إلى هجر، ونهب البيت وأستاره وأبوابه، فيقال: إنه قتل بمكة قريباً من ثلاثين ألفاً، ولم يحج أحد في تلك السنة، ولا وقف بالجبل، ولم يبطل الحج في الإسلام غير تلك السنة)[3] ، وأعيد الحجر الأسود إلى مكانه أيام الخليفة الفضل المطيع لله في عام 329هـ وبعد أن بقي لدى القرامطة اثنين وعشرين عاماً)[4].

أسلم في عهد عبد الله القائم عام435هـ ثلاثون ألفاً من الترك، وكان كبيرهم أرسلان اليساسيري فانتشر ذكره وعزم على نهب دار الخلافة فاستجار الخليفة بالسلطان طغرلبك بن ميكال بن سلجوق التركماني، فقدم للدفاع عن الخليفة وعند بغداد، فهرب أرسلان إلى الرحبة ومعه عدد كثير من الترك، فراسل صاحب مصر فأرسل الأخير له أموالاً لمقابلة الخليفة، فخرج السلطان طغرلبك لمواجهته، لكن خالف الطريق أرسلان وعاد إلى بغداد لمحاربة الخليفة، فاستجار الخليفة بالأمير العربي قريش بن بدران العقيلي، فأجاره لكن قريش كان مع أرسلان،

---

[1] - الجوهر الثمين ج1 ص113 ـ 123 البداية والنهاية ج13 ص200 العصر المماليكي في مصر والشام ص32.

[2] - الجوهر الثمين ج1 ص163 ـ 164.

[3] - الجوهر الثمين ج1 ص169.

[4] - الجوهر الثمين ج1 ص185.

فأخرج الخليفة من قصره إلى خيمة ونهب قصره ثم توجهوا بالخليفة حيث حبس هناك، وخطب للخلفاء العبيديين في بغداد تسعة أشهر مدة غيبة الخليفة عن بغداد وإلى أن عاد السلطان طغرلبك إلى بغداد وحررها، وأعاد الخلافة العباسية فيها وأرجع الخليفة إلى داره[1].

ولاة مصر في عصر الخلافة العباسية وإلى بداية الدولة الفاطمية في مصر بلغ 83 والياً استلم أحد عشر منهم ولاية مصر مرتين وواحد استلمها ثلاث مرات وواحد استلم ولاية مصر أربع مرات. أما عن عنصر الولاة فمن العرب كان 54 والياً والباقي أجانب منهم 13 تركياً و11 من منطقة خراسان واثنان خزرجيان وواحد أرمني وآخر من سمرقند وآخر رومي. وكانت مدة الدعاء لبني العباس في مصر منذ ابتداء دولة بني العباس إلى أن قدم القائد جوهر المغربي وخطب باسم مولاه المعز معد العبيدي الفاطمي 225 سنة)[2] ، فيكون وسطي حكم ولاة مصر المعينين من قبل الخلفاء العباسيين سنتين وثمانية أشهر ونصف تقريباً، مات بأجله 16 والياً وقتل منهم ستة، كما قتل منهم في الحرب اثنان، وطرد من الولاية ثلاثة، وهرب واحد وآخر استخلف غيره وترك الولاية،أما الباقون فكلهم عزلوا من الولاية.

د ـ الدولة الأيوبية:

كان صلاح الدين الأيوبي وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي من عام 564هـ وفي نهاية 567هـ خطب صلاح الدين جمعتين لبني العباس وأبطل اسم الفاطميين، مات بعدها العاضد، فتسلم صلاح الدين القصر بما فيه، واعتقل أقارب العاضد، ومنعوا من النساء لئلا يتناسلوا. وبعد أن مات نور الدين الشهيد بدمشق سار صلاح الدين إليها، وملك دمشق وبلاد الشام بعد أن سبق ملك مصر.

كان لصلاح الدين سبعة عشر ولداً ذكوراً وبنت واحدة، وعند موته قسم البلاد لأولاده وأعطى العزيز عثمان مصر[3].

---

[1] - الجوهر الثمين ج1 ص193 ـ 194.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج1 ص25.

[3] - الجوهر الثمين ج2 ص13 ـ 16 ــ 19.

كان الحكم عند الأيوبيين ملكياً والذي انتهى نهائياً بخلع الأشرف موسى وسجنه حتى مماته، ويكون وسطي حكم الفرد منهم تسع سنوات وعشرة أشهر وخمسة أيام تقريباً. خمسة من الملوك الأيوبيين توفوا وثلاثة خلعوا وواحد قتل[1].

أما عما قيل بأن الصالح أيوب أبعد الأكراد والعرب واستقدم عناصر من غيرهم، وأسكنهم في قلعة الروضة على نهر النيل، فكان السبب كما ذكره المقريزي حين مسك الصالح أيوب وسجن في الليلة التي زال عنه ملكه فيها، تفرق عنه الأكراد وغيرهم من العساكر حتى لم يثبت معه سوى مماليكه، رعى لهم ذلك فلما استولى على ملك مصر جلب العديد منهم، فصاروا بطانته المحيطين به[2].

2 ـ عهد السلاطين:

آ ـ جنسية السلاطين:

هناك من يقسم عصر السلاطين إلى دولتين سميت لدى البعض بالدولة البحرية[3]، لكونهم سكنوا في قلعة الروضة، وتسمى قطعة الجزيرة[4] على النيل[5]، وهناك رأي آخر رأى فيه نوعاً من التجديد والرغبة في الخروج على المألوف. وقيل: إن التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر، ومن ثم سموا بالبحرية[6]، والدولة الثانية البرجية أو الشركسية[7].لكونهم سكنوا في قلعة الجبل ومنهم من قال اسم البرجية نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلوا بها[8]، ولكن

---

[1] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج6 ص3 ـ 364 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص52 ـ 61 ـ 71.

[2] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص62.

[3] - السكة الإسلامية في مصر دولة المماليك الجركسية ص4.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج6 ص320.

[5] - مصر في دولة المماليك البحرية ص14 مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص167.

[6] - العصر المماليكي في مصر والشام ص11.

[7] - السكة الإسلامية في مصر دولة المماليك الجركسية ص4 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص330 مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص167.

[8] - قيام دولة المماليك الثانية ص12 الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص254 المماليك ص75 مصر والشراكسة ص35 ـ 52.

الشيخ زاهد الكوثري يرى أن السلطان قلاوون سماهم بالبرجية باعتباره شركسي من قبيلة (برج) فنسبهم إليه[1] أما تسمية الدولة الأولى بالتركية والثانية بالشركسية ففيها مجانبة واضحة للحقيقة إذ توجد في الدولة الأولى شراكسة وغيرهم في الدولة الثانية شراكسة وغيرهم أيضاً، وأوضح بأن الشركس تعني ويقصد بها سكان ما بين بحري قزوين والبحر الأسود في القفقاس الشمالي[2] وسلاطين الشراكسة على الأرجح وحسب استلامهم الحكم بعد حذف كلمة ملك أو سلطان هم:

1 ـ عصمة الدين شجرة الدر بنت عبد الله، أم خليل.

2 ـ الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي والبندقداري الصالحي أبو الفتح.

3 ـ السعيد ناصر الدين محمد ويسمى بركة خان أبو السعد بن الظاهر بيبرس.

4 ـ العادل بدر الدين سلامش أبو الفتح بيبرس.

5 ـ المنصور أبو المعالي سيف الدين قلاوون الصالحي النجمي الألفي، ويكتبها البعض قلاون وتكتب أيضاً قلاؤن[3].

6 ـ الأشرف خليل بن قلاوون.

7 ـ الناصر محمد أبو المعالي بن قلاوون.

8 ـ المظفر ركن الدين بيبرس االجاشكيز أو الجاشنكيز المنصوري.

9 ـ المنصور سيف الدين أبو بكر بن محمد بن الناصر محمد بن قلاوون.

10 ـ الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد.

11 ـ الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد.

12 ـ الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد.

13 ـ الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد.

14 ـ المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد.

---

[1] - الوطن في أدب الشراكسة ص35.

[2] - قفقاسيا ص9.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص300.

15 ـ الناصر بدر الدين حسن بن الناصر محمد.

16 ـ الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد.

17 ـ المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي بن محمد قلاوون.

18 ـ الأشرف زين الدين شعبان أبو الجود بن حسين بن محمد قلاوون.

19 ـ المنصور علاء الدين أبو الفتح بن شعبان بن حسين بن محمد قلاوون.

20 ـ الصالح زين الدين حاجي ويقال له أمير حاج أبو الجود بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون.

21 ـ الظاهر برقوق واسمه السابق الطنبغا ، فسماه أستاذه يلبغا الكبير برقوق أبو سعيد بن آنص اليلبغاوي الشركسي.

22 ـ الناصر زين الدين فرج أبو السعادات بن برقوق بن آنص، وكان سماه أبوه بلغاق ثم سماه فرجاً.

23 ـ المنصور عز الدين أبو العز بن برقوق بن آنص.

24 ـ المؤيد سيف الدين شيخ المحمودي أبو النصر الظاهري الشركسي.

25 ـ المظفر شهاب الدين أحمد أبو العز بن المؤيد شيخ.

26 ـ الظاهر سيف الدين ططر أبو الفتح الظاهري الشركسي.

27 ـ الصالح ناصر محمد أبو السعادات بن ططر.

28 ـ الأشرف سيف الدين برسباي أبو النصر الدقماقي الظاهري الشركسي.

29 ـ العزيز جمال الدين يوسف أبو المحاسن بن برسباي.

30 ـ الظاهر سيف الدين جقمق أبو سعيد العلائي الظاهري الشركسي.

31 ـ المنصور فخر الدين عثمان أبو السعادات بن جقمق.

32 ـ الأشرف سيف الدين بن إينال أبو العلائي الناصري الشركسي.

33 ـ المؤيد شهاب الدين أحمد أبو الفتح بن إينال.

34 ـ الظاهر سيف الدين بلباي أبو سعيد الإينالي المؤيد العلائي الشركسي.

35 ـ الأشرف سيف الدين قايتباي أبو النصر المحمودي الظاهري الشركسي.

36 ـ الناصر ناصر الدين محمد أبو السعادات بن محمد بن قايتباي..

37 ــ الظاهر سيف الدين قانصوه أبو سعيد المحمودي الأشرفي القايتباي الشركسي

38 ـ الأشرف سيف الدين جان بلاط وتكتب أيضاً جانبلاط أبو النصر الأشرفي الشركسي المعروف بالناظر.

39 ـ العادل سيف الدين طومان باي أبو النصر الأشرفي الشركسي.

40 ـ الأشرف سيف الدين قانصوه الغوري أبو النصر الأشرفي الشركسي المعروف بالغوري نسبة إلى طبقة الغور إحدى الطبقات التي كانت في مصر لتعني المؤدبين وقيل تعني الأمير المبارك.

41 ـ الأشرف طومان باي أخو الغوري.

أخر السلاطين كان طومان باي حيث قاتل العثمانيين في مصر مدة وقيل: (رأى طومان باي في نومه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا طومان أنت ضيفنا بعد ثلاثة أيام. فخلع آلة القتال وذهب إلى السلطان طائعاً مختاراً فشنقه[1]، وأبقاه في باب زويلة مشنوقاً ثلاثة أيام ثم دفن بمدفن الغوري المشهور، وبموت طومان باي انقضت دولة الجراكسة في مصر وعادت إلى نيابة كما كانت)[2].

نذكر من أحداث السلاطين المذكورين:

تمت الموافقة على أن تصبح شجرة الدر ملكة[3]، وهي أول ملكة في الإسلام وتم ذلك قبل ثماني سنوات من سقوط الخلافة العباسية في بغداد[4]، وذلك (لما يعلمون من أنها في زمن زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب هي التي تدير أمر المملكة وقضي حوائج الناس وتعلم على المناشير ـ أي المراسيم ـ والتواقيع[5]، وكان الملك الصالح يعتمد عليها في أموره وأعماله، كما ساست الناس على أحسن وجه

---

[1] - ولاة دمشق في عصر المماليك ص11 من الموجز في تاريخ سورية ج2 ص133.

[2] - فتوح الشام ج2 ص63 ـ 64 الوطن في أدب الشراكسة ص155.

[3] - المماليك ص46.

[4] - محاضرات في الأدب الملوكي والعثماني ص15.

[5] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج2 ص44 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج6 ص333 مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص172.

وجودة تدبير، لحسن سيرتها وغزير عقلها، ودعي لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة العباسي ـ كما كان في زمن عصر السلاطين ـ بقولهم: (واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمت الدنيا والدين أم خليل المستعصم صاحبة السلطان الملك الصالح)[1]، ونقش اسمها على الدراهم والدنانير، ولم يل مصر في الإسلام امرأة فأقامت المللكة ثلاثة أشهر وعزلت نفسها[2]، وقيل ثمانين يوماً[3].

ـ بعد انقضاء الخلافة العباسية في بغداد أحياها مرة ثانية في مصر السلطان الظاهر بيبرس فكان أول خليفة في مصر المستنصر بعد أن وصل إلى مصر عام تسعة وخمسين وسبعمائة بعد أن تم إثبات نسبته من القضاة فبايعه الخلافة وأجرى عليه نفقة، ولم يكن له من الأمر شيء سوى اسم الخليفة، ووراثة اللقب لأولاده من بعده، واستمر الأمر وكان أخر خليفة عباسي بل أخر خليفة للمسلمين هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب الملقب بالمتوكل، ولما دخلت القوات العثمانية على بلاد الشام ثم مصر أخذه معه السلطان سليم إلى تركية الحالية، وبعد أن توفى السلطان المذكور عاد الخليفة إلى مصر واستمر بها مقيماً إلى أن توفى في عام خمسين وتسعمائة وبموته انقطعت الخلافة إلى الآن[4].

ـ قيل عن نهاية السلطان طومان باي غير ما ذكر سابقاً بأنه بعد أن دخلت قوات السلطان سليم مصر لم يتوقف عن القتال والدفاع عن مصر، ولكن ما دام الصلح أصلح لصون المسلمين، أرسل السلطان طومان باي إلى سليم كتاباً مع قاضي البهنسا يوضح فيه فيما إذا كان يريد المفاوضة على أن تكون الخطبة والسكة باسمه ويبقى هو نائباً، ويحمل إليه خراج مصر على أن يرحل عن مصر مع عساكره إلى الصالحية صوناً لدماء المسلمين، وأوضح له (إذا كنت لا تريد ذلك لاقني في الجيزة، ويعطي الله النصر لمن يشاء) ثم ذكر ما معه من قواد وأمراء وقوات و (رأى

---

[1] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج2 ص373 ـ 374 العصر المماليكي في مصر والشام ص18 مصر في دولة المماليك البحرية ص20 الملك المظفر قطز ص5 مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص172.

[2] - فتوح الشام ج2 ص170 ـ 172 كتاب خطط الشام ج2 ص107 من الموجز في تاريخ سورية ج2 ص60.

[3] - البداية والنهاية ج13 ص195 ـ 196 ـ 199 مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص175.

[4] - فتوح الشام ج2 ص185 ـ 190.

السلطان سليم ألا يرفض الدخول في الصلح بحسب القواعد التي ذكرها طومان باي، وكتب صورة معاهدة إليه، ووقع عليها على أن يقوم الخليفة المتوكل والقضاة بحملها إلى طومان باي، ولكن الخليفة اعتذر وأناب عنه دواداره الخاص برد بك، فخرج الوفد ومعه مندوب عثماني على أنه حدث عند وصول الوفد إلى البهنسا أن هاجمه بعض الشراكسة وقتلوا المندوب العثماني وهرب برد بك. وربما اعتذار الخليفة من أحد أسباب عدم الصلح وربما ظن الخليفة في حينه عندما أعطاه سليم صلاحية صاحب الحل والعقد سيستمر بذلك. ثم نشبت الحروب من جديد قرب الجيزة هزم العثمانيون أولاً بفرقة، ولكن المعركة انتهت بنصر العثمانيين فاختفى السلطان طومان باي لثالث مرة خلال المعارك استعداداً لحرب أخرى على ما يبدو، وهذه المرة توجه السلطان طومان إلى الغربية لعند حسن بن مرعي وابن عمه شكري شيوخ غرب محارب، حيث كان ولاهم طومان باي على عربهم، وبعد أن أخرج حسن من الحبس المؤبد زمن المرحوم السلطان الغوري فالتقى بهم وأخذ العهود والمواثيق والأيمان المغلظة[1]، بأن يكونا معه ظاهراً وباطناً وبالقلب، وأن يكونوا هم على قلب رجل واحد. وشرح السلطان طومان باي بأن العدو في أثره، وأحضر مصحفاً وحلف حسن وابن عمه على القرآن ألا يخونا ولا يغدرا به ولا يدلا عليه بشي ولا لسبب من الأسباب، وحلفا على المصحف سبع مرات فاطمأن طومان . (وبعد أن اطمأن حسن بن مرعي على استقرار طومان باي ومن معه، خرج عنهم ليستطلع الأخبار، وقد حدثته نفسه بالخيانة، ويقال إن مجادلة حادة وقعت بينه وبين أمه في أمر الخيانة، وحذرته الأم من هذا العمل، وأخذت تذكره بما للسلطان طومان باي عليه من أياد بيضاء، وجهدت في نصحه فلم ينتصح، إنه كان يطمع في المكافأة وشجعه شكري ابن عمه بقوله: هل عاقل يبيع عاجله بأجله، لا تمل إلى الكفة الخاسرة فيحصل لك الخسران)، واستقر عزم حسن بن مرعي على الخيانة وأحاط

[1] - صور ومظالم من عصر المماليك ص21.

بعربانه الضيف. وأرسل إلى السلطان سليم بالخبر[1]، وبالطبع أمسك السلطان طومان وعاتبه سليم بمقتله رسله الذين أرسلهم للمفاوضة في الصلح لكن طومان دافع عن نفسه بشجاعة وهيبة ووقار، ونزاهة نفس، وأعرب بأنه لا بد من الدفاع من شرفه العسكري وشرف استقلال بلاده، وأعجب السلطان به وقال له: لو أطعتني أول مرة وجعلت السكة والخطبة باسمي لرجعت من حلب ولا دست أرضك. وكان جواب السلطان طومان له: (الأنفس التي تربت في العز لا تقبل الذل،... هل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا، وليس في عسكرك من يقايسني في حومة الميدان) فقرر سليم أن يضعه في الحجر، ولكن الأعداء أوغروا صدر سليم فأمر بشنقه يوم الاثنين 19 ربيع الأول 923هـ الموافق نيسان 1527م[2]، وسار طومان بحراسة 400 جندي إلى أن وصل باب زويلة، ولم يهزم ولم يظهر عليه أي خوف أو اضطراب، وبقي رافع الرأس ويسلم على الناس طوال الطريق، وحينما أرخى له المشاعلي حبلاً هنا دعا السلطان طومان باي الناس الذين اجتمعوا حوله أن يقرؤوا له الفاتحة ثلاث مرات وبسط يده إلى السماء وقرأ الفاتحة عن نفسه في صوت مسموع وقرأ الناس معه، والتفت إلى المشاعلي وقال: اعمل شغلك، ولكن حبل المشنقة انقطع، وأعيد وضع الحبل حول رقبة السلطان طومان باي وسقط ميتاً المرة الثانية، وصرخ الناس صرخة مدوية تفيض حزناً وأسفاً، ودفن بعد ثلاثة أيام في حوش المدرسة التي بناها السلطان الغوري رحمهما الله[3].

اغلب المصادر تؤكد بأن السلطان المرحوم طومان باي تم شنقه كما ذكرنا ولكن هناك من يقول: إنه أعدم رمياً بالرصاص في 19 ربيع الأول 923هـ[4].

---

[1] - العصر المماليكي في مصر والشام ص20 مصر والشراكسة ص105 مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص281.

[2] - مصر والشراكسة ص106.

[3] - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص192 ـ 198 طومان باي ص76 إلى 178 العصر المماليكي في مصر والشام ص205 صور ومظالم من عصر المماليك ص32 ـ 33 مصر والشام في عصر الأمويين المماليك ص282.

[4] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص182 ـ 183.

أعود إلى باقي السلاطين في الدولتين الأولى والثانية مع ذكر نسبه على الأرجح وحسب استلامهم الحكم:

1 ـ التركماني المعز أيبك الصالحي.

2 ـ التركماني المنصور علي بن أيبك.

3 ـ الخوارزمي المعر قطز المعزي.

4 ـ التتاري العادل كتبغا المنصوري.

5 ـ التركي المنصور لاجين المنصوري وقيل أصله من الشركس[1].

6 ـ العربي الخليفة المستعين بالـله العباسي بن محمد بن أبي بكر بن أحمد.

7 ـ الرومي الظاهر خشقدم الناصري المؤيدي.

8 ـ الرومي الظاهر تمر بغا الظاهري.

ب ـ نسب السلاطين:

نعت ونسب بعض السلاطين الشراكسة بالأتراك أو بأسماء أخرى لا بد من تبيان بعض الأمور حول ذلك فقد كان للملك الصالح ثلاثة قواد ذوي صولة وجولة، وهم أيبك التركماني وقطز الخوارزمي وبيبرس الشركسي [2]،وكان خلف بيبرس فارس الدين أقطاي والأمير سيف الدين قلاوون[3]، وكان كل من بيبرس والأميرين يدعمون شجرة الدر لكونها من الشراكسة مثلهم، ومما يدل على ذلك وحدتهم واختلافهم مع أيبك وقطز، وكان لابد من ظهور خلاف بعد موت الملك الصالح فسلطنت شجرة الدر لحسم أي خلاف بين القادة، ولكن لعدم قبول المسلمين بسلطانة عليهم، واعتراض الكثيرين ومنهم الخليفة العباسي[4]، ولكي لا يقع أي خلاف بالدولة الفتية تم زواج شجرة الدر بالمعز أيبك. (ولما جرى في المنصورة ما جرى أتفق الناس على أتابكية الأمير عز الدين التركماني الصالحي وأن يكون الرأي

---

[1] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص47 المماليك ص70.

[2] - الوطن في أدب الشراكسة ص44.

[3] - الوطن في أدب الشراكسة ص44.

[4] - العصر المماليكي في مصر والشام ص20 مصر في دولة المماليك البحرية ص 22 الملك المظفر قطز ص7 الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص9.

والتدبير لوالدة خليل ـ أي شجرة الدر ـ ولد الملك الصالح، فداخلت الأمير عز الدين الطمع في المملكة) ثم صار يقدم جماعة خلف جماعة ولا يجسر إلا على إظهار التبعية مع أن الأمير فارس الدين أقطاي كان مخلصاً لأيبك ويمنع عنه كل معترض ومع ذلك كان أيبك يضمر الحقد لأقطاي وبيبرس وزملائهما، وتم الاتفاق بين المعز والأمير سيف الدين قطز وجماعة من مماليكهما على قتل فارس الدين[1]، وحينما طلب المعز الحضور من أقطاي ذهب معه بيبرس فلم يجسر أحد عليهما، ولكن المكائد كانت مستمرة وحبائل المصائد تنصب، فبعد أن خرج بيبرس وأقطاي أوضح بيبرس لرفيقه أن يكون حذراً، وحينما أرسل أيبك لأقطاي مرة أخرى بحجة استشارته، ومع تحذير بيبرس أبى إلا الرجوع فعاد إلى القاعة و دخل الأمير فارس الدين إلى قاعة العمد بالقلعة، وقام منها إلى قاعة أخرى، وإذا بالأمير سيف الدين قطز وقد ضربه بالسيف وهو غافل[2]،وأعانه بقية الجماعة، وقتلوه غدراً في دهليز ضيق) وكان أن اقترح بيبرس على شجرة الدر وأقطاي وقلاوون الرحيل، ولكن كما قال تعالى: (لكل أجل كتاب) وبعد مقتل أقطاي، فما كان من بيبرس إلا الخروج مع من وافقه إلى الشام، وبعد أن رفض أغلب خوشداشيته حيث انقسموا بآرائهم فمن قائل وخائف على أهله وأولاده وإقطاعه وملكه ومن يقول: (مالي ذنب أهرب منه) ولكن أيبك لم يتركهم فقتل وشرد الكثير منهم.

حينما وصل بيبرس مع رفاقه ومنهم قلاوون إلى الشام[3]، (تلقاه الملك الناصر صلاح الدين ابن الملك العزيز صاحب دمشق وحلب فأكرمه وأكرم من وصل معه

---

[1] - الملك المظفر قطز ص10 الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص9 الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص467 تاريخ الملك الظاهر ص268 المماليك ص46 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص18 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص97 مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص178 ـ 208.

[2] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص79 البداية والنهاية ج13 ص101 العصر المماليكي في مصر والشام ص45 الملك المظفر قطز ص65.

[3] - خليل بن قلاوون ص6 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص18 مدن الشام في مصر عصر الأيوبيين والمماليك ص182.

من الأمراء وخوشداشيته وتسلل الهاربون من البحرية إلى السلطان) أي بيبرس، وهذا يؤكد أن البحرية كان بينهم شراكسة وعددهم ليس بقليل.

استمرت الدسائس وراسل أيبك الملك الناصر وخوفه من بيبرس ورفاقه ففترت همة الملك الناصر تجاه بيبرس، وتغيرت عهود الملك الناصر وبما أن نابلس كانت إقطاعاً لبيبرس سابقاً فقد تكلم مع الملك الصالح بالخروج إليها مع جماعته (فأخذهم وتوجه إلى الكرك وبصحبته الأمير سيف الدين قلاوون الألفي وعز الدين أوغان الركني وغيرهما) فاستقر بيبرس في الكرك[1].

قتلت شجرة الدر أيبك[2] فقتلت هي الأخرى بعد أن سحقت كل جواهرها وذهبها لكي لا تقع في يد عدوها[3].

بعد موت أيبك ووصول قطز الحكم كانت معركة عين جالوت ، فراسل قطز عدوه السابق بيبرس للاتفاق معه على أن يقاتلا معاً عدو الإسلام، وقيل عكس ذلك بأن أحد أمراء دمشق التابع للأيوبيين واسمه زين الدين الحافظي أشار بالاستسلام لهولاكو والدخول في طاعته، عندما سمع زحف التتار في حلب، ولكن الأمير بيبرس لم يعجبه ذلك القول، فقام وصفع الأمير الحافظي على وجهه قائلاً له: (أنتم سبب هلاك المسلمين) ثم سار بيبرس ومعه الأمراء البحرية إلى غزة ومن هناك أرسل بيبرس إلى السلطان قطز يطلب توحيد الكلمة لمواجهة خطر التتار[4]، فاتفق بيبرس وقطز على القتال معاً لمصلحة البلد، وبعد الانتصار في المعركة لا حق بيبرس التتار إلى ما بعد حلب[5]، واصطحب قطز معه بيبرس متوجهين إلى مصر مع أنه قيل بأن قطز

---

[1] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص51 إلى 56.

[2] - ولاة دمشق في عصر المماليك ص59 مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص179.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص27 الملك المظفر قطز ص22 ـ 63 مصر والشراكسة ص51 من الموجز في تاريخ سورية ج2 ص61 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج6 ص378.

[4] - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص32 العصر المماليكي في مصر والشام ص37 مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص184.

[5] - البداية والنهاية ج13 ص220 ـ 221 ولاة دمشق في عصر المماليك ص53 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص82.

كان قد وعد بيبرس بولاية حلب، ولكن على ما يبدو فقد غير قطز رأيه ولكن لم يصل مصر وإنما الذي دخلها وهي محتفلة بالنصر بيبرس الذي أصبح ملكاً وسلطاناً على مصر وبلاد الشام[1].

اختلفت الرواة في تحديد جنسية بيبرس فمنهم من قال بأنه من قبجاق[2]، وقيل من برج أغلي[3]. أما مرتفعات بلاد القبجاق فهي بين البحر الأسود وقزوين[4]، فقد ذكر أنه من القبجاق وقال البعض من الترك، وقال آخرون أنه شركسي من القوقاز[5].

كتب البعض بأن قلاوون تركي، وقيل من القبجاق[6]، وهناك كتابات تقول بأنه شركسي، كما جاء في تعليق للشيخ محمد زاهد الكوثري على أحد فصول كتابه (المزارات الإسلامية والآثار العربية) واعتبر قلاوون من قبيلة برج الشركسية[7]، وهناك من قال قلاوون من جنس القبجاق ومن قبيلة برج أغلي[8]، الجدير بالذكر أن السلطان قلاوون بعد تسلطنه استقدم العديد من الشراكسة،فقد أراد له طائفة منهم (تختصه بولائها ويرتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين، تختلف في أصولها عن الطوائف الأخرى القائمة)[9] ، فهو وزميله بيبرس أكد العديد بأنهما شركسيان[10]، وقيل بأنه من القبجاق.

---

[1] - البداية والنهاية ج13 ص222.

[2] - المماليك ص56 قفقاسيا ص9.

[3] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد.

[4] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص27.

[5] - مصر والشراكسة ص52.

[6] - المماليك ص56 قفقاسيا ص9 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص94.

[7] - الوطن في أدب الشراكسة ص35 مصر والشراكسة ص52.

[8] - خليل بن قلاوون ص6 ـ 9.

[9] - العصر المماليكي في مصر والشام ص142.

[10] - مجلة النشرة الثقافية العدد 4آذار 1990 ص16.

يسمى سكان شمال القفقاس القبجاق، كما سمو الجبل بجبل القبج[1]، ويقال عنه جبل قاف[2]، أما عن كلمة قبجق فهي كلمة شركسية معربة عن كيجك بمعنى النازح من سفح الجبل (وقال شيخ الربوة أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الدمشقي في كتابه (نخبة الدهر) :وأما القبجق فمساكنهم في جبال وغياض من وراء دربند وشيروان مما يلي بحر الروس، وكذلك سمي الناس بتلك الصحارى الواسعة في شمال الجبل وبين بحر الخزر ولأزق على نهري وولجا ودون (دمشت قبجق) أو صحراء الخزر[3].

يقال (لجبل القفقاس جبل القبق كما ذكره أبو الفداء في تقديم البلدان، وميدان القبق[4]،المعروف في مصر أحدثه الظاهر بيبرس، لتدريب الجيش المجلوب من القبق على الرمي، وسماه بهذا الاسم ليكون الجيش على ذكر منشئهم الأصلي، ومنشأ الأبطال عند تدريبهم على الرمي حتى ينشؤوا أبطالاً بكل معنى الكلمة لكي يتناسب جيشهم من حيث جبل القبق في البطولة)[5]. (بل توسعوا وأطلقوا لفظ (قبق) على كل أمير من القفقاس له جنود مدربة على الرمي. وقال صاحب كشف الظنون في جهانما (دليل العالم): للجركس أحد عشر قبقاً ـ والمراد بالقبق الأمير ـ فتمان، وتمرك، وجغاكا وهم حربيون كفار، وجانا كبير وجانا صغير، وبوزه دوق، وحاتوقاي، وبولتقاي، وبسني، وقبرطاي، وهم مسلمون)[6] ، وهذه الأفخاذ والقبائل شركسية أصلية ما زالت موجودة إلى هذه الأيام وتوجد العديد من تلك القبائل في البلاد العربية.

---

[1] - موسوعة تاريخ القفقاس والحركس ص249 ـ 339 شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص10.

[2] - من الموجز في تاريخ سورية ج1 ص27.

[3] - تاريخ القوقاز ص66 شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص10.

[4] - المطبخ السلطاني ص65 ـ 66 تاريخ الملك الظاهر ص20 المماليك ص108 إلى 110.

[5] - تاريخ القوقاز ص65 نظم دولة السلاطين ورسومهم في مصر ج2 ص142 ـ 143 الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص424 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص131.

[6] - تاريخ القوقاز ص259.

حينما كان يود أحدهم الإقدام على الزواج لم يكن يقبل بالزواج إلا من جنسه، فمثلاً تزوج محمد (بركة خان) ابن السلطان بيبرس من بنت قلاوون[1]، كما كان قلاوون نفسه أرسل في طلب زوجة له من بلاده، وكذلك تزوج السلطان المؤيد شيخ ابنة الأمير إبراهيم من بنت السلطان الظاهر فرج[2].

ينسب البعض شجرة الدر إلى الأتراك، ومنهم من قال إنها أرمنية[3]، مع أنها شركسية[4]، وسبب تلك العادة التي كانت في ذلك العصر فكان يذكر اسم الشخص باللقب أو ينسب على جماعة كان معهم أو إلى أستاذ كان له أو حتى إلى الأمكنة التي مر بها أو مكث فيها أو حتى إلى مذهبه أو عمله فيقال مثلاً: الطواشي صفي الدين جوهر التوازي الحبشي الخازنداري، ويقال الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله بن محمد الأدكوي ثم الفوي ثم يقال: الأمير الطواشي فيروز الرومي الجاركسي الساقي[5]، واضح مما تقدم أن بعض الأشخاص لدى الكاتب الواحد يختلف ويتناقض أحياناً فما بالك بعشرات الكتب والكتاب واختلاف الأزمان والأهواء.

ج ـ نظام الحكم:

يوجد مثل لدى الشراكسة يقول: (إذا كنتما اثنين فليأتمر أحدكما بالآخر، وذلك لكي لا يقع أي خلاف، وعلى نطاق الجماعة أو على نطاق أي مجلس ولو مجلس سمر أو حفلة رقص، ويعين الشراكسة زعيماً أو حاكماً مصغراً لتلك الحفلة، ويتقيد الآخرون بأوامره ويستأذنونه في أي عمل يريدون القيام به، ضمن عادات وتقاليد تعرف بـ (أديغه خابزة) وينفذونها كقانون ودستور لهم[6].

---

[1] - تاريخ الملك الظاهر ص20.

[2] - المطبخ السلطاني ص60.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص17 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص19 الملك المظفر قطز ص6.

[4] - مصر والشراكسة ص50.

[5] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص83 ـ 113 ـ 114 ـ 148.

[6] - الوطن في أدب الشراكسة ص53.

حينما كان يود أحدهم الإقدام على الزواج لم يكن يقبل بالزواج إلا من جنسه، فمثلاً تزوج محمد (بركة خان) ابن السلطان بيبرس من بنت قلاوون[1]، كما كان قلاوون نفسه أرسل في طلب زوجة له من بلاده، وكذلك تزوج السلطان المؤيد شيخ ابنة الأمير إبراهيم من بنت السلطان الظاهر فرج[2].

ينسب البعض شجرة الدر إلى الأتراك، ومنهم من قال إنها أرمنية[3]، مع أنها شركسية[4]، وسبب تلك العادة التي كانت في ذلك العصر فكان يذكر اسم الشخص باللقب أو ينسب على جماعة كان معهم أو إلى أستاذ كان له أو حتى إلى الأمكنة التي مر بها أو مكث فيها أو حتى إلى مذهبه أو عمله فيقال مثلاً: الطواشي صفي الدين جوهر التوازي الحبشي الخازنداري، ويقال الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله بن محمد الأدكوي ثم الفوي ثم يقال: الأمير الطواشي فيروز الرومي الجاركسي الساقي[5]، واضح مما تقدم أن بعض الأشخاص لدى الكاتب الواحد يختلف ويتناقض أحياناً فما بالك بعشرات الكتب والكتاب واختلاف الأزمان والأهواء.

ج ـ نظام الحكم:

يوجد مثل لدى الشراكسة يقول: (إذا كنتما اثنين فليأتمر أحدكما بالآخر، وذلك لكي لا يقع أي خلاف، وعلى نطاق الجماعة أو على نطاق أي مجلس ولو مجلس سمر أو حفلة رقص، ويعين الشراكسة زعيماً أو حاكماً مصغراً لتلك الحفلة، ويتقيد الآخرون بأوامره ويستأذنونه في أي عمل يريدون القيام به، ضمن عادات وتقاليد تعرف بـ (أديغه خابزة) وينفذونها كقانون ودستور لهم[6].

---

[1] - تاريخ الملك الظاهر ص20.

[2] - المطبخ السلطاني ص60.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص17 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص19 الملك المظفر قطز ص6.

[4] - مصر والشراكسة ص50.

[5] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص83 ـ 113 ـ 114 ـ 148.

[6] - الوطن في أدب الشراكسة ص53.

على نطاق أكبر تكون المجالس العامة للقرية ولأي أمر طارئ يعين شخص للقيادة سواء بالإجماع العلني عليه أو ضمنياً، وإذا عدنا إلى أساطيرهم نجد تعداد المجالس فيها وأنواعها كما نجد تعداد الإله الذي يكون بمثابة القائد الأعلى لنوع من أنواع العمل فيسمى إله للحرب وإله للزراعة وإله للحيوانات وإله للحديد والتعدين وغيرها بالإضافة إلى وجود إله واحد للجميع كرب للأرباب.

لابد من هذا التمهيد لتوضيح كيفية حكم الشراكسة منذ القدم مع العلم أن الشراكسة لم يصلوا في تاريخهم القريب المعروف بوضوح إلى درجة إنشاء دولة واحدة لكافة أنحاء بلادهم وأقطارهم، بل كان لكل جهة أمير وهذا الأمير يرتبط بأمير الأمراء الذي يجمع عليه بمجلس عام بحضور أعضاء من كل طرف وجماعة وكمثال تجد الأمير (بلوتوقة) حيث كان النظام عندهم نظام (الإمارات المتحدة) ويستعمل البعض عبارة الحكومات المتحدة، وهذه الإمارات كانت لها صفة خاصة لا بالجمهوريات المحصنة ولا بالإدارة المطلقة، فكل أمير يحكم إمارته لوحده وحسب ما تعارفوا عليه في عاداتهم وتقاليدهم وهؤلاء الأمراء يكونون خاضعين لأمير الأمراء أو الأمير الكبير، وهذا الأخير يتم انتخابه بشكل ديمقراطي[1]، وبالطبع حتى يصبح أي أمير حاكماً يتولى الرئاسة أو الإمارة يجب أن يتصف بصفات عديدة منها (أن يكون متصفاً بالعقل الراجح والفكر الثاقب، شجاعاً مقداماً لا يهاب الكوارث، متمسكاً بالتقاليد القومية، محافظاً عليها عاملاً على تنفيذها ورعايتها، فإذا توفرت هذه المزايا في الأمير المرغوب تنصيبه ينتخب بالإجماع رئيساً وحاكماً على القبيلة مدى الحياة وتسند إليه القيادة العامة في الحروب)[2].

يشارك الأمير في الأمور الهامة مجلس أعيان أو مجلس قومي أعلى هذا المجلس من أولى مهامه انتخاب الأمير الحاكم وإعلان الحروب ومحاكمة الأمراء (أي الوزراء) وهذا المجلس يكون عادة من العلماء والنبلاء والقادة ويكون أعضاء المجلس الأعلى بعدد الدوائر المتآلفة بحيث يكون لكل منطقة أو دائرة مندوب

---

[1] - تاريخ القوقاز ص184.

[2] - تاريخ القوقاز ص185.

منتخب عنها لتمثيلها، وبالطبع في أول اجتماع للمجلس ينتخب رئيساً للمجلس وأعضاؤه يكونون تخت راية أمير الأمراء، وهؤلاء الأمراء وأعضاء المجلس لهم مكانة خاصة، فمثلاً إذا مر أي فارس من دار الإمارة أو الحكم يترجل عن فرسه. في حال مخاطبة الأمير يضاف إلى اسمه نعت يتصف بالتعظيم والتبجيل)[1].

يتضح إذاً (أن كل جهة تنتخب أميراً لها ومجموع الأمراء ينتخبون أميراً عاماً لهم، وإذا عدنا إلى عصر السلاطين سنجد أن الأمير كان على شاكلة ما ذكر، فكان هناك أمراء مختلفون عديدون يتبعهم أناس آخرون، هؤلاء تابعون لأمير معين، وفي حال انتخاب أمير الأمراء (السلطان) كما تسمى في عصر السلاطين يكون انتخابه من قبل مجلس الأمراء فيعين ويصبح هو الحاكم العام للبلاد في مصر والشام وما يتبعهما من البلدان، وباعتبارهم غريبين عن العنصر العربي فكان يجب ولو شكلياً أن يوافق الخليفة على ذلك التعيين، فالحكم كان ديمقراطياً بينهم ويتضح أن حكمهم كان حكم المجالس، كما كان الشراكسة في بلادهم القفقاس قديماً. (إن مفاهيم الديمقراطية ومجالس الشيوخ ومجالس الشباب ومبادئ الانتخاب والحرية مفاهيم باقية بوضوح شديد عند شعوب القفقاس الشمالي، وتفسر لنا النزعة الاستقلالية وشدة التمسك بالحرية الفردية، ولم يتمكن المؤرخون من فهم طبيعة هذه الشعوب مما جعلهم يصفونها بكثرة المنازعات على السلطة في دويلات المدن الديمقراطية، وحتى العصور الحديثة لدى السلاطين الشراكسة في مصر وكل ما في الأمر أنهم كانوا يأنفون من تولية ولي عهد صغير السن فيبقونه فترة احتراماً لذكرى والده ويعزلونه بعد ذلك ليولوا من بينهم من هو جدير بالرئاسة، ويلعب عامل السن دوراً في هذه المجتمعات بحسب عاداتهم وتقاليدهم المتوارثة ولو كانت الديمقراطية والتعلق الشديد بالحرية الشخصية من نقاط ضعفهم في تاريخهم السياسي)[2].

---

[1] - تاريخ القوقاز ص187 ـ 188 ـ 191.

[2] - الشركس في فجر التاريخ ص92 العصر المماليكي في مصر والشام ص105.

كـان الشراكسـة لا يمزجـون (السياسـة بالـدين ولا يختلفـون عـن أهـالي الـبلاد المفتوحة إلا بتعميم الإنسانية بسرعة فائقة وجعلها قانوناً مدنياً عاماً، وهكـذا كانـت حالة الشراكسة قبل التاريخ وبعده، ولأنهم قد اعتمدوا على القوة لنشر المدنية وفـتح جميع البلاد بواسطة جيوشهم المنظمة ووضعوا لخطتهم القوانين الاجتماعيـة التـي لا تزال أحكامها جارية إلى اليوم)[1].

لنعد إلى عصر السلاطين حيث كان اختيـارهم يـتم مـن قبـل الأمـراء كـما ذكرنـا، وكان الخليفة فقط يوقع ويوافق عـلى مـا اختـاروه بـل السـلطان أحيانـاً كـان يعـزل الخليفة أو يعاقبه، وهذا يعني أن سلطنة الخليفة كانت شكلية، ويعطى لـه منصـب ولقب، ويعطى له راتب بالإضافة إلى المهام الشكلية والتكميلية فيخرج مع السـلاطين في الحروب مثلاً، ويمكن القول عن الخليفة حاكم بدون سلطة[2]، أي اسمية تماماً مثل ملكة بريطانيا حالياً أو رئـيس الهنـد، ولتأكيـد ذلـك نـذكر مـا جـاء في كتـاب نفـائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية (فيصف إحياء السلطان المولـد النبـوي، ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعـوا، ومـا فعلـوا في الحفـل، ويبـين عـدا هـذا كيـف يجلس السلطان ليلاً وكيف يتقدم إلى كبار الدولة ينشـد كـل مـنهم شـعراً في مدحـه، وكيف يقابلهم السلطان، وقد ذكر أن الخليفة يعقوب المستمسك بالـلـه خليفـة مصر تقدم (وباس الأرض كفرض العين وعين الفرض) وأنشد:

إن الخـــلافة ثوب خصصت بـه ... إذا لبست فلم يفضل ولم يميز

ما أودع الـلـه في أحداقنـا بصراً ... إلا لنفـرق بين الـدر والخـرز[3]

إن توضـيح كيفيـة الحكـم في عصر السـلاطين يحتـاج أكـثر مـن مجلـد فنظـام السلاطين فريد من نوعه يرتبط بأمور مختلفـة، ولكـن لا ضرر مـن توضـيح الجوانـب عما قيل عنهم ولنتذكر معاً مهما كان الحاكم منصـفاً سـتجد مـن يـدعي ويقـول انـه

---

[1] - عاد وثمود ص59.

[2] - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص183 الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص17 دمشـق بين عصر المماليك والعثمانيين ص292.

[3] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص192.

غير منصف، وهذا ليس في عصر السلاطين بل في كافة الأزمان ما قبل ذلك العصر وبعده، وليس الأمر متعلقاً بعدالة الحاكم أو بصحة حكمه أو كيفية الحكم بل الخلاف غالباً يتعلق بالمال فحينما اجتمع ولاة الأمصار في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه في المدينة عنده تكلم والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز: (وقال يا أمير المؤمنين إنه ليس يرضي الناس عنك إلا ما أسخطهم عليك، فإن الناس إنما نقموا عليك لأجل هذا المال، فأعطهم إياه حتى يرضوا به عنك، ولا يشكوك أحد بعد ذلك). ولا يستغرب الأمر ففي زمن الرسول صلى الله عليه وسلم تجد بأنه نهض شخص ومد يده ممسكاً قميصه قائلاً له: لم تنصف حين وزعت الغنائم على الناس، فهل يعقل ذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم؟ هل يعاب على عثمان أن يكون غنياً، وهل يعاب على السلاطين غناهم وأن تكون لديهم الأموال مع التذكير بأن السلاطين وأمراءهم هم الذين كانوا يخوضون المعارك بأنفسهم مع أعداء الإسلام، ومعلوم حسب الشريعة الإسلامية للمقاتلين أربعة أخماس الغنائم. فطالما كان العدو من التتار أو الصليبيين يريدون القضاء على البلاد العربية المسلمة فهل كان يريد البعض أن يتوقفوا لكي لا يصبحوا أغنياء، وكان الله ينصرهم في معظم الحروب وتأتي الغنائم، ألا تجد في كتب التاريخ أن الأمراء والسلاطين بنوا المساجد والمدارس والمنشآت مثل السدود والأقنية والطرق، ويذكر التاريخ كيف يدفعون الأموال بل يفتحون أمكنة للمحتاجين، ولا ينكر الرخاء الذي عم في عصر السلاطين.

د- السلاطين الشراكسة:

ذكرت كيف كان الأمراء يجتمعون لاختيار احدهم، والأوفر حظاً يكون من ذوي الكفاءة والمقدرة، أو الأكثر سناً في بعض الأحيان[1]، وبعد الاتفاق على أحدهم سلطاناً لهم، وقد يرفض المنتخب المنصب كالأمير أزبك، وهو من أشهر الأمراء وأرفعهم مقاماً، وحلف بالطلاق ثلاثاً ألا يتسلطن، وإزاء الإصرار الحاسم

[1] - قيام دولة المماليك الثانية ص110.

سلطن الأمراء غيره[1]، وفي حال اتفاق الأمراء وقبل المنتخب وبرضا تتم البيعة له من قبل الأمراء ثم يبايعه باقي فئات الشعب ممثلين بالخليفة والقضاة وغيرهم.

كان السلطان المنتخب من الأمراء، لا يعين لفترة محددة من الزمن وإنما يبقى حاكماً طالما يقوم بواجبه خير قيام وهو نظام فريد لا هو بالجمهورية يحدد له فترة ولاية، ولا هو بالملكية بحيث يصبح بعده ولده مالكاً ، وفي حال انتقال السلطان إلى رحمة الله تعالى يعين آخر، أو في حال خلع السلطان لسبب ما أيضاً يعين آخر بنفس الطريقة، ولكن كما هي الحكومات الحالية كان خلال الفترة الانتقالية يعين آخر مؤقتاً وقد يكون ابنه وهذه العادة في حال وفاة السلطان وفي حال كون الابن صغيراً[2]، يعين معه كفيل لتسيير الأمور بالشكل الصحيح. وفي حال خلع السلطان أيضاً يعين سلطان مؤقت وغالباً يكون ممن ليس له طموح في السلطنة، وأحياناً يعين هذا المؤقت من غير عنصر السلاطين ـ أقصد العنصر الشركسي ـ فيعين تتاري أو تركي أو رومي وذات مرة عين الخليفة العربي سلطاناً كفترة انتقالية.وقد يخضع السلطان في حال إقدامه على عمل مخالف حسب نظام حكمهم فقد كان الشركس مثلاً يعطون أهمية لكبير السن[3]، وكان يعتبر مخلاً بنظامهم ومفهومهم وعاداتهم أن يترأسهم صغير السن، والأمر غير مستغرب لمن يعرف عاداتهم ونفسياتهم[4] ، فمثلاً إذا كان السلطان صغير السن فلا تسمح عاداتهم بالتكلم بحضور كبار السن وذلك حسب عاداتهم وتقاليدهم في احترام الأكبر سناً[5]، وكذلك الأخ الأصغر لا يحق له التكلم بوجود الأخ الأكبر، ولا الدخول للمجالس العامة. وهذا كان دأبهم ليس في القديم ولا في عصر السلاطين فحسب بل

---

[1] - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص44 ـ 45.

[2] - نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج1 ص27 العصر المماليكي في مصر والشام ص28 ـ 105 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص92 الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص53 مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص181 ـ 399.

[3] - مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص247.

[4] - المماليك ص236.

[5] - مصر والشراكسة ص8.

حتى في الوقت الحاضر وللتوضيح أذكر حديثاً ذكره صحفي عربي رافقه شيشاني في زيارة لجمهورية الشيشان بعد إعلان استقلالهم من طرف واحد وزار كبار المسؤولين فيها ومن جملتهم الرئيس الشيشاني الراحل جوهر دوداييف حيث كان الصحفي مع جمع آخر في صالة الطعام كان فيها ميرزا بيك دوداييف أخ الرئيس جوهر وحيث ذكر ملاحظته بعدم دخول الرئيس إلى القاعة مع وجود أخيه الأكبر (لو أن أخ الرئيس لم يغادر المكان لما تمكن الرئيس جوهر دوداييف من الجلوس على مائدة الطعام أو التحدث معنا إذ أن التقاليد الشيشانية في هذه الحالة تفرض على الرئيس أن يقف قرب الباب ليخدم علينا فقط فهذه هي مهمات الأصغر سناً بوجود من هم أكبر سناً منهم)[1].

إذا عدنا إلى عهد السلطان برقوق حينما (وصل والده أنس (أنص) إلى مصر فقد أجلس في صدر المخيم، وقعد الأمير اقتمر عبد الغني النائب من جانب، والأمير أيدمر الشمسي من جانب آخر، وجلس برقوق تحت أيدمر وهو يوم ذاك مرشح للسلطنة، فانظر إلى تلك الآداب والقواعد السالفة. ولما استقر بهم الجلوس أخذ آنص يخاطب برقوقاً ولده باسمه من غير تحشم كما يخاطب الوالد ولده على قاعدة الجراكسة)[2].

يتضح لك سبب تغيير الابن في حال وفاة الأب السلطان أو في حال وضع سلطان مؤقت، ليس الأمر كما اعتقد أغلب الكتاب بأن السبب هو المنافسة على السلطنة، كما ذكرت فالسلطنة ليست وراثية[3]، وهذا ما يؤكده أغلب الكتاب، وأكدته الوقائع بالإضافة إلى أن السلطان يختار من قبل الأمراء وليس هو من يرشح نفسه ويراعى كبر السن[4]، وغالباً حينما يعين البعض يطلب إعفاءه كما فعل

---

[1] - مقالة تحت عنوان (الشيشان تفاؤل وقلق ص23 ـ 25.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج11 ص183 ـ 225.

[3] - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص232 نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج1 ص27 الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص253 ـ 355 مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص205 ـ 247.

[4] - المماليك ص236.

بيبرس الجاشنكير[1]، وقايتباي والغوري وغيرهم[2]، وقد يصر الأمراء على السلطان المنتخب.

سأذكر السلاطين بالشكل التالي لسهولة البحوث التالية المتعلقة بالحروب والبلدان التي حرروها وفتحوها وما بها من العمران وخاصة المساجد والمدارس ذات الجمالية والإبداع الفني والعمراني الرائع:

1 ـ شجرة الدر.

2 ـ الظاهر بيبرس وابنه بركة خان بن بيبرس وسلامش بن بيبرس.

3 ـ المنصور قلاوون وابنه خليل بن قلاوون ومحمد بن قلاوون للمرة الأولى والثانية.

4 ـ المظفر بيبرس الجاشنكير.

5 ـ أحفاد قلاوون وهم: أبو بكر بن محمد بن قلاوون، وكجك بن محمد بن قلاوون، وأحمد بن قلاوون، وإسماعيل بن محمد بن قلاوون، وشعبان بن محمد بن قلاوون، وحاجي بن محمد قلاوون للمرة الأولى والثانية، وصالح بن محمد بن قلاوون، وصلاح الدين محمد بن سيف الدين حاجي، ثم شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون، ثم صلاح الدين بن حاجي بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون للمرة الأولى والثانية.

6 ـ الظاهر برقوق للمرة الأولى والثانية وفرج (بلغاك) بن برقوق للمرة الأولى والثانية وعبد العزيز بن برقوق.

7 ـ المؤيد المحمودي وابنه أحمد بن شيخ.

8 ـ الظاهر ططر (تاتار) وابنه محمد بن ططر.

9 ـ الأشرف برسباي (باسرباي) وابنه يوسف بن برسباي.

10 ـ الظاهر جقمق وابنه عثمان بن برقوق.

11 ـ الأشرف إينال وابنه أحمد بن إينال.

---

[1] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج8 ص234 ـ 236.

[2] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص294.

12 ـ الظاهر بلباي بن قلطاي.

13 ـ الأشرف قايتباي وابنه محمد بن قايتباي.

14 ـ الظاهر قانصوه (قانصاو) الأول المحمودي.

15 ـ الأشرف جنبلاط.

16 ـ العادل طومان باي (طمانباي).

17 ـ الأشرف قانصوه الغوري.

18 ـ الأشرف طومان باي (طمانباي).

لقد حارب السلاطين وجاهدوا في سبيل الله ضد أعداء بلاد الشام ومصر خاصة والدولة الإسلامية بشكل عام فقد (أظهروا آيات البطولة وضروب الحيل في الدفاع عن الوطن العربي ضد الأخطار الكبرى التي هددته من جانب التتار والصليبيين)[1].وردوا كافة الغزاة عن تلك الأراضي، ولقد نجحوا في توطيد مراكزهم (وإظهارهم أمام العالم الإسلامي أجمع في صورة (داوية الإسلام) وفرسانه الذائدين عنه)[2] ، والمعروف عن دولتهم أنها قامت بالأساس حربية[3]، وقلما كانت الحروب تتوقف ولاعتقادهم وإيمانهم بالإسلام، ولما للجهاد من مكانة فقد روي (عن معاذ بن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن امرأة أتته فقالت: يا رسول الله انطلق زوجي غازياً، وكنت أقتدي بصلاته إذا صلى وبفعله كله فأخبرني بعمل يبلغني عمله حتى يرجع، قال لها: أتستطيعين أن تقومي ولا تقعدي، وتصومي ولا تفطري، وتذكري الله تعالى ولا تفتري، حتى يرجع؟ فقالت: ما أطيق هذا يا رسول الله فقال: والذي نفسي بيده لو أطقته ما بلغت العشور[4] من عمله) رواه أحمد[5].

الجدير بالذكر أنه لم يحصل أن بدأ السلاطين بالقتال ضد جيرانهم، بل كانوا مسالمين يدافعون عن الأرض والدين في حال حدوث أي اعتداء مع استعدادهم للقاء أي عدو. وبالإضافة إلى الحديث السابق، الذي سأسرده لاحقاً فهموا معنى الجهاد فقد ذكر (عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله صلى

---

[1] - الحيل في حروب المماليك ص 35 صور ومظالم من عصر المماليك ص4 الدولة المملوكية التاريخ والسياسي والاقتصادي والعسكري ص364.

[2] - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص60.

[3] - الدولة المملوكية التاريخ والسياسي والاقتصادي والعسكري ص364 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص302.

[4] - العشور: جمع عشر، هو الواحد من عشرة أجزاء.

[5] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج2 ص294.

الـلـه عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشـمس، ثـم قام في الناس فقـال: أيهـا النـاس، لا تتمنـوا لقـاء العـدو، وسـلوا الـلـه العافيـة، فـإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظـلال السـيوف. ثـم قـال: الـلـهم منـزل الكتـاب[1]، ومجـري السـحاب، وهـازم الأحـزاب[2]، أهـزمهم وانصرنـا علـيهم) متفـق عليه[3].

كتب شمس الدين سـامي بـك في دائـرة معارفـه (قـاموس الأعـلام) المطبوعـة في الأستانة ما ترجمته (أن الشراكسـة قـد احتفظـوا بأديـانهم وحريـاتهم أمـام الجيـوش الكبرى التي اكتسحت جميع العالم والتي لم يقـدر غـيرهم عـلى الوقـوف أمـام سـيلها الجارف)[4].

نعـم كسر السـلاطين شـوكة الصـليبيين والتتـار والمغـول[5]، وأعـوانهم في أرمينيـة والأناضول وعم الهدوء والسلام والأمن في عصرهم، وحطموا المقولـة القائلـة بـأنهم لا يغلبون، وتسلم السـلاطين في مصر العـالم لـيس العـربي فحسـب بـل العـالم الإسـلامي بأكمله وأصبح كيان المسلمين كبيراً[6]، وأصبحت دولتهم واسعة الأرجاء فكانـت دولـة عظمى وإمبراطورية كبرى وامتدت ليس في مصر وبلاد الشام فحسب بل خطب مـثلاً للسلطان برقوق في الموصـل وشـمال العـراق، وكانـت تحـت سـلطتهم آسـيا الصـغرى شمالاً وجزيرة قبرص وكانـت كـذلك تخضـع لهـم بـلاد الحجـاز والـيمن وبـلاد النوبـة وشمال السـودان إلى حـدود الحبشـة وإلى مجاهـل إفريقيـة وبرقـة وجهـات سـواكن

---

[1] - منزل الكتاب: أي القرآن.

[2] - هازم الأحزاب: أي في غزوة الخندق.

[3] - رياض الصالحين ص396.

[4] - عاد وثمود ص26.

[5] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص6 ـ 15.

[6] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعـثماني ص18 ـ 19 مـدن الشـام في الـعصر المملـوكي ص27 طومان باي ص112 محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص4.

وجزائرها، وكانوا يطلبون رضاهم في الهند وسواحل المحيط الهندي والخليج العربي[1].

قوة السلاطين الموجهة إلى الأعداء كانت تنتهي بمجرد إسلام عدوهم وتجد ذلك واضحاً في رسالة جوابية من السلطان المنصور قلاوون للسلطان المغولي بعد أن أعلن إسلامه فكتب له (فإن الله والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة، وجهادنا إنما هو على الحقيقة لله وحيث دخل معنا في الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الدخول)[2].

خاض السلاطين وأمراؤهم حروباً ضروساً كثيرة خلال فترة حكمهم (وجرت عادة الدولة المملوكية الدخول في معركة من المعارك أن يعقد مجلس الجيش ويرأسه السلطان وعضوية أتابك العساكر والخليفة وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين الذين بلغ عددهم أربعة وعشرين أميراً، وكان الغرض من عقد هذه المجالس الاستفادة بآراء كبار الدولة قبل الإقدام على حرب من الحروب وجعل إعلان الحرب أمراً مشروعاً)[3] ، وسأذكر بعض البلاد والقلاع التي تم فتحها من قبل السلاطين الشراكسة على سبيل المثال والتذكير:

1 ـ الظاهر بيبرس:

فتح قلعة البيرة والكرك والشوبك، وكانت وقعة البلستين، وفتح أرسوف وقلعة الهوى، وجهز عسكره إلى ساحل طرابلس الشام ففتحوا القليعات وعرقا ونزل هو إلى صفد ففتحها بعون الله، وأخذ إياس، وفتح شقيف أرنوق، وفتحت يافا وأنطاكية وبغراس، وفتح حصن الإسماعيلية وحصن الأكراد وقلعة الحصن، وتملك حصن عكا وكينول ومدينتها، وأدنة والمعيصة، وفتحت صلحاً قلعة المرقب، واستولى على برج صافيتا، وفتح حصن القرين واستولى على قلعة الكهف بالقرب

---

[1] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص18 ـ 19 ـ 67 ـ 68 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص10 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص102.عشائر الشام ج1 ـ 2 ص686.

[2] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص375.

[3] - الحيل في حروب المماليك ص16.

من القدموس، وعندما سمع أن التتار نزلوا البيرة فساق عساكره إلى الفرات وخاضها، وكما غزا سيس واستعاد دربساك وغزا بلاد الروم واحتل قيسارية [1]، كما توجه إلى جهة عثليت وأخذ حصن الملوحة وحصن حيفا[2]، كما فتح سواكن[3]، وتمت كذلك الإغارة على صورة وغنموا فيها[4]، كما فتحت العليقة من الإسماعيلية[5]، كما فتح طرطوس[6]، كما تم احتلال هولين وتبنين والرملة وحلبا[7]، كما استولى على طبرية[8]، وفتحت

---

[1] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ص65 إلى 67 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص75 وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص256 العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص82 الجوهر الثمي في سيرة الملوك والسلاطين ص37 إلى 51 أثارنا في الإقليم الشمالي من ص95 إلى 68 الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص230 ـ 250 ـ 251 ـ 260 ـ 269 ـ 293 ـ 305 ـ 374 ـ 375 ـ 379 ـ 417 البداية والنهاية ج13 ص244 ـ 246 ـ 247 ـ 248 ـ 251 ـ 259 ـ 272 ـ 275 العصر المماليكي في مصر والشام ص65 ـ 67 ـ 68 ـ 211 مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص62 ـ 63 ـ 69 القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص61 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص49 ـ 59 ـ 60 ـ 61 الدولة المملوكية التاريخ والسياسي والاقتصادي والعسكري ص10 تاريخ الملك الظاهر ص106 ـ 321 ـ 323 من الموجز في تاريخ سورية ج2 ص65 ـ 66 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص138 ـ 140 ـ 142 ـ 153 ـ 186 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص198 ـ 199 ـ 200 ـ 322.

[2] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص234 مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص62 الدولة المملوكية التاريخ والسياسي والاقتصادي والعسكري ص10 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص198.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص248.

[4] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص253.

[5] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص384 العصر المماليكي في مصر والشام ص65.

[6] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص417 البداية والنهاية ج13 ص259 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص61.

[7] - العصر المماليكي في مصر والشام ص65 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص60 الدولة المملوكية التاريخ والسياسي والاقتصادي والعسكري ص10 تاريخ الملك الظاهر ص321 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص198.

[8] - العصر المماليكي في مصر والشام ص211 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص59 تاريخ الملك الظاهر ص321 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص186 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص323.

القصير[1]، وقيصرية[2]، وفتحت عرقا ناصيف وبانياس، وكذلك بعلبك وصرخد وعجلون وحمص والصلت وتدمر والرحبة وتل باشر[3]، كما فتح مرقبة[4]، كما فتح بلیناس وأنطر سوس ودرب ساك ودرعوش وتلميس وكفرين ورعياك المزريان وشيزر والبيرة[5]، وفتح حصن مصياف[6]، كما فتحت الباشورة بالسيف[7]، كما فتحت دركوش وحصن قرب أنطاكية[8]، وتسلم بوابة طلعة بلاطنس وقلعة كرابيل[9].

أرسل السلطان جيشاً إلى دنقلة فكسر جيش السودان وقتلوا منهم خلقاً وأسروا شيئاً كثيراً من السودان[10]، وفتحت النوبة والسودان بأكملها[11]، كما ملك بيبرس برقة وبعد حروب كثيرة[12].

2 ـ قلاوون وأولاده:

فتح المنصور قلاوون صافيتا، وانتصر انتصاراً عظيماً على المغول في الوقعة التي ظاهر حمص بالمرج، ثم سار إلى حصن المرقب وأعطى أهلها الأمان على أن يخرجوا بما يقدرون عليه غير السلاح وتسلم الحصن، ثم سار إلى قلعة صهيون وأجيب بتسليمها له، ثم تابع سيره إلى اللاذقية وتسلمها بالأمان، وعاد أدراجه إلى طرابلس

---

[1] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص59 تاريخ الملك الظاهر ص121 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص143 ـ 186.

[2] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص202.

[3] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص60 ـ 61.

[4] - تاريخ الملك الظاهر ص321 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص186.

[5] - تاريخ الملك الظاهر ص322 ـ 323 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص198.

[6] - من الموجز في تاريخ سورية ج2 ص66.

[7] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص142.

[8] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص143.

[9] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص146.

[10] - البداية والنهاية ج13 ص269 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص62.

[11] - البداية والنهاية ج13 ص275 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص62 تاريخ الملك الظاهر ص323 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص188.

[12] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص246.

الشام وفتحها بالسيف وفتح جبلة والكرك والشوبك[1]، وكذلك احتل عكا وبيروت وصيدا[2]، وكذلك فتحت بانياس[3]، كما تم الاستيلاء على طرابلس[4]، واتجه قلاوون صوب مرقية فأجابه أميرها إلى طلبه[5]، كما احتل أهدن وبقوفا ودكوها[6]، أما أعظم الغزوات هو فتح قبرص[7].

فتح الأشرف خليل بن قلاوون عكا والروم غربي الفرات وصيدا وبيروت، وهرب أهل مدينة صور فتسلمها وكذلك عتليت وطرطوس وبهنسا ومرعش وتل حمدون[8].

انتصر محمد بن قلاوون في معركتين من أكبر المعارك ضد المغول الأولى معركة مرج الصفر والثانية انتصاره على جيوش غازان في موقعة

---

[1] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص301 ـ 328 ـ 361 ـ 365 الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج2 ص71 ـ 72 الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ج2 ص94 إلى 98 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص79 ـ 80 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج1 ص197 البداية والنهاية ج13 ص305 ـ 313 العصر المماليكي في مصر والشام ص74 ـ 75 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص322.

[2] - تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج1 ص197 البداية والنهاية ج13 ص295 العصر المماليكي في مصر والشام ص75.

[3] - البداية والنهاية ج13 ص309.

[4] - العصر المماليكي في مصر والشام ص211.

[5] - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص67.

[6] - من الموجز في تاريخ سورية ج2 ص68.

[7] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص328.

[8] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص 81 الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج2 ص 65 ـ 72 ـ 74 الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص23 الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ج2 ص110 الحيل في حروب المماليك ص 39 تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص131 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج1 ص201 البداية والنهاية ج13 ص320 ـ 327 العصر المماليكي في مصر والشام ص79 ـ 211 خليل بن قلاوون ص23 ـ 52 الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص507 من الموجز في تاريخ سورية ج2 ص.62 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج8 ص8 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص219 ـ 322.

شقحب[1]، والثانية بالقرب من الكسوة، كما سير أسطولاً في البحر من مصر إلى جزيرة أرواد وملكها، كما فتح ملاطية (ملطية) وهي مدينة بأرض الروم، وتم الاستيلاء على بلاد سيس ومن مدنها إياس، كما تسلم قلعة عرقية، وأرسل السلطان عساكر حلب إلى آمد وملكها، وجرد السلطان أمراء إلى برقة وحرروها، كما رسم السلطان تجريدة إلى اليمن بناءً على طلبهم[2]، كما فتحت أيام السلطان محمد بن قلاوون دارندة وطرسوس[3].

3 ـ أحفاد قلاوون:

أمر السلطان الأشرف شعبان بن حسين بتوجيه حملة عسكرية بقيادة نائب حلب الأمير جرجي الأدريسي لأخذ خرت وبرت وجرت فحاصرها واستلمها بالأمان، كما جرد السلطان تجريدة إلى بلاد النوبة بعد أن كثر فساد أولاد الكنز فيها فأمسكوا منهم جماعة وقتلوا منهم جماعة[4]، كما فتح سيس وهي حالياً في ولاية أضنه التركية وكانت عاصمة مملكة أرمينيا الصغرى وبذلك يكون قد تم فتح أرمينيا[5].

فتح صلاح الدين حاجي بن شعبان مرعش وعينتاب وأبلستين وملطية ودروكي[6].

---

[1] - المطبخ السلطاني ص74.

[2] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص86 ـ 413 انتصار الوحدة في شمال القفقاس ص57 الفتوحات الإسلامية مضي الفتوحات النبوية ج2 ص76 ـ 80 ـ 83 ـ 84 الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ج2 ص154 ـ 156 ـ 166 البداية والنهاية ج14 ص21 ـ 25 ـ 73 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص211 ـ 212 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص174.

[3] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص212.

[4] - الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ج2 ص222 ـ 223 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص172.

[5] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص77 مدن الشام في العصر المملوكي ص61.

[6] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص272 إلى 274.

4 ـ الظاهر برقوق:

هاجم الفرنجة بيروت عن طريق البحر بعشرين مركباً فقام إينال اليوسفي بمهاجمتهم فكسرهم وغنم ستة عشر مركباً منها، كما أنشأ الأمير الطنبغا الجوباني أغربة وشواني سفن حربية لغزو الفرنجة في البحر الأبيض المتوسط وساروا إلى دمياط فوجدوا على ساحلها غراباً ـ نوع من السفن الحربية ـ للجينوية فكبسوا عليهم وأسروا من فيه، كما نازل الفرنجة في طرابلس الشام فواقعوهم وكسروهم وأخذوا منهم ثلاثة مراكب كما سار يلبغا الناصري بالعساكر الحلبية وغيرها وتنازلوا مع أحمد بن رمضان التركماني عند جسر الفرات فأسروه وابنه وأمه وقضوا عليهم[1].

5 ـ الأشرف برسباي:

من مناقبه وإنجازاته فتح قبرص وأسر ملكها وقتل أخيه، وحمل ملك قبرص إلى مصر وطيف به[2].

6 ـ الظاهر جقمق:

انتصر على جيش رودس ورجع ومعه بنت الملك وكثير من الأسرى والغنائم وخاصة الذهب[3].

7 ـ الأشرف قايتباي:

جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك الدوادار أخذ قلعة عينتاب من جماعة سوار شاه ولاحق المنهزمين إلى أدنه وطرسوس وأخذهما، كما وقعت حرب على نهر جيحان فانكسر سوار وهرب إلى قلعة زمنطو، وكان قد جهز أربعة جيوش من مصر إلى

---

[1] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص285 ـ 330 ـ 362 ـ 424.

[2] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص134 مدن الشام في العصر المملوكي ص76 الفتوحات الإسلامية مضي الفتوحات النبوية ج2 ص105 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج2 ص36 ـ 81 العصر المماليكي في مصر والشام ص271 مصر والشراكسة ص68 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص255.

[3] - الفتوحات الإسلامية مضي الفتوحات النبوية ج2 ص106.

سوار كانت التجريدة الأولى لقتال سوار زمن السلطان خوشقدم، أما الثلاث التالية ففي زمن السلطان قايتباي، كما أن دولات نائب قلعة سيس من قبل سوار سلم القلعة المذكورة لجيش السلاطين، وفتحت أيضاً قلعة فرمان ثم قلعة زمنطو حيث كان سوار هارباً إليها فاستسلم، وكذلك انتصر يشبك الدوادار على عسكر الطويل، كما كان الانتصار الثاني لجيش السلاطين على جيش العثمانيين، وتم استعادة قلعة كولك، والنصر الثالث كان باستيلاء الأتابكي أزبك على باب الملك والنصر الرابع على العثمانيين كان في معركة ضخمة قتل فيها عدد كبير من الفريقين، وكان النصر فيها للجيش المصري وعندما أعاد عسكر ابن عثمان أدنه هاجمها عسكر السلطان وأعاد فتحها بالأمان، كما انتصروا واحتلوا قلعة كوارة[1]، فأخذها من عسكر ابن عثمان أيضاً[2].

[1] - الأماكن المذكورة السابقة لها هي حالياً ضمن تركية.

[2] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص53 إلى 55 ـ 61 ـ 69 ـ 185 ـ 186 ـ 190 ـ 196.

بعد انهيار الخلافة العباسية في بغداد وسقوطها، وقيام دولة السلاطين في مصر وبلاد الشام لجأ إليها العلماء والأدباء سواء الذين هربوا من المغول في بغداد، أو القادمين من آسيا وأفريقيا حيث استقبلهم الحكام الجدد في مصر بالترحاب والتقدير وشدوا على أيديهم، وعندما أصبحوا في أمان محفوظي الكرامة لا يخشون شيئاً أبدعوا بالكتابة، وكانت لهم مؤلفات ضخمة، كما شجعت دولة السلاطين الناس للإقبال على العلم بفتح المعاهد والمدارس بجميع أنواعها[1].

نتيجة تشجيع السلاطين للعلم والعلماء قامت نهضة علمية[2]، بفروع الثقافة كلها، الدينية والعربية والتاريخية والعلوم الأخرى، بما فيها الطب حيث فتحوا مشافي للعلاج والتعليم، وكانت مدارسهم بمثابة جامعات خرجت الكثير من العلماء وحوت مؤلفاتهم العلم والمعرفة وظهر منهم مبدعون كثر، كما عرف كثير من السلاطين الشراكسة (بحبهم للأدب ومجالس العلم مثل برقوق وشيخ جقمق وقايتباي والغوري)[3]، في ظل هذه الدولة قامت في مصر حركة علمية زاهرة واسعة ارتفعت فيها العلوم والفنون، ومن خلال العديد من المراكز العلمية التي جرت فيها آنذاك، ويدل على ذلك التراث الضخم الذي تركه علماء ذلك العصر، وبفضل عوامل متعددة، وكانت لهذه الحركة سماتها المميزة لها[4].

في مجال اللغة العربية وعلومها وبعد انهيار اللغة العربية في بقاع الإسلام حفظ أدباؤها في مصر والشام عصر السلاطين اللغة العربية بل ازدهرت ازدهاراً كبيراً وذلك لعناية السلاطين بها، وجعلها لغة رسمية للدولة[5]، مع العلم أن أصول السلاطين وأمرائهم ليست عربية، بل تعلموا بجهودهم الفردية اللغة العربية وتكلموا

---

[1] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص14.

[2] - مصر والشام في عصر دولة الأيوبيين والمماليك ص292.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص159 ـ 239.

[4] - الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص10 من المقدمة والعصر المماليكي في مصر والشام ص338.

[5] - مصر والشام ص132 ـ 133 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص159

بها وأتقنوها وكتبوا بها، وأبدع فيها العديد كمثال الفيروز أبادي وهو شركسي الأصل ألف القاموس المحيط[1]، والجدير بالذكر أنه بفضل السلاطين تم إتقان آداب اللغة العربية كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بك: (فقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية الشركسية حافظة مكانتها التي كانت لها من قبل، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ اللغة العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق[2].

في مجال القصة فقد ظهرت مؤلفات قصصية وسير شعبية كثيرة أشهرها: ألف ليلة وليلة وقصة عنترة، وقصة سيف الدين بن ذي يزن، وقصة الظاهر بيبرس وهي تتضمن حروبه مع الصليبين، وقصة أبو زيد الهلالي[3]...الخ.

أبدع الكثيرون في مختلف العلوم كعلم الاجتماع والتاريخ والجغرافية منها المؤرخ الشركسي ابن دقماق وابن خلدون وابن كثير والذهبي[4].

كما ظهرت الموسوعات الضخمة في جميع العلوم[5]، أشهر مؤلفيها ابن فضل الله العمري وابن طولون[6]، ومن المؤلفات الدينية فقد كان العالم ابن تيمية وأتباعه مثل ابن قيم الجوزية ومن المؤلفين في الكتب الدينية أيضاً الذهبي وابن كثير وابن حجر[7].

مدح العديد من العلماء والباحثين عصر السلاطين لما أنتجوه وأبدعوا فيه من العلوم المختلفة، فيقول العلامة محمد زاهد الكوثري (ها هي كتب التاريخ

---

[1] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص21 ـ 25 ـ 43.

[2] - مصر والشراكسة ص131.

[3] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص40.

[4] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص20 ـ 66 ـ 203 ـ 204 دمشق في عصر المماليك ص206 ـ 207.

[5] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص34 دمشق في عصر المماليك ص204.صور ومظالم من عصر المماليك ص79 محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص6 ـ 12 ـ 188 دمشق في عصر المماليك ص140.

[6] - دمشق في عصر المماليك ص206 ـ 207.

[7] - دمشق في عصر المماليك ص205 ـ 219.

اكتظت بتراجم رجال كبار أنجبتهم مصر بكثرة بالغة في تلك القرون الذهبية، ممن لهم مؤلفات كثيرة جداً في شتى العلوم، بحيث يعدون مفاخر الإسلام فضلاً عن مصر، بل مآثرهم المحفوظة في خزائن العالم مما يقضي لمصر بالفخر الخالد، ومؤلفاتهم في الحديث والفقه والتاريخ خارجة عن حد الإحصاء)[1].

حاول البعض سواء كانوا عرباً أم غير عرب تشويه ما تحقق في ذلك العصر، فقد ذكر جاستون فييت بأنه يجب عدم الانخداع بكثرة المدارس، وأن ذلك لا يتعلق بنبوغ المدرسين ولا يوجد اسم واحد عظيم في عصرهم، ولم يتخرج من معاهدها العلمية الكثيرة شخصية أو كاتب موهوب، ويضيف لا يوجد أي عمل أصيل مميز، وكذلك كتب الدكتور محمد صالح داود القزاز، وهو من العراق ويدعي بأن الخسارة العربية الإسلامية بسقوط بغداد لا تعوض، ونعت ضمنياً عصر السلاطين وحكمهم بأنها أفقدت حرية التفكير وقوة الإبداع وعدم الإتيان بشيء جديد، وكان عصر ظلام فكري، ويضيف بأن علماء أوروبا ومفكريها تحسسوا ذلك. إن ما كتبه جييت والقزاز قد أجاب عليهما الدكتور محمد كمال الدين في نهاية كتاب ألفه عن الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة فكتب:(الحركة العلمية في مصر ـ آنذاك ـ لم تفقد كما زعم حرية التفكير، أو القدرة على الإبداع، وإنما كانت حركة مزدهرة أيما ازدهار، كما أن أعلامها مبرزون، تدرس مؤلفاتهم، وتستفاد معارفهم، بكل إجلال وتقدير، والحديث، والفقه، وأصوله، والكلام، والتاريخ والأدب...)[2].

اعتنى السلاطين وأمراؤهم بالمدارس وشجعوا على التعليم[3]، ولعل (ما يفسر قول ابن بطوطة: أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بمصيرها لكثرتها، وما ذهب إليه القلقشندي من أن: من المدارس ما ملأ الأخطاط وشجعها)[4]. ففي دمشق ذكر

---

[1] - مقالات الكوثري ص166.

[2] - الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص101 ـ 102.

[3] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص26 دمشق في عصر المماليك ص63 ـ 69 مصر والشراكسة ص132.

[4] - الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص50.

بأن فيها لوحدها ستاً وثلاثين مدرسة منها مدرستان طبيتان مرتبطتان بالمشفى[1]، وكان في دمشق زوايا هي أمكنة لطلاب العلم لا يكلف المقيمين فيها بأي شيء بل يقدم لهم رزقهم رغداً، لينصرفوا فقط لتحصيل العلم، فقد ذكر بأن الزوايا في مدينة دمشق وحدها ذلك العصر ثمان وسبعون زاوية للرجال واثنتان للنساء[2]، ويذكر نقلاً عن المدارس للنعيمي وذيل المقاصد لأسعد طلس أنه كان في نيابة دمشق وحدها زهاء مئتين وأربعين مدرسة وزاوية وخانقاه[3].

فيما يلي بعض أسماء المدارس التي بنيت في زمن السلاطين:

1 ـ بيبرس وابنه:

بنى السلطان بيبرس المدرسة الظاهرية (القديمة) تجاه البيمارستان المنصوري بين القصرين في القاهرة وهي أول مدرسة ذات مسقط ذي أربعة أيوانات متعامدة، أضاف للمدرسة ضريح المنشيء وسبيل وكتاب[4]، وأعاد التدريس في الجامع الأزهر في القاهرة بعد أن أغلق الجامع صلاح الدين الأيوبي[5]، وبنى المدرسة الظاهرية في دمشق شرقي المدرسة العادلية الكبرى في شمال باب البريد داخل باب الفرج والفراديس وقبلي الاقبسايتين والجاروخية، وهي مشغولة بالمكتبة الوطنية الظاهرية[6].

---

[1] - دمشق في عصر المماليك ص119.

[2] - دمشق في عصر المماليك ص126 ـ 127.

[3] - تاريخ البصروي ص17.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص35 الحياة الأدبية في مصر للعصر المملوكي والعثماني ص26 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص84 الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص30 ـ 46 ـ 51 ـ 52 الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص90 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ص180 العصر المماليكي في مصر والشام ص340 نظم العقيان في أعيان الأعيان ص46 ـ 154 ـ 168 ـ 169 المطبخ السلطاني ص70 تاريخ الملك الظاهر ص344 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص121 ـ 213 مصر والشام في عصر دولة الأيوبيين والمماليك ص298.

[5] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص29 ـ 31.

[6] - آثارنا في الإقليم السوري ص51 دمشق في عصر المماليك ص95 مدن الشام في العصر المملوكي ص45 ـ 46 كتاب خطط الشام ج6 ص83 الدارس في تاريخ المدارس ص349.

بنى زمن بيبرس في دمشق الأمير آقوش النجمي مدرسة عرفت بالمدرسة النجمية كانت لصق المدرسة النورية في سوق الخياطين من جهة الشمال[1]، وبنى نجم الدين عباس التميمي المدرسة الجوهرية شرقي تربة أم الصالح في حارة بلاطة والمعروف بزقاق المحكمة[2]، كما بنيت المدرسة المعظمية من قبل عيسى مقابل شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية[3].

بنيت دار القرآن السلامية تجاه دار الحديث في القدس من قبل سراج الدين عمر السلامي[4].

شرع السلطان السعيد في بناء الدار التي كانت بدار العقيقي تجاه العادلية وهي مجاورة لحمام العقيقي لتعمل مدرسة وتربة الملك الظاهر، وأسست المدرسة فعلياً في زمن السعيد، كما فتحت مدرسة الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني في حارة الوزير في القاهرة[5]، كما فتحت المدرسة النجيبية وحضر تدريسها ابن خلكان[6].

2 ـ قلاوون وأولاده:

بنى المنصور قلاوون مدرسته المعروفة بمدرسة قلاوون، وتعرف بالمنصورية أيضاً، وتقع في النحاسين بين القصرين في القاهرة وهي بجوار مشهد السيدة نفيسة ودفن في مدرسته، وتتكون المدرسة من صحن مكشوف وكان يدرس فيها الطب والعلوم الإسلامية وغيرها، وكانت تحوي مكتبة[7].

---

[1] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص62.

[2] - خطط الشام ج6 ص91.

[3] - خطط الشام ج6 ص123.

[4] - خطط الشام ج6 ص124 ـ 342.

[5] - البداية والنهاية ج13 ص277 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص263.

[6] - البداية والنهاية ج13 ص280.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص34 ـ 203 ـ 288 الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص27 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص89 تحفة الناظري فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين 1 ص196 ـ 199 البداية والنهاية ج13 ص217 العصر المماليكي في مصر والشام ص342 ـ 380 مصر دولة المماليك البحرية ص98 خليل بن قلاوون ص8 ـ 83 الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص53 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص325 مصر والشام في عصر دولة الأيوبيين والمماليك ص298.

بنيت زمن السلطان قلاوون مدرسة دار الحديث بجوار تربة الجالقية من جهة الغرب في القدس نسبة لركن الدين الكبير العجمي المعروف بالجالق، وكان من جملة الأمراء في الشام، ووقف المدرسة الأمير شرف الدين عيسى الهكاري[1]، كما بنيت مدرسة باسم، رباط خليل الرحمن أنشأه قلاوون[2].

بنى الأشرف خليل بن قلاوون مدرسته (الأشرفية) بالقرب من المشهد الحسيني[3].

أكمل الناصر محمد قلاوون المدرسة المعروفة باسمه (الناصرية) وحوت مكتبة أيضاً[4]، كما بنت خوند ابنة الناصر محمد بن قلاوون، وزوج بكتمر الحجازي مدرسة، وهي المعروفة بالحجازية[5].

زمن السلطان محمد بنى الأمير علاء الدين طيبرس المدرسة الطيبرسية، وتقع يمين الداخل إلى جامع الأزهر في القاهرة[6]، كما أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد المدرسة الأقباغاوية، وتقع على يسار الداخل إلى جامع الأزهر، وباقٍ منها مدخلها وواجه القبلة، وجددت فيما بعد من قبل الأمير سعد الدين بشير الجمدار الناصري، كما أنشأ الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري مدرسته المعروفة بمدرسة قراسنقر وتقع في شارع الجمالية في القاهرة[7]، وأصبحت فيما بعد المدرسة الجمالية الابتدائية، كما بنى الأمير علاء الدين مغلطاي مدرسة في القاهرة بدرب ملوخيا من رحبة العيد، وهي بجوار درب راشد على باب الزقاق المعروف قديماً بدرب

---

[1] - خطط الشام ج6 ص134.

[2] - خطط الشام ج6 ص129.

[3] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص81.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص206 ـ 289 الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص20 العصر المماليكي في مصر والشام ص340 ـ 342 ـ 346 مصر دولة المماليك البحرية ص114 صور ومظالم من عصر المماليك ص77 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص208.

[5] - الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص47.

[6] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج8 ص199.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص173 ـ 260 ـ 289حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص178 ولاة دمشق في عهد المماليك ص151.

سيف الدولة نادر، وعرفت المدرسة بمدرسة مغلطاي الجمالي أو باسم المدرسة الجمالية، وهي غير السابقة بالطبع[1]، كما بنى الأمير جمال الدين مدرسة تحوي خزانة كتب نفيسة بالإضافة إلى المصاحف الثمينة[2]، وبنى الأمير سودون بن عبد الرحمن مدرسة في ساحة خانقاه سرياقوس[3] وبنى الحاج آل الجوكندر المدرسة المالكية بخط المشهد الحسيني، وتقع في شارع الغلام من جامع سيدنا الحسين في القاهرة[4].

بنى نائب الشام تنكز مدرسة عرفت بدار القرآن الحديث التنكيزية، وتقع شرقي حمام نور الدين الشهيد بسوق البزورية وتجاه دار الذهب في دمشق[5]، ثم أصبحت فيما بعد مدرسة للصبيان سميت الهاشمية، وكان معمارها إيدمر[6]، كما بنى المدرسة الحمصية تجاه الشامية البرانية في دمشق ولكنها اندثرت وأصبحت دوراً[7]، كما فتحت دار قرآن ودار حديث عرفت بالصبابية أنشأها شمس الدين بن تقي الدين بن ابن الصباب[8]، كما تم إكمال دار الحديث السكرية وهي دار الذهب في دمشق[9]، كما بنيت المدرسة الأسعرية بناها الخواجا إبراهيم الأسعري

---

[1] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص98.

[2] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص37.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص81.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج10 ص88.

[5] - تاريخ البصروي ص90 الدارس في تاريخ المدارس ج1 ص123 البداية والنهاية ج14 ص187 ولاة دمشق في عهد المماليك ص168 ـ 172 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص172.

[6] - خطط الشام ج6 ص79.

[7] - خطط الشام ج6 ص78.

[8] - (مكرر) البداية والنهاية ج14 ص181 الدارس في تاريخ المدارس ص128.

[9] - البداية والنهاية ج14 ص184.

والتي فرغ من عمارتها وتقع في الجسر الأبيض[1]، كما فتحت المدرسة الجوهرية في حياة منشئها الشيخ نجم الدين أبي المكارم التميمي الجوهري ودرس بها[2].

بنى تنكز في القدس مدرسة له فيها[3]، وقد كانت مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها، وهي بجانب السلسة مجاورة للسور من جهة الغرب وتحولت إلى محكمة شرعية فيما بعد[4]، وكذلك فتح تنكز دار حديث في القدس غير المدرسة المذكورة سابقاً[5]، كما بنيت المدرسة الوجهية قبلي المدرسة العصرونية المسرورية غربي الصمصامية التي تقع شمال الخاتونية أنشأها وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا، وهي درست، وأصبحت مخازن ودوراً[6]، وكذلك بنيت في زمن السلطان محمد بن قلاوون المدرسة المالكية شمال الحرم في القدس عمرها الحاج ملك الجو كنعمار، وكذلك بنيت المدرسة الأمينية بباب الأنبياء المعروف بباب الدريدارية بجوار المسجد الأقصى بناها الصاحب أمين الدين عبد الله[7]، وكذلك بنيت المدرسة الكريمية بباب حطة جوار القدس لصاحبها كريم الدين بن المعلم بن مكانس ناظر الخواص الشريفة[8].

بنيت المدرسة الزريقية في محلة السويقة داخل طرابلس أمر بإنشاء المدرسة سيف الدين كرناي السيفي[9]، وبنيت المدرسة السقراطية وتقع في طرف المدينة للجهة

---

[1] - الدارس في تاريخ المدارس ص150.

[2] - البداية والنهاية ج14 ص148 خطط الشام ج6 ص72 ـ 75 ،ـ 119 ولاة دمشق في عهد المماليك ص167.

[3] - البداية والنهاية ج13 ص296.

[4] - خطط الشام ج6 ص119.

[5] - البداية والنهاية ج14 ص187.

[6] - خطط الشام ج6 ص72.

[7] - خطط الشام ج6 ص121.

[8] - خطط الشام ج6 ص122.

[9] - خطط الشام ج6 ص128 ـ 129.

الغربية على الطريق الآخذة إلى جبانة باب الرمل في طرابلس بناها قطرق الحاجب مسجداً لله تعالى وتربة للدفن[1].

بنيت مدرسة حصن الأكراد أنشأها والي حصن الأكراد يكفر بن عبد الله الحر زاوية ومدرسة وبيمارستاناً فيها[2]، كما بنى الأمير علم الدين سنجر الجاولي مدرسة للشافعية في الكرك[3]، وفي زمن السلطان محمد أيضاً تم إنشاء المدرسة الجديدة في حلب[4]، وتم إنشاء المدرسة الناصرية في حلب وعمل لها منارة وهي عرفت بجامع الحيات لرسوم حيات من الحجر في قنطرة بابها[5].

3 ـ أحفاد قلاوون:

رسم الصالح إسماعيل للأمير علي الدين سنجر الجاولي مدرسة للشافعية بغزة[6]، وفي زمن الصالح إسماعيل بنى التاجر العجمي شمس الدين أفريدون مدرسة (الأفريدونية) في دمشق في أول طريق الميدان[7]، كما عملت منارة خارج باب الفرج وفتحت مدرسة وعملت مطاهر عامة ومصلى للناس من قبل الأمير سيف الدين الخليلي[8].

---

[1] - خطط الشام ج6 ص129.

[2] - خطط الشام ج6 ص129.

[3] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص248 مدن الشام في العصر المملوكي ص126.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص47.

[5] - خطط الشام ج6 ص114.

[6] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص229 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص504 530.

[7] - البداية والنهاية ج14 ص213.

[8] - البداية والنهاية ج14 ص47.

بنى السلطان شعبان مدرسة[1]، وتم بناء مدرسة أم السلطان شعبان في القاهرة[2]، كما بنى السلطان المدرسة المعزية في القاهرة[3].

بنى السلطان حسن مدرسته في الرميلة وهي من أهم الأمثلة على طراز المدرسة المتكاملة وتقع في ميدان محمد علي ويعرف بميدان صلاح الدين تجاه باب الغرب من قلعة صلاح الدين تجاه الجبل عند سوق الخيل وهي بناء ضخم حسن الشكل جمع فيها شتى الفنون[4]، وبنى في زمن السلطان حسن مدرسة صرغتمش في شارع الصليبية على يمين المتجه إلى القلعة في القاهرة[5]، وبنيت المدرسة القارسية في القاهرة أنشأها قارس الدين البكي[6]، كما تم بناء المدرسة الأرغونية في باب الحديد جوار الحرم أوقفها أرغون الكاملي نائب الشام في القدس[7]، كما بنيت المدرسة (المحدثية) بالقرب من الوجيهية عند باب الفواغة بجوار الحرم في القدس، وعمرها عز الدين محمد بن العزيز العجمي، واستعملت فيما بعد لقسم كلية

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص260 ـ 261 الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص47.

[2] - البداية والنهاية ج14 ص272.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص35 ـ 122 ـ 123 ـ 289 الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص20 ـ 27 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص101 الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص47 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج2 ص16 صور ومظالم من عصر المماليك ص77 الدولة المملوكية التاريخ السياسي الاقتصادي والعسكري ص290 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص123 ج10 ص 306 ـ 325 الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ص208.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص289 نظم العقيان في أعيان الأعيان ص29 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص271.

[5] - آثارنا في الإقليم السوري ص52.

[6] - خطط الشام ج6 ص120.

[7] - خطط الشام ج6 ص123.

المعارف الوطنية[1]، وبنيت المدرسة القشتمرية في باب الناظر بالقرب من الحسينية في القدس بناها الأمير قشتمر السيفي حسن بن قلاوون[2].

بنيت المدرس الجقمقية وهي شمال الجامع الأموي في دمشق وأسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فانتزعها الناصر حسن، وأمر بعمارتها فبنيت بالحجر الأبلق وجاءت في غاية الحسن واحترقت في فتنة تيمور فجددها سيف الدين جقمق[3]، كما بنيت المدرسة النورية الصغرى، وهي مدرسة القلعة[4]، وبنى الأمير منجك اليوسفي مدرسة للحنفية كانت في المنيبع (حول الجامعة السورية البناء القديم) في دمشق[5].

تم اكتمال بناء المدرسة المنجيكية في باب الناظر جوار الحرم في القدس من قبل الأمير منجك نائب الشام، وكان الانتهاء في زمن السلطان صلاح الدين حاج[6].

بنى الأشرف شعبان مدرسته التي كانت تعرف بالأشرفية في القاهرة والتي هدمت زمن السلطان فرج بن برقوق، ثم بنى مكانها بيمارستان المؤيدي ووصفت المدرسة الأشرفية بأنها عظيمة وكنت في الصوة تجاه الطبلخانات تحت القلعة، وكان بانيها إينبك[7]، كما بنى مدرسة تعرف بمدرسة أم السلطان وهي خوند بركة موقعها في التبانة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل في شارع الوزير في

---

[1] - خطط الشام ج6 ص123.

[2] - خطط الشام ج6 ص91.

[3] - خطط الشام ج6 ص97.

[4] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص215.

[5] - خطط الشام ج6 ص120.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص140 تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص172 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص108 ـ 109 أنباء الغمر بأنباء العمر ص144 الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ص238 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج11 ص67 ـ 155.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص289 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص108 ـ 109 أنباء الغمر بأنباء العمر ص44 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج11 ص59.

القاهرة[1]، والمذكورة كانت زوجاً لألجاي اليوسفي، والأخير بنى مدرسة تعرف باسمه وفتحت المدرسة بعد موته[2]، وبنيت المدرسة (الحنبلية) في باب الحديد في القدس من قبل الأمير بيدمر نائب الشام[3].

وقف ناصر الدين براق مدرسته (لمدرسة البراقية) في دمشق[4]، كما أكملت مدرسة زين الدين الأسعردي في دمشق، وكانت في الجسر الأبيض[5]، وفتحت دار القرآن التي وقفها الشريف التعاداني إلى جانب حمام الكاس شمالي المدرسة البادرائية في دمشق[6]، وبنيت في عهد الأشرف شعبان أيضاً المدرسة المنجكية بجوار خانقاه الصوفية الدقماقية في دمشق في المدارس في الخلخال، وكان الخلخال حديقة غربي المدينة أصبحت فيما بعد الثكنة الحميدية[7]، وكذلك بنيت المدرسة القرموطية في حلب التي أنشئت من قبل عبد القادر بن قرموط وجددها عبد الرحمن قرموط[8]، كما بنيت المدرسة الأسعردية جوار الحرم إلى الشمال في القدس من قبل الخواجة محي الدين عبد الغني الأسعردي[9]، وبنيت المدرسة (اللؤلؤية) بخط مرزبان بجوار حمام علاء الدين البصير من جهة الشمال وبباب العامود في القدس من قبل الأمير لؤلؤ غازي[10]، وبنيت المدرسة الخاتونية الواقعة أمام المدرسة السقراطية في طرابلس بنتها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها عز الدين إيدمر الأشرفي والي

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص38 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص108 ـ 109 أنباء الغمر بأنباء العمر ص64.

[2] - خطط الشام ج6 ص124.

[3] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص118.

[4] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص12.

[5] - البداية والنهاية ج14 ص315.

[6] - خطط الشام ج6 ص97.

[7] - خطط الشام ج6 ص117.

[8] - خطط الشام ج6 ص121.

[9] - خطط الشام ج6 ص124.

[10] - خطط الشام ج6 ص129.

طرابلس[1]، وبنيت المدرسة (البارودية) في باب الناظر بالقرب من التشخرية من قبل الحاجة سفري خاتون بنت شرف الدين المعروف والدها البارودي[2].

بني زمن السلطان علاء الدين بن شعبان المدرسة الخاتونية في باب الحديد جوار الحرم في القدس وأوقفها اغل خاتون ثم أكملت عمارتها ووقفت عليها اصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه[3].

بني زمن السلطان صلاح الدين حاجي المدرسة الظاهرية بين القصرين[4].

4 ـ برقوق وولده فرج:

بنى السلطان برقوق مدرسته وهي ملاصقة لمدرس الناصر محمد من الجهة الشمالية، وكان القائم على بنائها شاد العمائر جركس الخليلي وتسمى مدرسة السلطان برقوق وتعرف بالمدرسة الظاهرية الجديدة وتسمى أيضاً المدرسة البرقوقية وتقع بين القصرين مقابل قصر بشتاك في شارع المعز لدين الله في القاهرة[5].

بنيت مدرسة في زمن السلطان برقوق من قبل الأمير أيتمش بالقرب من القلعة [6]، وكذلك فتح المدرسة الجمالية أو المحمودية من قبل الأمير جمال الدين محمود، وكذلك فتحت المدرسة الجمالية أو المحمودية من قبل الأمير جمال الدين محمود،

---

[1] - خطط الشام ج6 ص123 ـ 124.

[2] - خطط الشام ج6 ص120.

[3] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص267.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص39 ـ 99 ـ 209 ـ 212 الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص206 تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص126 أنباء الغمر بأنباء العمر ص346 ـ 377 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص118 الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ج2 ص264 نور المقابس في تواريخ الجراكس ص13 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص318 الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص47 العصر المماليكي في مصر والشام ص343 قيام دولة المماليك الثانية ص107 نظم العقيان في أعيان الأعيان ص29 ـ 54 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص آ ـ هـ من المقدمة ـ ص270 المطبخ السلطاني ص70 ـ مصر والشراكسة ص57 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج11 ص239 ـ 240 ج12 ص116.

[5] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص325.

[6] - العصر المماليكي في مصر والشام ص14.

وهو أحد أمراء السلطان فرج بن برقوق[1]، وبنى الأمير الأستادار بهادر المنجكي مدرسة له وهي التي دفن فيها[2]، وبنيت المدرسة الطولونية داخل المسجد على الرواق الشمالي وكان يصعد إليها من السلم الموصل منه إلى منارة باب الأسباط في القدس أنشأها شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد الطولوني على يد أقبغا[3]، وكذلك بنيت المدرسة الفترية مقابل الطولونية من جهة الشرق يصعد إليها من السلم المتصل منها إلى منارة الأسباط أيضاً، وهي من إنشاء شهاب الدين الطولوني وجعلها للسلطان برقوق، فلما توفى آل الأمر لوالدة السلطان فرج[4]، وبنيت المدرسة الجهاركسية بجوار اليونسية من جهة الشمال في القدس وقفها الأمير جركس الخليلي أمير الملك الظاهر برقوق[5]، وبنيت مدرسة تغري برمش في باب الحديد على الطريق الآخذة إلى المولوية المشهورة عن أهل طرابلس في طرابلس[6].

بنى السلطان فرج مدرسة تجاه باب زويلة[7]، وبني في زمن السلطان فرج بن برقوق مدرسة أنشأها الأمير جمال الدين يوسف البيري وتسمى مدرسة جمال الدين الأستدار أو المدرسة الجمالية وتسمى المحمودية أيضاً وتقع في التجكثية في شارع الجمالية برحبة العيد في القاهرة، وتعرف الآن بزاوية الجمالي أو الجامع المعلق، وموقفها بين حارة القرافة وقصر التوبة، والمدرسة كانت تحوي مكتبة فيها العديد من الكتب[8]، كما بنيت المدرسة الفارسية في دمشق أنشأها سيف الدين الدوادار

---

[1] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص319.

[2] - خطط الشام ج6 ص122.

[3] - خطط الشام ج6 ص122.

[4] - خطط الشام ج6 ص134.

[5] - خطط الشام ج6 ص128.

[6] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص319.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص239 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص153 ـ 154 تاريخ البصروي ص83 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص319 مصر والشراكسة ص107.

[8] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص229 تاريخ البصروي ص193 الدارس في تاريخ المدارس ج6 ص626 خطط الشام ج6 ص87.

التنمي (التميمي) وتقع قبلي الجامع الأموي بحوالي مائة وخمسين متراً غربي المدرسة الجوزية تجاه الخارج من باب الزيارة في أسفل سوق البزورية إلى اليسار، وقد بني مكانها مصلى محدث وفيه قبران لا يعلم لمن ولا يزال اسم الجامع الفارسية[1]، كما بنيت المدرسة الحلبية بخط السبعة وهي محلة السبع أنابيب شمالي باب توما في دمشق[2]، ووقفت المدرسة المعروفة الطرنطائية الأمير سيف الدين نائب دمشق[3].

في زمن السلطان فرج تم بناء المدرسة الكاملية في القدس من قبل الحاج الكامل من أهالي طرابلس[4].

5 ـ الشيخ المؤيدي:

بنى المؤيد شيخ مدرسته (المؤيدية) بالقرب من بوابة المتولي كانت تسمى سابقاً باب زويلة في القاهرة، وتعرف حالياً بالجامع المؤيدي[5].

بنيت زمن السلطان قايتباي المحمدي مدرسته التي تقع في شارع الصليبة على بعد حوالي ستين متراً من خانقاه الأمير شيخو العمري الناصري، أنشأ المدرسة الأمير قايتباي المحمدي[6].

بنى السلطان المؤيد مدرسته التي سميت المؤيدية، كما أنشأ سوقاً نسب إليه وذلك في دمشق[7] كما بنيت مدرسة من قبل فاطمة بنة قايتباي العمري[8]، وبنيت المدرسة الجقمقية من قبل نائب دمشق جقمق الداودار وتقع المدرسة مقابل باب

---

[1] - الدارس في تاريخ المدارس ص232.

[2] - خطط الشام ج6 ص115.

[3] - خطط الشام ج6 ص123.

[4] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص20 ـ 27 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص127 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين 2 ص33 العصر المماليكي في مصر والشام ص343 نظم العقيان في أعيان الأعيان ص29 ـ 46 ـ 139 ـ 172 ـ 178 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص هـ من المقدمة ـ ص49 ـ 272.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص117.

[6] - خطط الشام ج6 ص101.

[7] - الحركة العلمية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص47.

[8] - تاريخ البصروي ص168 ـ 181 الدارس في تاريخ المدارس ج1 ص489.

لسلسلة من الجامع الأموي في دمشق، ويعرف بباب الناطغانيين وتحولت فيما بعد إلى متحف للخط العربي[1]، كما بنيت المدرسة الفخرية بين السوريين في دمشق[2].

6 ـ الظاهر ططر:

كان الأمير جوهر اللالا الذي كان في خدمة الأشرف برسباي قبل ولايته قد أنشأ مدرسة سميت مدرسة جوهر اللالا وتقع على ربوة عالية شمال مسجد الرفاعي في ميدان صلاح الدين في القاهرة[3].

7 ـ الأشرف برسباي:

بنى السلطان مدرسة رأس الوراقين في العنبرانيين بين القصرين، وهذه المدرسة ما تزال باقية وتقع في شارع المعز لدين الله الفاطمي عند تقاطعه في شارع السكة الجديدة وهي المعروفة بالشرفية[4]، كما بنى برسباي مدرسة في سرياقوس تباهى في زخرفتها، وبنى مدرسته الثالثة في الصحراء في القاهرة وهي التي دفن فيها[5]، كما بنيت المدرسة الشركسية خارج باب النصر في القاهرة[6].

بنيت في زمن السلطان برسباي المدرسة العبد الرحمانية التي عمرها الأمير سودون بن عبد الرحمن[7]، وتم بناء مدرسة العثمانية في باب المتوضاء بجوار الحرم في القدس وأوقفها امرأة اسمها أصفهان شاه خاتون تدعى خانم[8]، وكذلك بنيت

---

[1] - خطط الشام ج6 ص87.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص132.

[3] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص131 نور المقابس في تواريخ الجراكس ص12 في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص321 الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص47 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص385 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين2 ص35 مصر والشراكسة ص71.

[4] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص321 ـ 322 العصر المماليكي في مصر والشام ص340 مصر والشراكسة ص71.

[5] - تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج2 ص36.

[6] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج1 ص 186.

[7] - خطط الشام ج6 ص120.

[8] - خطط الشام ج6 ص122.

المدرسة الباسطية في باب شرق الأنبياء في القدس بناها زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش المنصور عزيز المملكة[1]، وبنيت كذلك المدرسة الحسنية في باب الناظر على رباط علاء الدين البصيري من قبل الأمير الكشكيلي (الشكيلي) ناظر الحرم الشريف في القدس ونائب السلطنة في القدس ونائب السلطنة في القدس[2]، كما تم بناء دار القرآن الكريم الجذرية قيل بأنها كانت بدرب الجمر في دمشق من قبل شمس الدين الجزري[3].

8 ـ الظاهر جقمق:

بنى السلطان أبو سعيد جقمق المدرسة الفخرية في القاهرة وهي اندثرت[4]، كما بنى السلطان المدرسة الجقمقية في دمشق وهي تقع إلى الشمال من الجامع الأموي قريبة من مدفن صلاح الدين[5]، كما بنت خوند مغل وزج الظاهر جقمق مدرسة[6].

تم في عصر الظاهر جقمق بناء المدرسة الجوهرية وشيدها جوهر القبقبائي، وتقع في الطرف الشرقي الشمالي من باب السر للجامع الأزهر في القاهرة[7] وبنى الدوادار الكبير ابن تغري بردى بن عبد الله البكلمشي مدرسته التي في الشارع بالقرب من صليبة جامع ابن طولون في القاهرة[8]، وكذلك أنشأ مدرسة أخرى بدرب المقاصيص بحي الصاغة[9]، وبنى الأمير فيروز الجاركسي الساقي مدرسته التي

---

[1] - خطط الشام ج6 ص123.

[2] - الدارس في تاريخ المدارس ص8.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج6 ص 281.

[4] - آثارنا في الإقليم السوري ص52.

[5] - الحركة العلمية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص47.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص273.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص106 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص86.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص106.

[9] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص113 ـ 114.

أنشأها بالقرب من داره عند سوق القرب[1]، كما بنى الأمير وصفي الدين بن جوهر المنجكي مدرسته في رأس سويقة منعم تجاه مصلاه المؤمني في عمارة الفقيري[2]، وشرع الرئيس سعد الدين إبراهيم بن الجيعان في عمارة مدرسته على النيل في ساحل بورق بين الحجازية والبرانجية[3]، كما بنيت دار القرآن الدلامية من قبل أبو العباس أحمد بن زين الدين دلامة، وتقع في حارة المقدمية (جادة ابن المقدم) بالقرب من المارداني أخذة إلى ساحة الجسر الأبيض ويعرف بجسر الصالحية على نهر ثورى على طريف الجركسية إلى حي المدارس (سوق الجمعة) في دمشق، وتحولت إلى مسجد بعد توسيعها وتجديدها، ودفن فيها منشئها وسمي باسمها[4]، كما بنيت المدرسة الشاذبكية وذكرت في بعض الكتب باس شاذ بك، وعرفت بالشابكية، وتقع في منطقة الشابكية وأوصلها أيضاً الشاذبكية في حي القنوات قرب الطرف الشرقي لشارع فخري البارودي أنشأ المدرسة الأمير سيف الدين شاذي بك دودار نائب الشام جلبان المؤيدي[5].

9 ـ الأشرف إينال:

بنى السلطان اينال مدرسة له في الصحراء في القاهرة[6]، وخلع السلطان على الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الجيش الخاص باستقراره في نظر عمارتها[7].

بنى وجدد شهاب الدين الصابوني مدرسته المعروفة بدار القرآن الصابونية، وتقع قبلي باب الجابية غربي مزار أويس القرني في دمشق[8]، كما بنيت المدرسة

---

[1] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص113 ـ 163.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص 383.

[3] - تاريخ البصروي ص214 الدارس في تاريخ المدارس ج1 ص9 خطط الشام ج6 ص71 مآذن دمشق تاريخ وطراز ص195.

[4] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص525.

[5] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص13 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص322.

[6] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص 546 ـ 587 ـ 588 ـ 604.

[7] - تاريخ البصروي ص34 الدارس في تاريخ المدارس ج1 ص13 ـ 14.

[8] - خطط الشام ج6 ص91 ـ 92.

الحاجبية الخانقاه بها قبلي المدرسة العمرية في الصالحية على مقربة من مرقد الشيخ عبد الغني النابلسي وهي من إنشاء الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك الإينالي أمام جامع الجراكسة[1]، وكان الفراغ من مدرسة الأمير برد بك الدوادار التي أنشأها في قناطر السباع[2]، وكذلك كان الفراغ من مدرسة الأمير برد بك الثانية بخط السباع خارج القاهرة[3].

10 ـ الأشرف قايتباي:

بنى السلطان مدرسته في صحراء المماليك وتقع جنوبي تربة الأشرف برسباي بقرافة المماليك، وتحوي مئذنة ذات جمال ودقة بالتفاصيل العمرانية، كما تحوي قبة أيضاً والمدرسة من ضمن منشآت قايتباي في المنطقة فهي تحوي بالإضافة إلى المدرسة سبيلاً وكتاباً[4]، وأنشأ المدرسة الخانكاه[5].

أنشأ السلطان أيضاً مدرس في المدينة المنورة مطلة على الحرم النبوي على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، وبنى مدرسة في مكة المشرفة عند باب السلام، وأنشأ مدرسة في بيت المقدس، وأنشأ داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسة وكانت قبتها ثالث القباب المهمة في القدس الأولى فيه الصخرة، والثانية قبة الأقصى، وكانت المدرسة طبقتين سفلية وعلوية[6]، كما أنشأ مدرسة في دمشق، ومدرسة في غزة ومدرسة بثغر دمياط ومدرسة بثغر الإسكندرية[7].

---

[1] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص 492.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص 505.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص34 ـ 41 ـ 275 ـ 276 في عصر دولة المماليك الجراكسة ص322 الحركة العلمية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص47. العصر المماليكي في مصر والشام ص343 نظم العقيان في أعيان الأعيان ص93 ـ 153.

[4] - القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص125.

[5] - خطط الشام ج6 ص119 مصر والشراكسة ص85.

[6] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص206 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص322 القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص125 مصر والشراكسة ص85.

[7] - مصر والشراكسة ص134.

جدد في عهد قايتباي الأمير أزبك ططخ الجركسي مدرسة المنصورة في القاهرة، وضرب الفسقية التي لها قبة ومنبراً[1]، كما تم بناء مدرسة محمد بن يرد بك في شارع أم الغلام[2]، وتم بناء مدرسة قجماس الإسحاقي الشركسي وتقع في شارع الدرب الأحمر في القاهرة وقجماس تولى عدة مناصب أخرى نائباً للشام[3]، وبنيت في دمشق المدرسة القجماسية داخل باب النصر وباب السعادة، وكانت موجودة في سوق الحميدية حتى عام 1942م، وأزيلت عام 1943م لتوسيع الطريق[4]، وبنى القاضي قطب الدين الخيضري الشافعي مدرسة في الحي الذي لا يزال يحمل اسمه إلى اليوم مع بعض التحريف إذ تسمى الخيضرية، وتقع في داخل باب الجابية على يسار الطريق المنحدر إلى الجنوب شرقي سوق القطن في دمشق وهي الآن مسجد صغير لطيف[5]، كما بنيت المدرسة القادرية في دمشق وهي مدرسة محمد بن يوسف القادري، وقد أصبحت دوراً صغيرة وحواصل للخشب فيما بعد[6]. وبنيت المدرسة المزهرية في باب الحديد جوار الحرم في القدس من قبل أبو بكر بن مزهر صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية وبعضها راكب على ظهر الأرغونية، وكذلك بنيت المدرسة الجوهرية في باب الحديد جوار الحرم الشريف في القدس وقفها الصفوي جوهر زمام الأدر الشريفة[7]، وبنيت المدرسة الدلغادرية في باب حطة جوار الحرم في

---

[1] - مصر والشراكسة ص107.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص255 ـ 290 نور المقابس في تواريخ الجراكسة ص13 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص322.

[3] - تاريخ البصروي ص173 الدارس في تاريخ المدارس ج6 ص564 ـ 565 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص322.

[4] - تاريخ البصروي ص25 ـ 62 خطط الشام ج6 ص70 ـ 71.الدارس في تاريخ المدارس ج7.

[5] - خطط الشام ج6 ص101.

[6] - خطط الشام ج6 ص120.

[7] - خطط الشام ج6 ص122.

القدس بناها الأمير ناصر الدين بن محمد بـن دلغـادر بعـد أن عمرتهـا زوجتـه مصر خاتون[1].

11 ـ الأشرف جانبلاط:

قام السـلطان نصـف عـام وخلـع إلا أنـه بنـى المدرسـة الجنبلاطيـة خـارج بـاب النصر وكان فيها قبتان ليس لهما نظير في مصر وقد هدمت من قبـل الفرنسـيين عـام 1214هـ.

12 ـ العادل طومان باي:

بنى السلطان العادل مدرسته العادليـة خـارج بـاب الـقصر، ودفـن في مدرسـته، وخربت المدرسة من قبل الفرنسيين فيما بعد.

13 ـ قانصوة الغوري:

بنى السلطان الأشرف قانصوة الغـوري مدرسـة حافلـة وسـميت باسـمه أنشـأها تجاه جامعه الذي في الشرابيين في شارع الغـوري المسـمى حالياً بشـارع المعـز لـدين اللـه في القاهرة[2]، كما أنشأ السلطان الغوري مدرسة في مكة[3].

بنى في عهد قانصوه مدرسة خـاير بـك في حـي الـوزير[4]. وبنيـت مدرسـة الأمـير قـرقماس وتقـع في قرافـة المماليـك بجـوار خانقـاه الأشرف برسـباي[5]، وبنـى الأمـير

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص183 ـ 290 الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص182 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص155 ـ 156 نور المقـابس في تواريخ الجراكسة ص13 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسـة ص318 ـ 322 الحركـة العلميـة في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص47طومان بـاي ص127 العصر المماليكي في مصر والشـام ص190 ـ 343 محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص11 مصر والشراكسـة ص108 دمشـق بـين عصر المماليـك والعثمانيين ص67 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص270.

[2] - العصر المماليكي في مصر والشام ص340.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص183.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص278.

[5] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص66.

سيباي مدرسته في باب الجابية في دمشق[1]، وبنيت مدرسة قايتباي الرماح أمير أخور في شارع الناصرية في القاهرة[2]، وبنيت مدرسة قايتباي أمير أخور في ميدان صلاح الدين بأول درب اللبان[3]، وبنيت المدرسة السيبائية من قبل الأمير سيباي بن بختجا آخر أمراء دمشق في عصر السلاطين وتقع في باب الجابية في دمشق شمالي بئر الصارم، ويسميها الناس السباهية وتقع في سوق الدرويشية قرب ساحة باب الجابية، وفي المدرسة قبر أم سيباي وابنته، أما هو فاستشهد في معركة مرج دابق التي بعدها دخل العثمانيون بلاد الشام[4]، كما أنشأ سيباي عبد الله الجركسي في دمشق المدرسة السيبائية[5]، كما بنيت مدرسة الصروي وهي ملحقة بجامع الصروي في محلة البياضة في حلب.

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص290 مصر والشراكسة ص108.

[2] - مصر والشراكسة ص108.

[3] - الدارس في تاريخ المدارس ج ص456 تاريخ البصروي ص14 ـ 192 مآذن دمشق تاريخ وطراز ص149.

[4] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص184.

[5] - خطط الشام ج6 ص118.

اعتنى السلاطين بالمساجد وتفننوا في بنائها واشتهرت مآذنها التي كانت لها أشكال مختلفة ما زالت مآذن اليوم تقتبس منها. ويصف سينور وانجلوا كيف كانت تزدحم المساجد ، والتي بلغت في القاهرة وحدها اثني عشر ألف مسجد ويذكر (أن المساجد التي شيدها السلطان الناصر محمد وأمراؤه بلغت في مصر ثمانية وعشرين مسجداً)[1] ، ويذكر كيف كانت المصابيح تضاء ليلاً فتعطي النفس انطباعاً قوياً، كما وصفت المآذن في عصر السلاطين بأشكالها المختلفة وزخارفها وكيف كانت المشكاوات الزجاجية المذهبة بالميناء وتلوين الجص المنقوش وتغطيته بزجاج رقيق لتغشية النوافذ التي يطلق عليها القمريات والشمسيات[2].

بلغ عدد المساجد لمدينة دمشق في عصر السلاطين واحداً وسبعين مسجداً[3]، أما في نيابة دمشق كلها فبلغت الجوامع فيها أكثر من تسعمائة مسجداً، وتنتشر في كل أنحاء النيابة من حمص إلى غزة[4]، فقد بنى السلاطين وأمراؤهم خلال حكمهم العديد من المساجد والجوامع ولكونهم مسلمين فكان لا بد من بناء المساجد لوجود أحاديث ترغب في بنائها، كما في حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قول الناس فيه حين بنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم أكثرتم علي، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة، وفي رواية: بنى الله له مثله في الجنة، رواه البخاري ومسلم وغيرهما[5].

---

[1] - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص185.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص11 ـ 21.

[3] - دمشق في عصر المماليك ص117 ـ 118.

[4] - تاريخ البصروي ص17.

[5] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف جذ ص193.

1 ـ الظاهر بيبرس:

بنى الظاهر بيبرس جامعاً عظيماً يسمى جامع الظاهر ويسمى جامع العافية، ويمتاز بأن أول مدخل تذكاري بارز، ويقع في الحسينية في ميدان قراقوش في القاهرة[1]، وحينما حرر صفد عمل فيها بيبرس جامعاً في القلعة وجامعاً بالربض[2]، وكذلك حينما فتح السلطان قيسارية أرسوف بنى قلعة حصينة وعمرت الكنيسة جامعاً[3]، كما تم إكمال بناء جامع المنشية[4]، كما جدد جامع الرملية[5]، وبنى جامع الروضة في جزيرة مصر وجامع المنشية المستجدة، وجامع الصالح في ظاهر القاهرة، وجامع الحسينية، وجامع بقطبا وجامعين في صفد وجامعاً في قاقوم وجامعين في الشقيف وجامعاً بصافيتا وجامعاً في بغراس وجامع أنطاكية وجامعاً في قارا[6]، كما أمر السلطان بناء جامع الإسكندرية[7].

في عصر السلطان بيبرس تم بناء مئذنة جامع الرومي في حلب[8]، وتم من قبل محمد بن علي الحداد منبر في الجامع الكبير في حلب[9]، ويذكر أن هولاكو حينما احتل قلعة الصبيبة، وهي تقع شرقي بانياس في سورية هدم القلعة، وحينما

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص201 ـ 223 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص74 تاريخ الملك الظاهر ص346 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ص180 البداية والنهاية ج13 ص249 الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص273 ـ 332 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص161 ـ 192.

[2] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص263.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص275.

[4] - البداية والنهاية ج13 ص258 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص150.

[5] - البداية والنهاية ج13 ص276 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص195.

[6] - تاريخ الملك الظاهر ص360.

[7] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص193.

[8] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص130.

[9] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص189 ـ 190.

تسلطن بيبرس أعاد بناءها وجددها وأنشأ لجامعها منارة[1]، كما أعاد السلطان بناء الجامع في دير الطين في ظاهر مصر[2]، وبنى عند الركن المخلق مسجداً أعني جامع الظاهر العبيدي، كما بنى جامعاً في المنشية وآخر في منية الشرج وجامعاً في الظاهرية الشرقية، وكذلك جامعاً في الفيوم وكذلك على فوهة الإسكندرية[3]، وجدد جامع الرمله وأصلح جامعاً لبني أصلح وجامع زرعين[4]، وجدد في بعلبك المسجد الذي في رأس العين ووسع مدخل الحنابلة وجدد عمارة جامع البلد[5]، وأمر بعمارة المسجد المجاور لضريح نون عليه السلام[6]، كما بنى جامعاً في حصن الأكراد، وكذلك بنى جامعاً في حصن عكا بعد أن جدد قلعتها فيها[7]، وبنى في قلاع الإسماعيلية الثمان جوامعاً[8]، وجدد جامع الأنوار وكان أنشأه الفاطميون المعروف بجامع الفاكهيين، وكان مغلقاً فيما سبق فأعاده وجدده وتم إعادة الخطبة فيه[9]، وبنى السلطان بيبرس جامعاً في قانون في فلسطين[10].

جهز السلطان بيبرس الأخشاب والحديد والرصاص وآلات الصناع وأعاد عمارة المسجد النبوي الشريف، ووضع منبراً للمسجد النبوي[11]، ولما رأى الناس

---

[1] - الجولان أطماع العدو تاريخياً وبشرياً وجغرافياً واقتصادياً ص118 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص195.

[2] - تاريخ الملك الظاهر ص73 ـ 348.

[3] - تاريخ الملك الظاهر ص367.

[4] - تاريخ الملك الظاهر ص352.

[5] - تاريخ الملك الظاهر ص356.

[6] - تاريخ الملك الظاهر ص357.

[7] - تاريخ الملك الظاهر ص357 ـ 360.

[8] - تاريخ الملك الظاهر ص358 ـ 360.

[9] - تاريخ الملك الظاهر ص345 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص192.

[10] - خطط الشام ج6 ص56.

[11] - البداية والنهاية ج13 ص245 ـ 256.

يلتصقون بالقبر أقام ما حوله بيده ثم أمر بدرابزين من خشب حول القبر الشريف، كما ذهّب سقفه وبيضه وحينما حج غسل الكعبة بيده بماء الورد[1].

أذن السلطان بيبرس للأمير عز الدين أيدمر الحلي بعمل منبر للجامع الأزهر في القاهرة لم يبق منه إلا لوحته التاريخية المحفوظة في متحف الجزائر، وجدد الجامع ولم يبق من هذه العمارة سوى الزخارف الجصية[2]، والجدير بالذكر أن الظاهر بيبرس و الذي أعاد فتح الجامع الأزهر وأعاد الصلاة والخطبة فيه[3]، بعد أن أغلقت من قبل صلاح الدين الأيوبي حينما استلم الحكم في مصر.

2 ـ قلاوون وأولاده:

بنى السلطان المنصور قلاوون جامعاً شهيراً بين القصرين في القاهرة[4]، ومن أروع الأمثال للمحاريب المملوكية محراب قبة المنصور قلاوون في شارع المعز لدين الله[5]، ومن المآذن المشهورة مئذنة مدرسة قلاوون[6]، وتمت في زمن قلاوون، وصنع منبراً عند مرآب الصحابة في دمشق بسبب عمارة كانت بالمنصورة[7]، وأمر بعمارة المحراب في الجامع الكبير في حلب من قبل السلطان سيف الدين قلاوون[8]، وبني زمن السلطان في حلب مسجد قنسرين عمره قراسنقر[9]، كما بنى جامعاً.

---

[1] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص265 الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج2 ص67 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج1 ص180 ـ 181 البداية والنهاية ج13 ص275.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص172.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص277 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج1 ص183. البداية والنهاية ج13 ص248 العصر المماليكي في مصر والشام ص138 تاريخ الملك الظاهر ص342.

[4] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص104 معجم البلدان المجلد العاشر ص334 خليل بن قلاوون ص 8 محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص5.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص32.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص34.

[7] - البداية والنهاية ج13 ص314.

[8] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص190.

[9] - خطط الشام ج6 ص48.

الحنابلة[1]، كما تم بناء الجامع الكبير لقلاوون في طرابلس الجديدة بعد أن خربت المدينة القديمة[2].

صاحب المعارك والفتوحات السلطان خليل بن قلاوون قلب الكاتدرائية في طرطوس بعد أن فتحها جامعاً[3]، كما بنى في طرابلس الجامع الكبير على ما يرى في الكتابة المحفورة فوق باب الجامع الشمالي[4].

بنى السلطان محمد بن قلاوون مسجداً يقع في القسم الجنوبي من قلعة صلاح الدين على يسار الداخل من البوابة الوسطى للقلعة قادماً من باب الجديد في القاهرة، بعد أن بدأ العمل في المسجد عام 718هـ، وفرغ منه خلال أربعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً وأعاد بناءه من جديد عام 735هـ[5]، وبنى السلطان محمد جامعاً بجانب خانقاه سيرقوس وتقع شمالي القاهرة[6]، كما أمر السلطان بعمارة جامع القلعة وتوسيعه[7]، وعمارة جامع مصر العتيق[8]، كما أمر السلطان بتجديد جامع راشدة[9]، كما جدد السلطان محمد الجامع الكبير في حلب بعد احتراقه عام 684هـ وعندما هاجمها صاحب سيس، وعمل منبراً للجامع من خشب الأبنوس وطعمه[10].

---

[1] - خطط الشام ج6 ص58 ـ 59.

[2] - العصر المماليكي في مصر والشام ص75.

[3] - آثارنا في الإقليم السوري ص97.

[4] - خطط الشام ج6 ص53.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص146 ـ 148 ـ 149 ـ 159 ـ 205 ـ 207 ـ 237 ـ 289 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص84 الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص156 ـ 171 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص358 مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص114 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص56 ـ 180 ـ 198.

[6] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص53 الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص171.

[7] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج6 ص54.

[8] - البداية والنهاية ج14 ص170.

[9] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص161.

[10] - آثارنا في الإقليم السوري ص74.

أكملت في عهد السلطان محمد الرابع الجديد الناصري في مصر القديمة على النيل وعمره القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش باسم السلطان محمد[1]، كما تم بناء جامع قوصون خارج باب زويلة[2]، وبنى علاء الدين مغطاي (الجمالي) عمارة جامع بين السورين بجوار البرقية في خط بين السورين في القاهرة سمي جامع التوبة[3]، وتم بناء مسجد في الصحراء في القاهرة من قبل الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري[4]، كما قام الأمير بكتمر الجوكندار بأعمال صلاح الدين والتجديد في جامع الصالح طلائع والتي يقع منها المنبر الخشبي للمسجد، وقد نقش النص الكتابي فوق جلسة الخطيب باسم الأمير المذكور[5]، وبنى الأمير الطنبغا عبد الله المارداني مسجداً عرف باسم مسجد الطنبغا المارداني وهو صهر الناصر محمد بن قلاوون بجوار خط التبانة خارج باب زويلة[6]، وأنشأ الأمير آق سنقر الناصري جامعاً سمي جامع آق سنقر يقع في شارع باب الوزير[7] والجدير بالذكر أيضاً أنه أقدم منبر رخامي موجود في مسجد الخطيري وبقاياه موجودة في متحف الفن الإسلامي في القاهرة يعود لعام 737هـ[8]، وأنشأ الأمير حسين بن جندر جامعه المعروف بجامع الأمير حسين من جهة ميدان باب الخلق في القاهرة[9]، وتم بناء جامع المشهد النفيسي، وتم بناء جامع الأمير بدر الدين محمد التركماني بالقرب من باب البحري في القاهرة، وجامع الأمير كراي المنصوري ويسمى جامع الريدانية في آخر

---

[1] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص33 ـ 198.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص95.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص96 ـ 199.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص238.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص253 ـ 254.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص258 ـ 289 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص271.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص262 ـ 264. الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص264.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص264.

[9] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص62.

الحسينية خارج القاهرة، وجامع كريم الدين خلف الميدان وجامع شرف الدين الحاكي في سويقة الريش، وجامع الفخر ناظر الجيش على النيل فيما بين بولاق وجزيرة الفيل، وجامعاً آخر خلف خص الكيالة في بولاق وجامعاً ثالثاً في جزيرة الروضة، وجامع حسين الحكر وجامع الأمير.قيدان الرومي في قناطر الإوز، وجامع الأمير ناصر الدين الشربيشي الحراني في القرافة، وجامع الأمير أقوش نائب الكرك بطرف الحسينية بالقرب من الخليج، وجامع آق سنقر قريباً من الميدان، وجامعاً خارج باب القرافة وجامع الملك الظاهري في الجزيرة المستجدة المعروفة بالوساطة وجامع الأمير الماس الناصري بالقرب من حوض ابن هنس خارج القاهرة، وجامع الأمير قوصون الناصري بالقرب منه خارج القاهرة، وله جامع خارج باب القرافة، وجامع الأمير عز الدين أيدمر الخطيري في ساحل بولاق، وجامع في صاروجا في شون القصب، وجامع الأمير يشبك الناصري على بركة الفيل تجاه خانقاته وجامع الأمير ملك الحسينية، وجامع الست حدق الدادة فما بين السد وقناطر السباع وجامع الست مسكه قريباً من قنطرة آق سنقر، وجامع الطنبغا المارداني خارج باب زويلة، وجامع المظفر في سويقه الحميزة من الحسينية، وجامع جوهر السحرتي قريباً من باب الشعرية وجامع فتح الدين محمد بن عبد الله الظاهر في القرافة[1]، كما بنى الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام مسجده الشهير في حكر إسحاق في دمشق[2]، وتم بناء الجامع الذي ابتناه وعمره الأمير جمال الدين نائب السلطنة عند الرباط الناصري في الصالحية[3]، كما بنى إبراهيم بن منجك من أتباع السلطان محمد مسجداً باسمه (جامع منجك) بالقبيبات، وبنى مسجداً آخر سمي مسجد القصب أو الأقصاب أو جامع السادات[4]، وبنى جامع خليخان تجاه

---

[1] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص199 إلى 210.

[2] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص234 تاريخ البصروي ص90 البداية والنهاية ج14 ص81 ـ 88 مآذن دمشق تاريخ وطراز ص126 ـ 135 ولاة دمشق في عهد المماليك ص165 ـ 167.

[3] - البداية والنهاية ج14 ص42.

[4] - تاريخ البصروي ص85 ـ 151.

خارج باب كيسان من الجنوب في دمشق أنشأه نجم الدين بن خليخان[1]، وكذلك بنى جامع الكريمي بالقبيبات في دمشق أنشأه عبد الكريم هبة الله المصري[2]، وفي حماه تم بناء جامع العزة بناه محمد حمزة العزي[3]، كما بنى تنكز أيضاً جامعاً في نابلس وعجلون[4]، وبنى في حلب جامع الطون بغا الصالحي، وقيل عنه بأنه أول جامع بني في حلب بعد الجامع الكبير[5]، وبنى جامع طينال تسميه العامة طيلان بناه سيف الدين طينال في طرابلس في هندسة لطيفة[6]، كما بنى في طرابلس جامع عبد الواحد وراء سوق الصاغة تجاه عبد الواحد المغربي المكناسي[7]، وتم بناؤها مع الأفرم في حي المهاجرين في منطقة الأفرم في شارع إبراهيم هنانو شيدها نائب السلطنة في الشام أمير دمشق جمال آقوش الدواداري الأفرم في دمشق[8]، كما بنى جامع الشيخ علي البريدي في حي السويقة، في شارع حطاب في زقاق البريدي في دمشق، شيدها الحاج أحمد بن عثمان النحاس[9]، وبنى الأمير علم الدين سنجر الجاولي أبو سعيد جامعاً في الكرك، وكان نائباً فيها من الناصر محمد[10]، كما بنى جامعاً صغيراً في قلعة صلاح الدين التي تسمى قلعة صهيون أيضاً[11]، كما بنى نائب غزة الأمير علاء الدين الجاولي جامعاً حسناً في غزة[12]، كما أعيدت

---

[1] - خطط الشام ج6 ص63 البداية والنهاية ج14 ص174.

[2] - خطط الشام ج6 ص63.

[3] - خطط الشام ج6 ص62.

[4] - البداية والنهاية ج14 ص187 ولاة دمشق في عهد المماليك ص166 ـ 167.

[5] - خطط الشام ج6 ص49.

[6] - خطط الشام ج6 ص53.

[7] - خطط الشام ج6 ص54.

[8] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص215 ولاة دمشق في عهد المماليك ص147.

[9] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص447.

[10] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص248 مدن الشام في العصر المملوكي ص126.

[11] - آثارنا في الإقليم الشمالي ص94.

[12] - البداية والنهاية ج14 ص97.

وتكاملت المنارة الشرقية في الجامع الأموي في دمشق[1]، كما تم بناء مئذنة جامع فاطمة في بصرى[2].

3 ـ بيبرس الجاشنكير:

كان السلطان محمد بن قلاوون أمر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير قبل أن يصبح الأخير سلطاناً، أن يجدد جامع الحاكم بأمر الله، فأصلحه وجدده، كما حول بيبرس الطوابق العليا من مئذنتي الجامع المذكور حيث يؤكد البعض أن المكعب الثاني من المئذنة هو من عمل بيبرس، كما نجد في خانقاه بيبرس الجاشنكير مئذنة عالية تمتاز بقبتها المضلعة[3].

4 ـ أحفاد قلاوون:

في عهد السلطان أبو بكر بن الناصر محمد قلاوون بنى نائب السلطنة الحاج آل نلك مسجداً مكان خزانة البنود، كما كان له جامع آخر خارج باب النصر وقد اندثر[4].

في عصر الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد تم إكمال عمارة الجامع الذي في المزه الفوقانية الذي جدده وأنشأه الأمير بهاء الدين المرجاني[5]، ورسم الصالح إسماعيل لعلم الدين سنقر الجاولي بناء غزة وعمر فيها الجامع[6].

---

[1] - البداية والنهاية ج14 ص189.

[2] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص129.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص33 ـ 223 ـ 237 البداية والنهاية ج14 ص33 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج8 ص276.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج10 ص88.

[5] - البداية والنهاية ج14 ص216.

[6] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص247.

أنشأ الحاج جنيد بن عمر الأقصراي جامع الجونشية في السويقة وكان الفراغ منه في أيام الملك الكامل سيف الدين شعبان[1]، وتم بناء جامع الخيف من قبل عمر ابن المرجاني[2].

بنى الأمير شيخو مسجداً في القاهرة وذلك في زمن السلطان حاجي[3]، وكذلك بنى نائب دمشق سيف الدين يلبغا البحياري جامعاً ويقع في الشمال الغربي من القلعة في منطقة سوق الخيل، وحالياً على شارع النصر[4].

بنى السلطان حسن بن محمد بن قلاوون جامعاً يعتبر من أجمل العمائر الإسلامية في مصر والشام[5]، كما جدد في دمشق جامع كريم الدين، وجامع شمس الدين غربال[6]، وبنى الأمير قراسنقر جامعاً في حلب[7]، وبنى الأمير علاء الدين الطبغا في نيابته في حلب جامعاً في شرقها على طريق الميدان الأسود داخل سور شرقي المدينة[8]، وأنشأ السلطان حسن محراباً لمدرسته في ميدان صلاح الدين في القلعة، وهي من أروع المحاريب لذلك العصر[9]، كما أنشأ منبراً رخامياً في مدرسته أيضاً من الرخام الأبيض[10]، وأنشأ مئذنتين عظيمتين لمدرسته بلغ ارتفاع الكبرى منها حوالي 81،60م[11]، كما جدد السلطان حسن جامع الحاكم بأمر الله في

---

[1] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص207.

[2] - البداية والنهاية ج14 ص96.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة289.

[4] - تاريخ البصروي ص50 ـ 100 ولاة دمشق في عهد المماليك ص191 ـ 192 دمشق في عهد المماليك والعثمانيين ص54.

[5] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص451.

[6] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص57.

[7] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص151.

[8] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج10 ص73.

[9] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة32.

[10] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة31 ـ 264.

[11] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة129.

القاهرة[1]، وبنى جامعاً آخر في القاهرة[2]، كما للسلطان حسن مآثر في مكة المشرفة فعمل باب الكعبة[3].

بنى في زمن السلطان مئذنة لمدرسته بناها الأمير صرغتمش، كما بنى الأمير سيف الدين شيخو العمري الناصري جامعاً في ميدان صلاح الدين في القلعة في شارع الصليبية في القاهرة، وللأمير مئذنة في الخانقاه التي أنشأها[4]، وتم بناء جامع منجك وموضعه تحت القلعة خارج باب الوزير وتسميه العامة جامع المنشكية وهو داخل درب المنشكية المتفرع من شارع الوداع بجري القلعة في القاهرة أنشأه الأمير سيف الدين منجك اليوسفي[5]، وتم بناء مئذنة أق سنقر في القاهرة[6]، وتم بناء مسجد آراق السلحدار في منطقة الصحابة على طريق الميدان الوسطاني قرب دوار باب المصلى في دمشق، شيدت التربة المنسوبة إلى آراق بن عبد الله السلحدار نائب السلطنة في صفد وفي التربة ضريح ينسب إلى الصحابي صهيب الرومي لذلك أطلق الناس اسم جامع سيدي صهيب، وكذلك يطلق اسم مسجد قره أصلان[7]، وبنى أرغون شاه مسجداً وتربة وهو المعروف حالياً بجامع السنجقدار في دمشق[8]، وفي عهد السلطان حسن بني جامع الصحابية في حلب من قبل أحمد بن يعقوب بن الصاحب[9]، وتم افتتاح جامع بناه سيف الدين يلبغا الناصري غربي سوق الخيل[10]،

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة224.

[2] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص194.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج10 ص316.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة109 ـ 115 ـ 289 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج2 ص66 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص271.

[5] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج10 ص263.

[6] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص128.

[7] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص437.

[8] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص200.

[9] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص206.

[10] - البداية والنهاية ج14 ص256.

وبنى في طرابلس جامع العطار وسط البلد قرب محلة الملاحة والمشهور عند الأهالي ومكتوب على بابه بأنه من عمل المعلم محمد إبراهيم[1].

بني زمن السلطان حسين في دمشق مئذنة جامع الشحم[2]، وبني جامع الشحم عند النهاية الشرقية لسوق مدحت باشا شيدها الكسار ومئذنتها مفصولة عن الجامع بينهما طريق[3]، وبنى الأمير إبراهيم منجك الجركسي جامع منجك بميدان الحص المعروف بالجزماتية في الميدان الوسطاني في دمشق[4].

بنى منكلي بغا بن عبد الله الشمسي جامعاً في حلب وذلك في عهد السلطان شعبان بن حسين[5]، وعرف بالجامع الرومي[6].

5 ـ برقوق وأولاده:

بنى السلطان برقوق مسجداً في القاهرة[7]، ويذكر بأن كتابة على باب المسجد الأقمر في القاهرة تحمل اسم السلطان برقوق الذي أمراً بإصدار هذه العمارة بإشراف الأمير يلبغا السالمي وفي الجامع توجد مئذنة على يسار الباب امتازت بما فيها من نقوش ومقرنصات من إنشاء الأمير السالمي المذكور أيضاً[8].

بنى في سلطنة برقوق الجامع الجديد، ويقع على حافة يزيد في الصالحية في دمشق[9]، وتم بناء جامع التنبية في حي الميدان الفوقاني على الطريق العام في دمشق

---

[1] - خطط الشام ج6 ص54.

[2] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص126.

[3] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص153.

[4] - أعلام الأدب والفن ج2 ص109 خطط الشام ج6 ص63 مآذن دمشق تاريخ وطراز ص169 ولاة دمشق في عهد المماليك ص216.

[5] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص58.

[6] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص138 ـ 207.

[7] - معجم البلدان المجلد العاشر ص334 مآذن دمشق تاريخ وطراز ص127 ـ 128 قيام دولة المماليك الثانية ص195 محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص3 مصر والشراكسة ص57.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص216 ـ 217.

[9] - تاريخ البصروي ص125.

بناه نائب السلطان بدمشق الأمير يشبك تنبك أو تنم[1]، وأنشأ الأمير يوسف بن تغري بردى جامعاً في حلب حينما وليها[2].

بنى السلطان فرج بن برقوق مسجد الحرش داخل القلعة في القاهرة[3]، وتوجد مئذنتان وخانقاه وقبة فرج ولكل من المئذنتين ثلاث دورات[4]، وأنشأ عزران شاه الزيني جامع المزار في الشاغور في دمشق وذلك في القرن الثامن، ثم جدد سنة 813هـ[5]، كما تم أيضاً في زمن فرج وضع محراب جامع السادات في الزينية في دمشق[6]، كما أنشأ خليل الطوغاني جامع السقيفة التي دفن فيه عثمان السقيفي من الصحابة[7]، وسمى الجامع نفسه أيضاً بجامع الكنيسة، وحالياً يسمى جامع الثقفي بعد تجديده، وهو خارج باب توما عند النهاية الجنوبية في شارع برج الروس في دمشق[8]، وبنى أقبغا نائب حلب جامع الأطروش في محلة الأعاجم[9]، وكذلك تم بناء جامع جمال الدين الأستادار في القاهرة[10]، كما تم بناء جامع الموازيني في حلب أيام السلطان برقوق من قبل كافل المملكة الشريفة في حلب[11]، وفي لبنان تم بناء جامع دير القمر للأمير فخر الدين عثمان المعني[12].

---

[1] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص459.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص16.

[3] - مصر في عصر المماليك الجراكسة ص314.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص272.

[5] - تاريخ البصروي ص99 خطط الشام ج6 ص67.

[6] - خطط الشام ج4 ص136.

[7] - خطط الشام ج6 ص63.

[8] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص241.

[9] - آثارنا في الإقليم السوري ص74 تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص205.

[10] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص289.

[11] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص208.

[12] - خطط الشام ج6 ص59.

أنشأ السلطان الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق الباب الشرقي للجامع الأموي في دمشق، وفي المتحف الوطني في دمشق لوحة نحاسية تخلد هذا الإنشاء[1]، وحينما زار السلطان مدينة دمشق أمر بزخرفة عدد من جدران المسجد الأموي بالرخام وإصلاح المآذن[2]، وتم كذلك بناء مئذنة جامع الأقصاب في دمشق[3].

6 ـ الشيخ المؤيدي:

بنى السلطان شيخ جامعاً يقع في تقاطع شارعي الموسكي وشارع المعز لدين الله الفاطمي (السكرية) وملاصقاً لباب زويلة، وكان هذا المسجد سابقاً سجناً عرف بخزانة شمائل، ويعتبر الجامع من أفخر المساجد في عصر دولة الشراكسة، وكان فيه منبر خشبي اعتبر من أروع الأمثلة للمنابر الخشبية[4]، وبنى جامع المؤيد في أول سوق الهال القديم في دمشق[5].

تم بناء مسجد قانيبال المحمودي في القاهرة في زمن السلطان المحمودي[6] وكذلك بني مسجد القاضي زين الدين عبد الباسط ناظر الجيوش[7]، وبنى جامع التوبة في طرابلس وهو ملاصق للجسر على نهر أبي علي[8].

7 ـ الأشرف برسباي:

بنى السلطان الأشرف مسجداً مع مدرسة تقع في العنبرانيين بين القصرين في القاهرة، كما بنى جامعاً آخر في بلدة الخانكة الحالية بمركز شبين القناطر

---

[1] - آثارنا في الإقليم السوري ص47.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص129.

[3] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص125.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص31 ـ 140 ـ 187 معجم البلدان المجلد العاشر ص334 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص113 مصر في عصر المماليك الجراكسة ص314 ـ 316 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص ت من المقدمة صور ومظالم من عصر المماليك ص77 المطبخ السلطاني ص70 ـ 71 مصر والشراكسة ص63 ـ 107.

[5] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص45.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص289.

[7] - مصر في عصر المماليك الجراكسة ص306 مآذن دمشق تاريخ وطراز ص127.

[8] - خطط الشام ج6 ص53 ـ 54.

قليوبية[1] كما توجد مئذنة تعلو المدخل الرئيسي لخانقاه التي أنشأها السلطان نفسه[2]، وبنى في عهد السلطان مسجد جوهر اللالا في القاهرة[3]، كما تم بناء جامع جاني بك في شارع المغربلين في القاهرة[4]، وبنى القاضي أمين الدين مسجداً له أيضاً[5]، وتم إنشاء مئذنة جامع القلعي في محلة الخيضرية (الخضيرية) في دمشق، وتعتبر مثلاً لفن بناء المآذن وزخرفتها[6]، وتم إنشاء جامع صلاح الدين برسباي وسمي بجامع الورد في حارة الجورة منطقة العينية في منطقة العمارة البرانية قرب التقاء شارع الملك فيصل بحارة سوق ساروجا (صاروجا) في الدرويشية عند زاوية حارة الورد في دمشق بناه يوسف الدين الناصري ودفن فيه وفي موضع مسجد أقدم يعود إلى سنة 784هـ ويظن أن هذا المسجد كان يسمى مسجد السبع قاعات[7]، وتم بناء مسجد هشام في سوق الصوف المجاور للطرف الغربي لسوق مدحت باشا من جهة الجنوب وقبال خان بركة في دمشق شيدها القاضي بدر الدين بن زهر[8]، وتم بناء جامع التوريزي في زقاق التوريزي في محلة قبر عاتكه بالقرب من رأس الشويكة، وأقام الجامع صاحب حجاب دمشق الأمير غرس الدين خليل التوريزي[9].

8 ـ الظاهر جقمق:

بنى السلطان جقمق مساجد كثيرة وجدد العديد من الأعمال فيما يتعلق بالمساجد فقد جدد الجامع المعلق المجاور لكنيسة الملكيين والتي هدمها داخل قصر

---

[1] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص131 مجلة العربي العدد 366 ص73 مصر والشراكسة ص71 ـ 107.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص275 ـ 276.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص289.

[4] - مصر والشراكسة ص107.

[5] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص317.

[6] - آثارنا في الإقليم السوري ص52 ـ 53.

[7] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص141 ـ 175 خطط الشام ج6 ص62 ـ 63 تاريخ البصروي ص143.

[8] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص171.

[9] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص139.

الشمع، والمسجد الذي في خان الخليلي، وجامع الظاهر حيث دهنه وبلطه، وجامع الحاكم سقفه وبلطه بعد أن كان مغلقاً لفترة، وجدد مدرسة أستاذه البرقوقية[1]، كما أعاد مسجد أبي المغربي بعد أن هدمه[2].

في عهد جقمق بنى ابن تغري بردى في مدرسته مئذنة ذات طراز مملوكي التي تنتهي قمتها بجوسق محمولة على أعمدة رخامية[3]، وبنى مسجد الفقير الغمري[4]، وتم بناء جامع يلبغا في دمشق[5].

9 ـ الأشرف إينال:

بنى السلطان إينال مسجداً له[6]، وتم بناء الجامع المعلق في منطقة بين الحواصل عند الطرف الغربي لشارع الملك فيصل وبين بابي الفرج والفراديس (بابي المناخلية والعمارة) وينسب بناؤها إلى برد بك الأشرفي[7].

10 ـ الأشرف قايتباي:

بنى السلطان قايتباي مسجده في القرافة في طريق صالح سالم اليوم في القاهرة[8]، وبنى السلطان مسجداً له في الأزبكية لكنه اندثر فيما بعد[9]، وبنى جامعه في الصالحية في صحراء القاهرة مكان تربته في الخطاره[10]، بنى جامعاً

---

[1] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص134 ـ 135 الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص210 ـ 211.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج5 ص243.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص108.

[4] - في عصر مصر دولة المماليك الجراكسة ص317.

[5] - خطط الشام ج6 ص62.

[6] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص13.

[7] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص165.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص289 معجم البلدان المجلد العاشر ص334 مصر والشراكسة ص107.

[9] - طومان باي ص120.

[10] - القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص46 ـ 101 ـ 125.

ضمن مقابر الخلفاء بالقرب من جامع ابن طولون[1]، وبنى مسجد العباسية في القاهرة[2]، وبنى السلطان جامعاً في جزيرة الروضة وجامعاً في رأس الكبش، وجامعاً في باب الخرق (الخلق) عند الشيخ سلطان شاه، وجامع لطيف خارج باب القرافة وجدد منبر جامع الناصر محمد، وجدد قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وجدد مقام سيدي أحمد البدوي، وجدد جامع الرحمة في غيط جاني بك نائب جدة[3].

بنى السلطان قايتباي منارة للمسجد الحرام في مكة وجدد عمارة للمسجد النبوي الشريف بعد حرقه من الصاعقة[4]، فأنشأ قبة عظيمة ومقصورة من الحديد المسبك على قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ورخم مسجده عليه السلام، وغير المنبر والمآذن التي كانت في الحرم[5]، وبنى الخيف قرب عرفات في منى وبوسطه قبة عظيمة[6]، ومن آثار قايتباي أعماله في جامع نمرة في جبل عرفات[7].

أنشأ السلطان قايتباي الباب الغربي للجامع الأموي في دمشق[8]، وأعاد المئذنة الغربية للجامع الأموي بعد احتراقه عام854هـ وتعتبر المئذنة من أجمل المآذن[9]،

---

[1] - مصر والشراكسة ص81.

[2] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص318.

[3] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص206 تاريخ البصروي ص97 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص137 القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص125 مصر والشراكسة ص85.

[4] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص206 نور المقابس في تواريخ الجراكس ص47 القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص125 مصر والشراكسة ص85 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص317.

[5] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص141 ـ 145 القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص125 مصر والشراكسة ص85 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص317 ـ 318.

[6] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص13 مصر والشراكسة ص85 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص317 ـ 318.

[7] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص13 مصر والشراكسة ص85.

[8] - آثارنا في الإقليم السوري ص47.

[9] - تاريخ البصروي ص88.

والمعروفة بمأذنة قايتباي[1]، كما بنى مئذنة جامع هشام بين سوق مدحت باشا وسوق الحبالين في دمشق[2]، وبنى مئذنة في مدرسته في جنوبي تربة الأشرف برسباي في قرافة المماليك وهذه المئذنة من أحسن المآذن لتناسب أجزائها وتتكون من ثلاث دورات[3]، كما أمر السلطان بهدم الجامع الكبير الغربي في القاهرة وجدده، وأقام على يمينه المئذنة ذات الثلاث دورات[4] وأنشأ السلطان المنبر الحجري في خانقاه فرج ابن برقوق بزخارف كثيرة أهمها الهندسية منها كما أنشأ الدكة[5].

جدد في عصر قايتباي الأمير يشبك بن مهدي جامع الأفخر، وبعد تجديده عرف بجامع الفاكهاني، ويقع على رأس حارة خشقدم في شارع المعز لدين الله (العقادين)[6] ، وجدد الأمير يشبك جامع الصالح طلائع فكشف سلم الجامع، وأجرى العديد من الإصلاحات[7]، وبنى الأمير أزبك مسجده الكبير[8]، عمل الأمير أزبك بن ططخ منبراً أثناء تجديد عمارة مدرسة قلاوون[9]، وبنى الأمير الأزبكي جامعه المعروف بالأزبكية[10].

جدد عمارة جامع السقيفة في دمشق[11]، وبنى الأمير فخر الدين عبد الغني مسجداً عرف باسم الفخري بين السورين[12]، وتم في زمن السلطان قايتباي بناء جامع

---

[1] - خطط الشام ج4 ص436.
[2] - آثارنا في الإقليم السوري ص53.
[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص34 ـ 277.
[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص173.
[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص32 ـ 38 ـ 111 ـ 273.
[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص185 ـ 186.
[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص254.
[8] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص313 مآذن دمشق تاريخ وطراز ص49 ـ 50 ـ 52 ـ 65.
[9] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص204.
[10] - مصر والشراكسة ص80 ـ 134.
[11] - تاريخ البصروي ص74.
[12] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص314.

الحيواطية للأمير علي بن حيوط[1]، في محلة قبر عاتكه حارة جادة الحيواطية خلف مشفى المجتهد[2]، وبنى جامع الحاجب في سوق ساروجا[3].

بني في طرابلس زمن السلطان قايتباي جامع أرغون شاه وتسميه العامة الفنشا على الطريق الشرقية الأخذة لجبانة باب الرمل[4]، وتم إنشاء عمارة مسجد السفاحية، ومدرسة في أيام الأشرف أبي نصر الدقماقي[5]، بنى السلطان محمد بن قايتباي مسجداً في الفيوم[6].

11 ـ قانصوه الغوري:

بنى السلطان قانصوه الغوري مسجداً له تجاه مدرسته في الشرابيين في القاهرة، ولها مئذنة تتكون من ثلاثة طوابق يعلوها أربعة رؤوس[7]، كما بنى السلطان مئذنة ذات رأس مزدوج للجامع الأزهر[8]، وبنى جامع المقياس في الروضة[9]، وبنى مسجداً خلف ميدان القلعة[10]، وتم بناء جامع شرف في حلب[11].

---

[1] - خطط الشام ج6 ص63.

[2] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص147.

[3] - خطط الشام ج6 ص63.

[4] - خطط الشام ج6 ص53.

[5] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص209.

[6] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص318.

[7] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص182 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص155 ـ 156 الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص176 معجم البلدان المجلد العاشر ص334 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص318 العصر المماليكي في مصر والشام ص190 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص270.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص34 نور المقابس في تواريخ الجراكس ص13 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص318.

[9] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص13.

[10] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص318.

[11] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص207.

بني زمن السلطان الغوري مسجد خير بك[1]، وبني أيضاً جامع الشيخ علي شاتيلا في المعادلي[2]، وأنشأ الأمير قاني بك (قانيباي) الرماح مسجده بمئذنة ذات رأس مزدوج ، وموقعها في ميدان صلاح الدين في القلعة في القاهرة[3]، وبنى مئذنة ذات طراز مملوكي لمدرسة الأمير قرقماش[4]، وتم بناء مئذنة لمدرسة السيبائية في نهاية الدرويشة قرب باب الجابية في دمشق أنشأها آخر نواب الشام الأمير سيباي بن بختجا[5].

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص290 مصر والشراكسة ص108.
[2] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص209.
[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص47 ـ 133 ـ 134 ـ 174.
[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص279.
[5] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص149.

بنى السلاطين الشراكسة وأمراؤهم خلال فترة حكمهم من المدارس والمساجد ومرافقها وبالإضافة إلى ذلك بنوا العديد من المرافق العامة من طرق وجسور وهي شاهدة على ازدهار عصرهم[1]، وكان عصر دولة السلاطين من أزهى العصور الإسلامية[2]، ويقول الدكتور زكي محمد حسن (لا ريب في أن عصر دولتي المماليك هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر، فقد كان الإقبال عظيماً على تشييد العمائر، من جوامع وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبله كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة في العناصر المعمارية من واجهات ومنارات وقباب وزخارف جصية ورخامية)[3].

روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علماً علمه ونشره، وولداً تركه، أو مصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبي بناه، أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صمته وحياته تلحقه[4] من بعد موته) رواه ابن ماجه[5].

بلغت في عهد الدولة الشركسية فنون العمارة الإسلامية (أوج تطورها وازدهارها حتى غطيت القباب من الخارج والمآذن بزخارف نباتية وهندسية غاية في الدقة والإتقان، وكانت تعددت القباب والمآذن في المسجد الواحد، وبني السبيل والكتاب كوحدة معمارية قائمة بذاتها، وبرز من بين سلاطين هذه الدولة محبو العمارة والتشييد بجميع أنواع العمائر من دينية مثل المدارس والخانقات، ومن مدنية مثل القصور والمنازل والوكالات والخانات والقناطر والجسور والبيمارستانات ومن حربية مثل القلاع والحصون، ويذكر منهم على سبيل المثال في مصر السلطان الملك

---

[1] - دمشق في عصر المماليك ص62.

[2] - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص5.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص379 ـ 380.

[4] - ينال ثواب نعيمها.

[5] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج1 ص193.

الأشرف قايتباي والسلطان قانصوه الغوري) وبعد الدولة الشركسية استمر(الطراز المعماري المحلي بحسب أسلوب العمائر الجركسية، وظل قائماً في معظم العمائر التي شيدت في هذه الفترة)[1] ، وحتى بعد أن ظهر النظام البيزنطي في البناء بعد الاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر.

بناء السلاطين والأمراء كان كاملاً بملحقاته فكل بناء كان يتبعه المطبخ والساقية وغيرها، وكذلك المنشآت المدرسية والدينية كان لابد من سبيل، وهذا السبيل يتألف من ثلاثة أشياء وتكون بشكل طوابق عادة تحوي الطبقة الأولى خزان الماء (صهريج) ويكون تحت الأرض وهو لخزن المياه وتأمينها، والطبقة الثانية تكون فوق الأرض بها المزملة وبصدرها السبيل الموزع إلى الأحواض والشبابيك، وتحوي الطبقة الثالثة غالباً مكتباً أو كتاباً، ولا يخفى على أحد الكسوة الرخامية الملونة للجدران والأرضية، وتحوي أشكالاً هندسية بديعة[2].

عرف من الأبنية السكنية ما سمي بالخانقاه وتعني دار تعبد، وكانت مخصصة لإيواء المتصوفة والمنقطعين للدراسة وخاصة الدينية منها، وعرفت فيما بعد الكتاب[3]، كما اعتنى السلاطين والأمراء بالأضرحة تعلوها قبب[4].

تم بناء القصور والمنازل المختلفة أيضاً وذلك للسلاطين والأمراء والقادة للسكن الخاص[5]، كما بنيت مساكن عامة أي الخانات أو ما يعرف الآن بالفنادق، وهي وحدات معمارية تحوي فناء مكشوفاً يحيط به غرف مفتوحة يطلق عليها حواصل وهي مستودعات أو حوانيت وهذه الغرف تطل على الشارع الخارجي وهي غالباً تؤجر للتجار في حين غرف النوم في الطوابق العليا، أي فندق تحته سوق تجاري[6]، وهذه

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص22 ـ 179 ـ 233 ـ 239.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص36 ـ 38.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص 38.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص 40.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة 41 ـ 42.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص46آثارنا في الإقليم السوري ص37.

الخانات تختلف عن الوكالات التي هي أبنية خاصة للتجار القادمين للبلاد وفيها تحفظ بضائعهم حتى تباع، وفيها أيضاً غرف للسكن للمسافرين[1].

امتازت العمائر زمن السلاطين بجمالها ودقتها فتجد العقود المختلفة مثل العقد نصف الدائري والمدبب وحذوة الفرس والمفصص والعقد المدايني، وهو عقد ذو ثلاثة فصوص، وكذلك الأعمدة ببدنه المثمن الذي انتشر استخدامه زمن السلاطين[2].

توسعت المدن القديمة زمن عصر المماليك، ونشأت ضواح جديدة، وكان هناك دعم للمدن الصغيرة في عصر السلاطين[3].

كانت مدينة دمشق هي الثانية بعد القاهرة في عصر السلاطين من حيث الاتساع والكبر والأهمية، وكان سكانها أكبر عدداً من سكان مدينة باريس أو فلورنسة أو أي مدينة أوروبية أخرى في ذلك العصر.

بشكل عام ازدهر العمران وتوسعت أشكاله المختلفة بما فيها المرافق العامة كالجسور والطرق، وكانت التكاليف تدفع من قبل السلاطين والأمراء و (كان إسهام المماليك في المحافظة على التجهيزات المادية المدنية مكوناً أساسياً للاقتصاديات المدنية، وأدى إعادة التنظيم للموارد المالية التي قام بها السلطان الناصر محمد في 741هـ ـ 1341م إلى حدوث فائض من الثروة تم استثماره في ترميم الطرق والشوارع والأعمال المائية والأبنية الجديدة وإقامة المؤسسات والمعاهد الدينية بنسبة لم يسبق لها مثيل منذ أيام الأمويين، ومن ناحية أخرى فقد كان لسرعة النشاط إيقاعات متنوعة في مدن مختلفة بطرق تطابقت بإحكام مع سياسة المماليك السياسية)[4].

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص47.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص49 إلى 51.

[3] - مدن الشام في العصر المملوكي ص115 دمشق في عصر المماليك ص94.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص54.

فيما يلي بعض الأمثلة على العمران الذي بني في عصر السلاطين:

1 ـ شجرة الدر:

أنشأت أول ملكة إسلامية شجرة الدر القبة التي تقع في الجهة الشمالية الغربية لمدرسة زوجها الصالح نجم الدين ليدفن فيها، وكان محلها قاعة لشيخ المالكية، والجدير بالذكر أن ارتفاع الضريح حتى القبة حوالي 21 متراً[1]، كما لعصمة الدين شجرة الدر تربة بطريق المشهد الحسيني النفيسي[2]، وأنشأت شجرة الدر بجوار تربتها في شارع الخليفة في قسم الخليفة في القاهرة مدرسة عرفت فيما بعد باسم جامع شجرة الدر أو جامع الخليفة وقد تجدد بناؤه مراراً[3].

2 ـ بيبرس وابنه:

بنى الظاهر بيبرس في مصر مدرسته الظاهرية، وأضاف إليها ضريحاً له، وكذلك السبيل والكتاب[4]، كما أنشأ بيبرس خانقاه داخل باب النصر بخط الجمالية التي بناها بيبرس قبل أن يلي السلطنة[5]، كما بنى في الرحبة التي تعرف برحبة الحبارج قبة محمولة على اثني عشر عموداً من الرخام الملون[6]، وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة[7]، كما عمر بظاهر القاهرة اصطبلات وحوضاً للسبيل، وأنشأ قسطلاً كبيراً وأحاط به سوراً مشرقاً، كما أنشأ في سوق الخيل حماماً بناها لابنه سعيد وأنشأ الجسر الأعظم والقنطرة التي على الخليج[8]، وبنى

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص201 المماليك ص47 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج6 ص378.

[2] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص67.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج6 ص378.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص35.

[5] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص50 صور ومظالم في عصر المماليك ص78.

[6] - تاريخ الملك الظاهر ص340 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص191.

[7] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص190.

[8] - تاريخ الملك الظاهر ص342 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص191.

تربة للأمير فارس الدين أقطاي الذي قتله قطز[1]، وبنى السلطان أيضاً دار العدل التي عرفت بالقديمة للنظر في المظالم[2]، وموقعها تحت قلعة الجبل[3]، كما جدد قلعة الروضة في القاهرة بعد أن هدم جانباً منها المعز أيبك التركماني[4]، كما بنى السلطان قناطر السباع على طريق مصر التي سميت بذلك لنصبه عليها سباعاً من الحجارة، والسباع هو رنكه أي السباع علامته في ختمه وما يأمر به من المنشآت[5]، وتكاملت عمارة الدار الجديدة المرسوم بعمارتها عند باب السر الذي بالإيوان المطل على سوق الخيل[6]، وبنى قرية سميت الظاهرية وهي في السد قرب العباسية في مصر[7]، هذا واختار بيبرس قلعة اللانج لصلابته فأمر بقطع الأشجار حولها وهدموا البناء الذي حولها، وبنى قناطر أبي المنجي في القليوبية[8]، كما رمم بناء ما تهدم من منارة الإسكندرية التي قد تداعى أركانها وتحقق مشاركته في بنائها[9]، وبنى السلطان حوض ماء (مصنع)[10] ، وعمر مناراً في الجيزة حيث أمر بعمل جسرين أحدهما من مصر إلى الجزيرة، والآخر من الجزيرة إلى الجيزة، كما عمر أسوار مدينة الإسكندرية وخليج الإسكندرية، وعمر لثغر رشيد مناراً لرؤية مراكب الفرنج، ورسم بردم فم دمياط وتوعيره بالحجارة، ورسم بحفر أشموم طناح، وعمر

---

[1] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص79.

[2] - نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص157.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص189.

[4] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص67.

[5] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص74 ـ 75 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص492 تحفة الناظرين قيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج1 ص181 المماليك ص229 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص191.

[6] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص246.

[7] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص291.

[8] - تحفة الناظرين قيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج1 ص180 ـ 181 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص148.

[9] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص448.

[10] - نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص12.

بلدتي الظاهرية والعبدية عن العباسية[1]، وبنى باب القلعة، وسبب التسمية لأجل أنه كان هناك قلة[2]، كما أكمل السلطان بيبرس بناء عمارة بئر الليونة قريب الإسكندرية[3] وأكمل عمارة الحوض الذي يمر في قناة باب البريد، كما بنى بيبرس شاذروان وقبة وأنابيب يجري منها الماء إلى جانب الدرج الشمالي[4]، كما بنى بيبرس دار الذهب في قلعة الجبل، وحفر أنهاراً كثيرة وخلجان في بلاد مصر ومنها نهرالسرداس، كما جدد قبر الخليل عليه السلام وزاد في زاويته، وبنى المكان المنسوب إلى قبر موسى عليه السلام وقبة قبلي أريحا وجدد في القدس أشياء حسنة من ذلك قبة السلسلة، ورخم الصخرة غيرها، وبنى في القدس خاناً هائلاً وعمل طاحوناً وفرناً وبستاناً، وبنى على قبر أبي عبيد ة مشهداً، ووقف عليه أشياء للواردين، وعمر جسر دامية وجدد قبر جعفر الطيار في ناحية الكرك، وبنى في حلب داراً هائلة[5]، وأنشأ قيسارية عند أبي الفتوح وأخرى خارج باب الفتوح، كما أنشأ في الريدانية ربعاً وفندقاً وعدة مخازن[6]، وأنشأ بين النيل والخليج المصري ضيعة أسماها المنشية بدلاً من منشية الفاضل وأنشأ منية الشرج بل منية الأمراء التي كان البحر قد أتى عليها، وأنشأ في الشرقية ضيعة سماها الظاهرية وجدد قلعة في أرض برقة تسمى العمودين وقلعة في السويس وضيعة الجزيرة[7]، وبنى جسراً في القليوبية وجدد الجسر على بركة النيل، وبنى قنطرة عند القصير وقنطرة منية عنبرة وقنطرة البلهامة وقنطرة طوخ وقنطرة نوكية الغربي وقنطرة الخطارة وقنطرة المشعبة

---

[1] - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص82 ـ 83 الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص91 ـ 193 ـ 247.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص322.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص187.

[4] - البداية والنهاية ج13 ص246.

[5] - البداية والنهاية ج13 ص275 ـ 276 تاريخ الملك الظاهر ص389 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص191 ـ 194.

[6] - تاريخ الملك الظاهر ص345.

[7] - تاريخ الملك الظاهر ص347 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص192.

وقنطرة بوداود وقنطرة بحر طناح وقنطرة أقر وقنطرة شارمساج وهذا كله من القاهرة إلى دمياط، وبنى قنطرة على خليج القاهرة يمر منها إلى ميدان البورجي وقنطرة على خليج الإسكندرية[1]، كما حفر خليج الإسكندرية وحفر بحر طناح ويعرف ببحر أشموم، وحفرت ترعة الصلاح وحفر خور سونجا وحفر المحايري[2]، وحفرت ترعة كيسان وحفر ترعة أبي الفضل وحفر بحر الصمصام في القليوبية[3]، وبنى بيبرس زاوية للشيخ خضر في القاهرة خارج باب الفتوح بخط زقاق الكحل، تشرف على الخليج الكبير[4].

بنى الظاهر بيبرس في بلاد الشام قصره الأبلق في دمشق كان مبنياً مكان التكية السليمانية وحالياً المتحف الحربي[5]، وكان على واجهته مائة أسد منزلة صورها بأسود وأبيض، وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة صورها بأبيض وأسود [6]، وهو بناء عظيم بني من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر بتأليف غريب وإحكام عجيب[7]، وبنى المدرسة الظاهرية في دمشق وقبر السلطان الظاهر [8]، وعمر بيبرس الجسر المشهور بين قرارا ودامية وتولى عمارته الأمير جمال الدين محمد بن بهادر وبدر الدين محمد بن رحال والي نابلس والأغوار[9]، كما بنيت

---

[1] - تاريخ الملك الظاهر ص348 ـ 349 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص191 ـ 192 ـ 193.

[2] - تاريخ الملك الظاهر ص349 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص193.

[3] - تاريخ الملك الظاهر ص350 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص193.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص160 ـ 192.

[5] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص84 آثارنا في الإقليم السوري ص53 دمشق في عصر المماليك ص99 الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص82 ـ 84 تاريخ البصروي ص120 البداية والنهاية ج13 ص276 خطط الشام ج4 ص44 العصر المماليكي في مصر والشام ص213 ولاة دمشق في عهد المماليك ص20 ـ 44 دمشق في عصر المماليك والعثمانيين ص56 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص174 ـ 178.

[6] - خطط الشام ج4 ص122.

[7] - خطط الشام ج5 ص285.

[8] - مدن الشام في العصر المملوكي ص45 ـ 46.

[9] - البداية والنهاية ج13 ص147.

زاوية خضر العدوي في المزة، وكان هذا مشهوراً بشيخ الملك الظاهر بيبرس، وبنى له عدة زوايا في مصر والشام منها زاوية المزة في دمشق، وزاوية في ظاهر بعلبك، وزاوية في حماه[1]، وبنيت زمن السلطان بيبرس زاوية لشيخ بيرق، كانت داخل الثكنة العسكرية في حلب[2]، وتم بناء رباط علاء الدين البصير تجاه الرباط المنصوري من قبل الأمير علاء الدين أيدغدي[3]، وبنى السلطان في دمشق دار العدل والميادين الكثيرة التي أشهرها الميدان الأخضر وميدان الحصى[4]، كما أن الظاهر بيبرس جدد شرفات قلعة دمشق ورؤوس أبوابها التي كان التتار قد هدموها،وبنى فيها حماماً، كما جدد مشهد زين العابدين رضي الله عنه في جامع دمشق، وترخيم الحائط الشمالي وتجديد باب البريد وفرشه بالبلاط[5]، وبنى السلطان بعد فتح صفد وعمارة قلعتها بنفسه[6]، ورسم بيبرس بتجديد عمارة الخليل، وكتب بذلك لدمشق، وتوجه الأمير جمال الدين نهار فجددت الأخشاب والأبواب والدهانات وجددت كذلك الضرائح المقدسة[7]، ونفض قبة الصخرة في القدس، وعمل عوضها وغشاها بالرخام، وغشي الرخام بالرصاص وكتب عليها اسمه، وأنشأ خاناً للسبيل وطاحوناً وفرناً وبستاناً، وغير كنيسة المصلبة وصيرها زاوية[8]، وفي الكرك جدد في القلعة برجين وخندقاً مما يليهما وجدد في المدينة برجاً من شرقها وجدد برجاً يعرف بالداوية ويعرف بباب الرحمة، ونشر جسراً على تربة دامية على الشريعة بالغور وانشأ على العوجا وما حولها ثلاثة جسور وأنشأ جسراً بالقرب من اللد وجسراً

---

[1] - خطط الشام ج6 ص142.

[2] - خطط الشام ج6 ص151.

[3] - خطط الشام ج6 ص153.

[4] - دمشق في عصر المماليك ص99.

[5] - العصر المماليكي في مصر والشام ص213 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص195 .

[6] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص285 البداية والنهاية ج13 ص29 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص195.

[7] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص287 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص199.

[8] - تاريخ الملك الظاهر ص351 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص194.

في أمـدود وجسراً عـلى يبنـا وجسراً عـلى قـاقوم وأنشـأ قلعتهـا، وبنـى للشـيخ خضر زاوية[1]، وأنشأ في قلعة صفد صهريجاً وبنى عليه برجاً وبنى حماماً وساق إليها الماء من بركة اليتيم وبنى في الشقيف حماماً، وداراً لنائب السلطنة[2].

بنى في دمشق حماماً عند باب القلعة الشرقي، وحماماً خارج باب النصر، وبنى جسراً على الطريق من باب الميدان إلى سوق الخيل وبنى إلى جواره دار السعادة وجعل فيها دوراً برسم البريد[3]، وفي حمص جدد في المدينة دار الملك، وأمر بإنشاء خان في القدس الشريف وحوضاً بناه الأمير جمال الدين محمد المنصور، وجدد داراً برسم سكن نائب الملك، وأنشأ قلعة ستمبميس، والتي تهدمت بأيدي التتر وجدد في قلعة بلاطنس ثلاثة أبراج وجدد سور العليقة[4]، وأمر السلطان القيام بأعمال مختلفة في الخليل[5]، وأمر بإنشاء خان في القدس الشريف وحوض بناه الأمير جمال الدين محمد بن نهار[6]، وفي بانياس أعاد قلعة الصلبيبة بعد أن هدمها هولاكو سابقاً، فجدد بناءها وأنشأ لجامعها منارة وبنى داراً لنائب السلطنة، وعمل جسراً يمشي عليه إلى القلعة[7]، وأمر في عمارة القناطر في جسر شيرمنت[8]، ورسم بعمارة القلاع التي خربها هولاكو وهي قلعة بعلبك وقلعت الصلت وهي في جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون، وقلعة صرخد (صلخد)، وقلعة عجلون على جبل عوف، وقلعة بصرى وقلعة شيزر بالقرب من المعرة وقلعة حمص، وعمر خاناً في القدس الشريف وعمر قبة

---

[1] - تاريخ الملك الظاهر ص352.

[2] - تاريخ الملك الظاهر ص353 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص195.

[3] - تاريخ الملك الظاهر ص354 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص195.

[4] - تاريخ الملك الظاهر ص358.

[5] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص89 ـ 91 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص194.

[6] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص121.

[7] - الجولان أطماع العدو تاريخياً وبشرياً وجغرافياً واقتصادياً ص117 ـ 118 الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص82 العصر المماليكي في مصر والشام ص380 ـ 381 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص49 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص195.

[8] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص91.

بالصخرة وزاد في الخليل عليه السلام[1]، كما عمر قلعة قاقون بعد فتح قيسارية وأرسوف[2]، وكذلك بعدما فرغ السلطان من فتح القرين أمر الأمير عز الدين الأفرم وعز الدين ايبك العمارة فيها[3]، كما سير السلطان جمال الدين موسى بن يعمور بمباشرة حصن جزيرة بني نصر[4].

جدد السلطان بيبرس البيمارستان في المدينة فأمن ما يلزم من المواد لإتمام عمارة الحرم الشريف النبوي[5]، وبنى في زمن بيبرس الأمير أقوش النجيبي الخانقاه في عمارة القصر الأبلق (حارة الحلبوني) في دمشق، ولكن اندثرت، وكانت تعرف بالخانقاه النجيبية وله خان النجيبي على طريق الميدان لم يبق له أثر، كما بنى تربة ليدفن فيها في دمشق، ولكن دفن في مصر[6]، وبنى الأمير عز الدين أيدمر الظاهري الخانقاه العزية التي أنشأها على ضفة نهر ثورا عند الجسر الأبيض في صالحية دمشق، وبنى إلى جانبها رباطاً وتربة لدفنه[7].

بنى السلطان بركة خان بن بيبرس حماماً بالقرب من مدرسة الناصر حسن في القاهرة[8]، وفتحت في زمن السلطان السعيد بركة خان الخانقاه النجيبية[9].

3 ـ قلاوون وأولاده:

بنى السلطان قلاوون العديد من العمران في أنحاء مختلفة ويعود السبب بذلك لطول سلطنته، فقد بنى السلطان في مصر البيمارستان المسمى باسمه بالنحاسين

---

[1] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص93.

[2] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص275.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص385.

[4] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص90 ـ 193.

[5] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص265 الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص81 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص194.

[6] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص62 ـ 63.

[7] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص95.

[8] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص77.

[9] - البداية والنهاية ج13 ص280.

بين القصرين في القاهرة واندثر أغلبيته حالياً[1]، وهذا المشفى كان مقسماً إلى أربعة أقسام كبيرة قسم للحميات وقسم للرمد وقسم للجراحة وقسم للنساء وغيرها من الأقسام التي تتبع المشافي[2]، وبنى قبة مع مدرسته التي شيدت على رقعة من أرض القصر الفاطمي الصغير الغربي، وكان مكانها خان الزكاة حالياً موقعها على شارع المعز لدين الله[3]، وأنشأ الديوان ومكانه الآن جامع محمد علي باشا الكبير في القلعة في القاهرة وهي مكان يجلس فيه السلطان للنظر في المظالم أي كان بمثابة دار العدل والقضاء[4].

بنى السلطان قلاوون الصالحي الرباط المنصوري في باب الناظر في القدس[5]، وكذلك الرباط تجاه القلعة في القدس[6]، واشترك الأمراء والأجناد في حفر خليج الطبرية (ترعة المحاجر في جزيرة البحيرة)[7]، وعمر السلطان قلاوون مدينة جديدة قرب طرابلس بعد أن خرب القديمة[8]، وبعد احتلال السلطان قلعة الروم أمر

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص 46 ـ 202 ـ 206 ـ 288 تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص10 ـ 21 ـ 23 ـ 83 ـ 171 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص61 ـ 79 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص 122 الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص96 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج1 ص196 مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص165 الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص55 ـ 328 مصر والشراكسة ص63 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج4 ص47 ـ ج7 ص326.

[2] - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص98.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص203 ـ 204 ـ 209 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص61 ـ 79.

[4] - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص243 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص61 نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص157.

[5] - خطط الشام ج6 ص153.

[6] - خطط الشام ج6 ص156.

[7] - المماليك ص205.

[8] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج2 ص68 العصر المماليكي في مصر والشام ص74.

بعمارتها[1]، وبنى في عهد قلاوون قبة الخانقاه البندقدارية وقبة زين الدين يوسف[2]، وبنى قراسنقر الجوكنداري سبيل المقامات في حلب[3].

أنشأ السلطان خليل بن قلاوون قبة في شارع الأشرف في القاهرة من الجهة الشمالية من المشهد النفسي[4]، وجدد الإيوان الذي بناه والده[5]، وأنشأ قصر الأشرفية[6] وفي زمن السلطان خليل بنى الأمير حسام الدين لاشين خاناً تحت ثنية العقاب وعرفت بخان عياش في دمشق[7]، وأمر السلطان الأمير سنجر الشجاعي في بناء أبنية عظيمة في قلعة دمشق فبنى الدور السلطانية والطارمة والقبة الزرقاء، ووسع الميدان الأخضر ـ حالياً هو مكان بناء وزارة الداخلية ـ في دمشق[8]، وبنى الأمير أيبك الحموي الحمام الذي بناه في مسجد الأقصاب في دمشق[9]، وأمر السلطان خليل بعمارة قلعة حلب بعد أن خربت من قبل التتر[10]، وكان قد شرع قراسنقر في عمارتها أيام المنصور قلاوون وتمت في أيام السلطان خليل فكتب اسمه عليها[11]، وأمر السلطان خليل في عمارة الباب الوسطاني في قلعة حلب[12].

يعتبر السبيل الذي بناه الناصر محمد بن قلاوون في مدرسة أبيه في النحاسين من أقدم الأسبلة الباقية في مدينة القاهرة[13]، ويعلو السبيل قبة صغيرة كسيت

---

[1] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج2 ص74.
[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص103.
[3] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص218.
[4] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص81.
[5] - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص247.
[6] - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص208 المطبخ السلطاني ص68.
[7] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص70.
[8] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص77.
[9] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص79 البداية والنهاية ج13 ص323.
[10] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج2 ص73.
[11] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص13 ـ 190 ـ 196.
[12] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص198.
[13] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص38.

رقبتها ببلاطات من القاشاني عليها كتابات قرآنية غاية في الإبداع وألحق السبيل كتاباً[1]، وشيد أربع سواقي على النيل تنقل الماء إلى الأسوار ثم من السور إلى القلعة وأمر بعمل السواقي عند ساحل النيل واتصلت بها قناطر امتدت واتصلت بالقناطر القديمة كي تتجمع المياه في خزانين[2]، وجدد الناصر محمد قناطر السباع التي بناها بيبرس فتم توسيعها[3]، وجدد الناصر قبة النصر التي كانت زاوية في الصحراء تحت الجبل الأحمر يسكنها فقراء العجم[4]، وبنى السلطان القصر الأبلق ويقع في الجهة الغربية من القلعة في القاهرة[5]، وأنشأ بجوار القصر حديقة[6]، كما عمر السلطان محمد لأتباعه عدة قصور خارج القاهرة وداخلها[7]، كما عمرت جزيرة الفيل، وناحية براق، واتصلت العمائر من ناحية منية الشرج على النيل، وكانت تسمى منية الأمير أو الأمراء، وهي حالياً من الضواحي التابعة لمدينة القاهرة[8]، كما جدد السلطان بناء الإيوان بعد أن هدم[9]، كما بنى القاعات السبع التي تشرف على الميدان وعمر باب القرافة[10]، كما أنشأ السلطان قبة جليلة بجوار

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص204.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص103 الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص157.

[3] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص 492. نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص157.

[4] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص 485.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص147 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص84 ـ 85 الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص153 مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص9114 المطبخ السلطاني ص68 ولاة دمشق في عهد المماليك ص20 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص36 ـ 179.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص147.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص238.

[8] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص183.

[9] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص84 ـ 85 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص 322 الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص243.

[10] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص181.

مدرسته[1]، كما أنشأ خاناً للزكاة هدمت فيما بعد وأصبح مكانها مدرسة برقوق في القاهرة[2]، كما حفر السلطان محمد بئرين عميقتين، وركب السواقي والدواليب التي تديرها الأبقار فتنقل المياه إلى القناطر في سور القاهرة والقناطر العتيقة حتى تصل المياه إلى القلعة فتدخل إلى القصور وإلى دور الأمراء[3]، كما بنى جسراً خارج القاهرة[4]، وأنشأ السلطان جسراً بالنيل على جسر ابن الأثير[5].

بنى العديد من الأبنية مثل الحوش الفوقاني والدور والسواقي والقناطر مثل قناطر شيبين القصر على بحر أبي المنجا (ترعة الشرقاوية) فأنشئت تسع قناطر[6]، كما أمر السلطان في بناء جسر يمتد من شيبين القصر إلى بنها العسل، وجمع له اثني عشر ألف رجل ليعملوا على إنجازه، ثم أقام عدة قناطر وبذلك أمكن من وصول المياه إلى الأراضي المرتفعة في تلك النواحي[7]، كما بنى سد شيبين القصر[8]، وشيبين القصر تعرف الآن بشيبين القناطر ـ قليوبية، وكانت القناطر المكان الذي يمر عليه اليوم كوبري السكة الحديدية فيما بين قليوب والزقازيق وقد هدمت في عهد محمد علي باشا، وأقيم بدلاً منها قنطرة فم الخليلي، كما بنى السلطان محمد قناطر أم دينار وقناطر الخليج الناصري فعمر سبع قناطر، كما اعتنى السلطان محمد ببلاد الجيزة وعمل على كل بلد منها جسراً وقنطرة[9]، كما طلب السلطان إلى الأمراء إقامة جسر من بولاق إلى منية الشرج[10]، وتم بناء خانقاه

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص206 ـ 289.
[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص209.
[3] - نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص12 ـ 13.
[4] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص130.
[5] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص124.
[6] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص114.
[7] - العصر المماليكي في مصر والشام.
[8] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص130.
[9] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص130.
[10] - المماليك ص206.

سيرياقوس[1]، ويقع شمال القاهرة وجعل فيها مئة خلوة صوفي، وبنى حماماً ومطبخاً، وهي بالقرب من قرية سيرياقوس الحالية التابعة لمحافظ القليوبية، وبنى السلطان مناظر سيرياقوس[2]، كما أعاد السلطان حفر خليج الإسكندرية[3]، كما حفر الخليج الكبير المعروف بخليج الغور[4]، كما أمر السلطان بحفر خليج من البحر إلى حائط الرصد، وبحفر وسط الشرق المعروف بالرصد عشر آبار[5]، وبنى السلطان مناظر الميدان الكبير، وعمر الميدان تحت القلعة وميدان المهارة، وعمر الميدان عند مورة الجبس وميدان سوق الخيل، وبنى قصر يلبغا وغير ذلك[6]، كما جدد بناء باب القلة بعد أن سبق هدمها من قبل أبيه المنصور قلاوون[7]، وكان للسلطان محمد عناية كبيرة ببلاد الجيزة، حتى أنه عمل على كل بلد جسراً وقنطرة، وبنى جسر أم دينار وعرف الجسر فيما بعد باسم حليبة أم دينار[8]، كما بنى سد شيبين القصر وأنشأ جسراً خارج القاهرة[9]، كما جدد السلطان قلعة جعبر[10]، كما أمر السلطان بتركيب باب جديد للكعبة وأرسله السلطان مرصعاً

---

[1] - المطبخ السلطاني ص66 ـ 70 ـ 71 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص83.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص80 ـ 182.

[3] - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص114 البداية والنهاية ج13 ص280. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص178.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص124.

[5] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج10 ص160 ـ 210.

[6] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص84 ـ 85 العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص53 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص 105 الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص152 ـ 153 ـ 157 ـ 160 ـ 161 ـ 165 ـ 171 البداية والنهاية ج14 ص118 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص179 ـ 193.

[7] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص 322.

[8] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص190.

[9] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص192.

[10] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص211 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج9 ص172.

من السبط الأحمر كأنه أبنوس، فركب عليه صفائح من فضة زنتها خمسة وثلاثون ألف وثلاثمائة وعشر[1].

بني في عهد السلطان محمد قصر قوصون بناه يشبك بن مهدي ويقع خلف مدرسة السلطان حسن في ميدان صلاح الدين، ولم يبق منه سوى المدخل الرئيسي.

وأنشأ هذا القصر سيف الدين قوصون الساقي صهر السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وبنى قصر يشبك الناصري، ويقع بين القصرين في شارع المعز لدين الله في القاهرة أنشأه الأمير سيف الدين بشتاك[2]، كما بنى الأمير بشتاك حماماً لم يبق منه سوى مدخله المكسو بالرخام[3]، وبنيت خانقاه سنجر وسلار ويعرف باسم خانقاه الجاولي وتقع في شارع مراسينا حالياً في شارع عبد المجيد اللبان الموصول من ميدان السيدة زينب إلى ميدان صلاح الدين في القاهرة، وأنشأها سلار الناصري وجددها سنجر الجاولي[4]، كما فتحت الخانقاه التي أنشأها سيف الدين قوصون الناصري خارج باب القرافة[5]، وبنيت قبة سنجر المظفر[6]، كما ألحق الأمير علاء الدين طيبرس مدرسته حوض ماء وسبيلاً وخزانة[7]، وبنى الأمير قوصون (قوسون) وكالة تقع في شارع باب النصر إلى يمين الداخل من هذا الباب، وجعلها فندقاً للتجار[8]، وكما بنى الأمير قراسنقر تربة عمر فيها حوض سبيل ويعلوه مسجد[9]، وتم فتح حمام الزيت الذي في رأس درب الحجر وجدد عمارته وهو حمام جيد

---

[1] - البداية والنهاية ج14 ص162.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص42 ـ 139 ـ 212 ـ 289 العصر المماليكي في مصر والشام.ص381.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام.ص382.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص10 ـ 289.

[5] - البداية والنهاية ج14 ص173.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص104.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص172.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص47 ـ 233 ـ 289.

[9] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص238.

متسع[1]، وكملت عمارة الحمام الذي بناه الأمير علاء الدين صبيح جوار داره شمال الشامية البرانية[2]، وكذلك كملت عمارة الحمام الذي بناه بهاء الدين بن عليم بزقاق الماجية من قاسيون بالقرب من سكنه، وانقطع به أهل تلك الناحية ومن جاورهم في ذلك الوقت[3]، هذا وتمت عمارة جسر باب الفرج وعمل عليه باسورة وأمر باستمرار فتحه إلى ما بعد العشاء الأخير كبقية سائر الأبواب[4]، وبنى نائب الشام تنكز الدهشة وهي قيسارية تجارية شرقي الجامع الأموي عند باب جيرون، وبنى معها السوق المجاور لها اللبادين والوراقين، كما بنى تربة لزوجته ستيتة قرب النورية في دمشق، ويذكر أنه قد بنى قلعة جعبر[5]، وبنيت سوق ساروجا أو صاروجا شمال قلعة دمشق بناه صارم الدين صاروجا[6]، وأنشئت عدة أحياء منها حارة الشالق (الشالة) وحارة ابن صبح (حارة قولي) وحارة الجامع الكريمي (حارة جامع الدقاق في الميدان) وهذه الأحياء في دمشق وأنشأ تنكز دار الذهب القديمة وكانت داخل باب الفراديس (باب العمارة) ودار الذهب الجديدة، وكانت قبالة مدرسته دار القرآن الحديثة، وقام مكانها فيما بعد خان السبيعي بالبزورية مع قسم من قصر العظم، كما بنى قصراً ضخماً خارج دمشق في القطائع شرقي القدم وعرفت الجهة بالقصر، وداراً ضخمة جانب جامعه وحماماً قرب جامعه أيضاً، كما بنى في القدم خانقاه ورباطاً وحمامين وقيسارية وسوقاً، وساق الماء إلى المسجد الأقصى ومدينة القدس، وأنشأ في صفد مارستاناً[7]، وأمر ببناء حمام في القدس، وحين وصول القناة إلى القدس ـ صادف وصوله إليها أثناء رجوعه من مصر إلى دمشق ـ وأمر

---

[1] - البداية والنهاية ج14 ص98.

[2] - البداية والنهاية ج14 ص102.

[3] - البداية والنهاية ج14 ص103.

[4] - البداية والنهاية ج14 ص174.

[5] - تاريخ البصروي ص90 ـ 91 ولاة دمشق في عهد المماليك ص160 ـ 168 ـ 172.

[6] - تاريخ البصروي ص121.

[7] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص166 ـ 167 البداية والنهاية ج14 ص133 ـ 187 تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص234.

بعمارتها وتجديدها[1]، كما وسع الطرقات في الشام ظاهر باب الجابية من كل ما يضيق الطرقات[2]، كما أمر ببياض ودهان الجدران المقابلة لسوق الخيل في باب الفراديس وأمر بتجديد خان الظاهر[3]، كما بنى خانقاه في القدس ورباطاً وسوقاً موقوفاً على المسجد الأقصى[4]، وتم في زمن السلطان محمد بناء زاوية محمد الطعاني البسطامي في حارة الشماعين المشارقة في حلب[5]، كما بنى الأمير علم الدين سنجر الجاولي أبو سعيد بيمارستان الكرك وعمر الأمير المذكور في الكرك قصراً للنيابة وجامعاً وحماماً وخان السبيل والميدان[6]، وبنى محمد بن فضل الله بيمارستاناً في الرملة وآخر في نابلس، كما بنى أحواضاً لسقي الماء في الطرقات[7]، كما جدد في عهد السلطان محمد قلعة صلاح الدين (صهيون) وأنشأ فيها بالإضافة إلى الجامع المئذنة وحماماً[8]، كما بنى قناة جديدة في حلب لتحسين إرواء المدينة في حلب[9]، وسور الأمير قراسنقر حلب ومدينتها[10]، كما جلب الماء للأماكن المقدسة في القدس والجليل ونفذت قناة رئيسية وخزاناً لتزويد الماء في القدس[11]، كما تم بناء رباط كرد بباب الحديد بجوار السور تجاه المدرسة الأرغونية في القدس من قبل المعز السيفي صاحب الديار المصرية[12]، وتم بناء زاوية المغاربة في القدس من قبل

---

[1] - البداية والنهاية ج14 ص133.
[2] - البداية والنهاية ج14 ص152.
[3] - البداية والنهاية ج14 ص157.
[4] - البداية والنهاية ج14 ص187.
[5] - خطط الشام ج6 ص150.
[6] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص247 ـ 248.
[7] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص260.
[8] - آثارنا في الإقليم السوري ص94.
[9] - مدن الشام في العصر المملوكي ص48.
[10] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص151.
[11] - مدن الشام في العصر المملوكي ص124.
[12] - خطط الشام ج6 ص152.

الشيخ عمر بن عبد الـلـه عبد الغني المغربي المصمودي[1]، وكذلك تم بنـاء جسر نهـر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين أقطـاي المنصـوري النـاصري كافـل السـلطنة[2]، وكذلك نائب الشام أمر في عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت من قبـل أبي بكر بن البصيص البعلبكي، وعمر الأمير بشير الشهابي بإيعاز من والي صيدا جسراً عـلى نهر الدامور أيضاً[3]، كما كان الكثير مـن الأمـراء يتعهـدون بـأموالهم الخاصـة تطـوير أحياء كاملة وحتى مدناً صغيرة فمثلاً خصص الأمـير أسـندمر حـاكم مدينـة طـرابلس مبالغ لإنشاء المساجد والمدارس والحمامـات والخانـات والأسـواق في طـرابلس، وبنـى الأمير سنجر الجاولي قصراً وحماماً ومسجداً في الكـرك، وذلـك لاعتبـار هـذه المنشـآت هامة ومن العناصر الرئيسية لإقامة مدينة كاملة صحية[4]، كما عمر سـقوف المسـجد الحرام وإيوانه، وعمرت في مكة طهارة مما يلي على باب شيبة[5].

4 ـ بيبرس الجاشنكير:

قبل أن يتولى السلطنة أنشأ الخانقاه المعروفة باسـمه في رحبـة العيـد، وهـي مـا تزال موجودة بخط شارع الجمالية تجاه الدرب الأصفر بجوار جامع سنقر في القاهرة داخل باب النصر، وقد أنشأ بجانب الخانقاه رباطاً يتواصل إليـه مـن داخلهـا والحـق بها قبة كبيرة[6].

---

[1] - خطط الشام ج6 ص153.

[2] - خطط الشام ج6 ص300.

[3] - خطط الشام ج6 ص301.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص125 ـ 126.

[5] - البداية والنهاية ج14 ص133.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص219 ـ 235 ـ 237 ـ 289 نزهة الأسـاطين فـيمن ولي مصر مـن السـلاطين ص93 الجـوهر الثمـين في سـير الملـوك والسـلاطين ج2 ص137 حـوادث الدهور في مـدى الأيـام والشـهور ج1 ص 120 النجـوم الزاهـرة في ملـوك مصر والقـاهرة ج4 ص50 ج8 ص226 ـ 276.

5 ـ أحفاد قلاوون:

توج قبة للأمير علاء الدين كوجك بن محمد بن قلاوون[1].

بنى السلطان إسماعيل بن محمد قلاوون قاعة الدهيشة داخل القلعة في القاهرة على غرار مثيلتها بحماة،وهي عبارة عن قاعة كبيرة مرتفعة البناء مفروشة بأنواع البسط والمقاعد المزركشة[2]، كما رسم السلطان إسماعيل للأمير علم الدين سنجر الجاولي ببناء بيمارستان غزة، كما عمر حماماً هائلاً وخاناً للسبيل[3]، وبنيت الزاوية المهمازية غرب المدرسة المعظمة من الغرب منسوبة للشيخ كمال الدين المهمازي على مربع من الملك الصالح إسماعيل بن قلاوون[4].

انتهت في زمن السلطان الكامل سيف الدين شعبان عمارة قصر الأمير أرغون الكاملي في الجسر الأعظم تجاه الكبش، وهذا القصر مكانها مقابل الجامع المعروف بحوش إبراهيم شركس، والجسر الذي يعرف اليوم باسم شارع مراسينا في قسم السيدة زينب في القاهرة[5]، وبنى الأمير سيف الدين يلبغا نائب دمشق قيسارية ظاهر باب الفرج في دمشق، وكان في وسطها بركة ومسجد ظاهرها دكاكين وأعمالها بيوت للسكن[6]، وبنيت الزاوية الجوشنية الأقصراوية نسبة لمنشئها علي الشيخ إبراهيم الكازروني[7].

في عهد السلطان حاجي بن محمد قلاوون شيد نائب دمشق سيف الدين يلبغا اليحياوي قبة النصر وتعرف باسمه وتقع في القدم في دمشق، اتخذت محطة ومركزاً

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص263.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص180 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص98 نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص164 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج10 ص89.

[3] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص247.

[4] - خطط الشام ج6 ص153.

[5] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج10 ص127.

[6] - البداية والنهاية ج14 ص149.

[7] - خطط الشام ج6 ص149.

لاستقبال القادمين من مصر ولتوزيع الذاهبين إليها[1]، كما تم الفراغ من بناء الحمامين الذين بناهما نائب السلطنة بالقرب من الثابتية في خان السلطان الضيق[2]، في حي السريجة في دمشق، وبنى قيسارية عظيمة في حارة الفرج لا وجود لها حالياً[3].

توجد للسلطان حسن تربة بالقرافة في سوق الخيل[4]، وتوجد فسقية وتعني نافورة من أروع الأمثلة للفسقيات وتوجد في صحن مدرسة حسن[5]، كما تم إنشاء البيمارستان الأرغون الكاملي في محلة قنسرين في حلب[6]، وتم في عهد السلطان حسن بناء خانقاه شيخون وتسمى الخانقاه الشيخونية من إنشاء الأمير الكبير يوسف الدين شيخون العمري في خط الصليبة قرب ميدان صلاح الدين في القاهرة[7]، كما بنيت خانقاه الأمير صرغتمش[8]، كما أنشأ الأمير سعد الدين بشير الجمدار الناصري سبيلاً وكتاباً عند الباب الجنوبي للجامع الأزهر في القاهرة[9]، وكذلك بنى الأمير سيف الدين منجك اليوسفي صهريجاً عرف باسمه ويقع خارج باب الوزير[10]، ومن آثار الأمير سيف الدين منجك اليوسفي في دمشق خانه الذي كان خارج باب النصر وحمام في العمارة وقد حول إلى دور فيما بعد، وزاوية في الكسوة

---

[1] - تاريخ البصروي ص50 ولاة دمشق في عهد المماليك ص191 ـ 195 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص54.

[2] - البداية والنهاية ج14 ص220.

[3] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص191.

[4] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص101.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص36.

[6] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص201 خطط الشام ج6 ص66 تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص252 ـ 158 آثارنا في الإقليم السوري ص77.

[7] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص105 الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص39 ـ 109 ـ 113 ـ 289 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص271.

[8] - تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج2 ص16.

[9] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص173.

[10] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص418.

جعل بها دار ضيافة للمسافرين[1]، وبنيت زاوية قطليجا في محلة محمد بك في حلب[2]، كما بنيت زمن السلطان حسن الزاوية الشيخونية بالقرب من الصلاحية عن سويقة باب حطه في القدس من قبل الأمير سيف الدين قطيشا بن علي من رجال قلعة دمشق[3].

في عهد السلطان الصالح صلاح الدين بنى محمد بن الأمير سيف الدين قصره بجوار المدرسة البندقدارية تجاه حمام الفارقاني على يمين من سلك من الصليبة، وتولى الأمير منجك اليوسفي في بنائها وعرفت فيما بعد باسم مدرسة السيوفية في شارع السيوفية في القاهرة[4]، كما كتب على قسطل عند حمام التل في حلب بأن أمر بعماره من قبل الأمير بيبغا[5]، كما بنيت زاوية الطواشية في حارة الشريف وتعرف بحارة الأكراد في القدس من قبل الشيخ شمس الدين محمد جلال الدين[6].

أكمل في عهد السلطان محمد بن حاجي مدرسة السلطان حسن من قبل بشير الجمدار، وتم بناء القبة الكبيرة التي تقع خلف جدار القبة للمدرسة المذكورة[7]، وأقيمت حفلة بمناسبة الانتهاء من تكامل تجديد بيمارستان الدقاني جوار الجامع الأموي من قبل الغرب بدمشق[8]، ومن المعروف أن نواعير حماه تعود إلى عصور مختلفة لكن من أقدمها اثنتين من العصر المملوكي وهما المحمودية[9]، كما بنيت زاوية تكية باب بيرم للقلندية[10] في حلب، وتم بناء الرباط المارديني بباب حطة مقابل

---

[1] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص215.
[2] - خطط الشام ج6 ص151.
[3] - خطط الشام ج6 ص153.
[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج10 ص265.
[5] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص216.
[6] - خطط الشام ج6 ص153.
[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص124.
[8] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص259 ولاة دمشق في عهد المماليك ص225.
[9] - آثارنا في الإقليم السوري ص103.
[10] - خطط الشام ج6 ص151.

الكاملية وهي بجوار التربة الأوحدية في القدس، وتم بناء الزاوية المحمدية بجوار البارودية من جهة الغرب في القدس من قبل محمد بن زكريا الناصري[1].

أمر السلطان الأشرف شعبان بن حسين بعمارة الإسكندرية وإصلاح ما تهدم منها إثر هجوم الإفرنج عليها، وذلك حينما كان السلطان يجاهد في سيرياقوس، وحين عودة السلطان هرب الفرنجة منها[2]، وبنى الأمير بكتمر المؤمني أمير أخور السلطان شعبان سبيل المؤمني أو المؤمنين تحت قلعة الجبل في شارع العطارين[3]، وفي عهد منكلي بغا أكمل بناء القيسارية قبلي سوق الدهشية[4]، كما برز مرسوم من السلطان بأن يسمح لنائب دمشق منكلي بغا الشمسي بإعادة فتح باب كيسان حيث كان مغلقاً أكثر من مائتي عام من وقت إغلاقه في عهد نور الدين الشهيد، وباب كيسان ينسب إلى كيسان مولى معاوية، كما يسميه النصارى باب يونس، وهو أحد أبواب سور دمشق، ويقع في الزاوية الشرقية الجنوبية، كما عقد عليه قنطرة كبرى ومد له إلى الطريق المسلوك جسراً، وعمر الخان عند جسر الجامع، وكذلك الخان في سعسع على طريق دمشق القنيطرة، والخان المذكور غير خان سنان في سعسع[5]، كما تكاملت عمارة حمام منجك في بصرى الشام في محافظة درعا[6]، ونذكر أقدم مثال للسبيل والكتاب هي الموجودة بمدرسة الجالي اليوسفي التي أنشأت في عهد السلطان شعبان[7]، بنيت زاوية مقرها عند جامع الطواشي في حلب بنيت من قبل أمير السلاح ألجاي فجعلها للفقراء والمترددين والصالحين الواردين إليها[8]، كما بنيت زاوية تجاه بستان الكلاب في جنوبي بستان إبراهيم آغا من

---

[1] - خطط الشام ج6 ص153.

[2] - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ص222.

[3] - تاريخ البصروي ص37.

[4] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص228.

[5] - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص121 أنباء الغمر بأبناء العمر ص58.

[6] - أنباء الغمر بأبناء العمر ص12.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص38.

[8] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص210.

إنشاء بدر الدين بن زاهرة منتزهاً من بعد جلبان كافل حلب وجعلها زاوية وهي اندثرت، وكذلك بنيت زاوية القادرية وتنسب للأمير جلبان على رأس باب الجنان[1].

في عهد السلطان حاجي بن شعبان ومن أعمال المقر السيفي جركس الخليلي تم إنشاء جسر بين الروضة والجيزة في مصر وعمل طاحونة تدور بمياه النيل وحفر وسط البحر خليجاً إلى فم الخليج الناصري عند موردة الجبس[2]، كما أنشئت قبة يونس (أنس) الدوادار، تقع في الجهة البحرية الغربية بالخانقاه الظاهر فرج بن برقوق بقرافة المماليك[3].

في سورية عقد جسراً بحجارة على نهر بردى عند جامع يلبغا حيث كان فيما سبق مصنوعاً من الخشب، وعمل الجسر الطنبغا أستدار جندمر، ثم عمل نظيره مقابله على نهر الخندق ويدعى النهر حالياً بنهر عقربا وقديماً سمى النهر المجدول[4].

6 ـ برقوق وأولاده:

بنيت خانقاه برقوق في شارع النحاسين، وجعلت الخلوات منفصلة في أربع وحدات سكنية[5]، وهناك له تربة معظمة حافلة هائلة في الصحراء بمدافن الخلفاء، وكان الابتداء بعمارتها 801هـ وفرغ منها 813هـ وجدد السلطان القناة التي تجعل النيل إلى قلعة الجبل، وأصلح الميدان تحت القلعة، وبنى صهريجاً للماء ومكتباً، كما أقام طاحونة في القلعة وسبيلاً تجاه باب بيت الضيافة وأمام القلعة[6]، وأقام برقوق جسراً على النيل بين جزيرة أروى (الزمالك) وجزيرة الروضة من طرفها البحري، وهذا الجسر الذي عجز عن إقامته كثير من السلاطين السابقين لبرقوق،

---

[1] - خطط الشام ج6 ص150.

[2] - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج2 ص260 أنباء الغمر بأبناء العمر ص783 ـ 784.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص27 ـ 289.

[4] - أنباء الغمر بأبناء العمر ص274.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص39 الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسية ص70 مصر والشراكسة ص107.

[6] - قيام دولة المماليك الثانية ص107 الجوهر الثمين في ملوك مصر والقاهرة ج12 ص115.

وعهد برقوق بإقامة هذا الجسر إلى الأمير جهاركس (جاركس) الخليلي[1]، كما أنشأ برقوق قاعة جديدة للمظالم[2]، وبنى السلطان قناطر بني منجا وأحكم عمارتها، كما توجه شهاب الطيلوني لبناء برجين في دمياط[3]، كما بنى برقوق زاوية البرخ في دمياط[4]، وسور دمنهور[5]، كما أصلح برقوق قلعة دمشق وصار لهذا الإصلاح أكبر الأثر في مقاومة هجمات الأعداء من التتار فيما بعد[6]، كما نفذت على حساب السلطان برقوق الترميمات المختلفة للقناة الرئيسية ومشروع تزويد القدس بالماء[7]، كما بنى السلطان قناة العروب في القدس[8]، كما بنى السلطان برجاً في العريش في فلسطين[9]، ومن قبل السلطان أيضاً تم إنشاء جسر على نهر الأردن (الشريعة) في الغور بين دمشق وبانياس[10]، وبنى أيضاً بركة بطريق الحجاز، وبركة أخرى برأس وادي بني سالم[11].

أنشئ في عهد السلطان برقوق فندق وربع ينسب للأمير جمال الدين يوسف أستادار، وأمر السلطان برقوق أن تكون دار وكالة يرد إليها القادم من الشام ومن

---

[1] - قيام دولة المماليك الثانية ص106 ـ 107.

[2] - نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص157 ـ 158.

[3] - أنباء الغمر بأبناء العمر ص308.

[4] - قيام دولة المماليك الثانية ص107 الجوهر الثمين في ملوك مصر والقاهرة ج2 ص114.

[5] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج12 ص114.

[6] - قيام دولة المماليك الثانية ص107.

[7] - مدن الشام في العصر المملوكي ص124.

[8] - قيام دولة المماليك الثانية ص107 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج12 ص114.

[9] - تاريخ البصروي ص74.

[10] - مدن الشام في العصر المملوكي ص367 خطط الشام ج5 ص301 قيام دولة المماليك الثانية ص107 مصر والشراكسة ص57 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج12 ص113.

[11] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج12 ص114.

البحر المتوسط[1]، كما أنشأ الأمير جهاركس الخليلي خاناً وعرف باسمه ولم يبق له أثر سوى الاسم[2].

بني في عهد السلطان حمام الود ويقع إلى الشمال من جامع الورد في سوق ساروجة في دمشق[3]، وبني في دمشق خانقاه اليونسية أول الشرف الأعلى شمالي شرقي الخانقاه الطواريسية أنشأها الأمير يونس داودار الظاهر برقوق وهدمت فيما بعد وجعلت طريقاً[4]، كما بنيت زاوية الجعفرية في زقاق فرن جقجوقه في سويقة حاتم في حلب[5]، كما بنى السلطان بركة بطريق الحجاز إلى الحج، كما جددت خوند شرين الخوزي في مكة[6].

تم بناء مدفن السلطان برقوق الذي تمت عمارته في عهد ابنه الناصر فرج وقد روعي في تصميمه أن يكون على هيئة مجمع يضم مسجداً كبيراً وضريحاً للظاهر برقوق وأفراد أسرته وخانقاه للصوفية[7]، وبنى السلطان فرج خانقاه (الناصرية) وقبة عرفت باسمه وتقع في الجزء البحري في قرافة المماليك بجوار قبة يونس الداودار في القاهرة وشاركه في بعض كمالياتها أخوه السلطان عبد العزيز[8]، كما عمل فرج زاوية عرفت باسمه أيضاً[9]، كما بنيت زاوية شمالي جامع جراح في دمشق للمغاربة وتعرف بزاوية المغاربة أنشأها علاء الدين الشهير بابن وطية الموقت[10]، وبعد أن خرب

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص240.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص245 السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص هـ من المقدمة النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج11 ص384.

[3] - تاريخ البصروي ص143.

[4] - خطط الشام ج6 ص137.

[5] - خطط الشام ج6 ص150.

[6] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص18.

[7] - العصر المماليكي في مصر والشام ص381.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص39 ـ 230 ـ 288 الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسية ص70.

[9] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص252.

[10] - خطط الشام ج6 ص141.

تيمورلنك أسوار قلعة حلب حرقها إلى أن جاء الأمير سيف الدين حكم نائباً من قبل السلطان فرج فأمر ببناء القلعة وألزم الناس بالعمل في الخندق وإزالة التراب منه حتى أنه عمل بنفسه أيضاً[1].

أنشئت في عهد السلطان فرج قبة كزل (كركر) في الصحراء الشمالية من قبل أحد أمرائه وهو الأمير كزل بن عبد الله الناصري الظاهري[2]، وبعد الحريق في المسجد الحرام أواخر شهر شوال عام802هـ أعيد ما حرق وأعيد السقف خشبياً كما كان[3].

7 ـ الشيخ المؤيدي:

أهم ما قام به السلطان هو بناء البيمارستان تجاه طبلخانة القلعة، بسكة الكومي، ولم يبق منه سوى بقايا[4]، كما بنى السلطان السد بين الجامع الناصري وبين جزيرة الروضة[5]، كما بدأ بحفر البحر تجاه منشآت المهراني[6].

خرب المغول سور حلب عام 658هـ فأعاد المماليك إنشاءه وجعلوا له أبواباً تغلق، ثم اقتحمها المغول، بزعامة تيمورلنك أواخر القرن الرابع عشر الميلادي فخربوا السور فأعيد ترميمه وتقويته، وكان أكثر السلاطين عناية بحلب وأسوارها السلطان المؤيد شيخ، كما جدد في عهد المؤيد شيخ باب إنطاكية[7]، وكذلك البرج عند باب فنسرين[8].

---

[1] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص196.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص271 ـ 288.

[3] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج2 ص85.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص46 ـ 140 ـ 289 تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص10 ـ 172 ـ 177 مصر والشراكسة ص107.

[5] - المطبخ السلطاني ص69 المماليك ص206.

[6] - المطبخ السلطاني ص69.

[7] - آثارنا في الإقليم السوري ص72.

[8] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص213.

أعاد أحد الأمراء في عهد المؤيد مدينة صور وأضاف إليها تحصينات وأسواقاً جديدة[1]، كما بنى نائب دمشق جقمق الداودار سوقاً عرف باسمه ويقع قرب خان (التكة) أو (الدكة) كان في أول سوق مدحت باشا يباع فيه الثياب كما بنى خاناً أيضاً[2].

8 ـ الأشرف برسباي:

بنيت خانقاه الأشرف برسباي وهي عبارة عن خانقاه لإقامة الصوفية ولها حوش كبير، وفيها قبة لأخيه الأمير يشبك وأقاربه، وفيها مصلى وتوجد فيها قبة حجرية ويلاحظ زخرفة القباب من الخارج فأصبحت تكسو سطح القبة كلها. هذا وتقع الخانقاه تجاه منشآت السلطان الأشرف قايتباي في القاهرة[3]، وتوجد تربة بالصحراء في القاهرة بجوار تربة الناصر فرج[4]، وله قناطر[5].

اعتنى برسباي بقلعة حلب فبنى الأسوار الخارجية له وجدد باب المقام[6]، كما بنيت زمن السلطان زاوية تغري برمش، كافل حلب قرب جامع الأطرش في حلب[7].

9 ـ الظاهر جقمق:

بنى السلطان جقمق رصيفاً هائلاً في بولاق، وجسراً في أسيوط، وسوراً في خانقاه سيرياقوس، وقرر لأهل الحرمين دهشة للفقراء في كل يوم، وكان مهتماً بالترميمات لأماكن العمران المختلفة وتجديدها وخاصة القناطر والجوامع ونحوها من المصالح العامة، فتجدد قناطر بني منجا وقنطرة باب البحر، وقناطر يبري

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص126.

[2] - تاريخ البصروي ص181.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص41 ـ 174 الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسية ص70 مصر والشراكسة ص107.

[4] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص131 من مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص313.

[5] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص13.

[6] - آثارنا في الإقليم السوري ص72 ـ 73.

[7] - خطط الشام ج6 ص151.

الدمسيس، وقناطر أمين الدين اللاهوت في مصر، وقناطر الرستن بين حمص وحماة[1].

بنى تغري بردى تربة هائلة بالقرب من تربة الأشرف إينال في الصليبة والآن هي بحي طولون ووقف كتبه وتصانيفه بها، كما بنى سبيلاً وكتاباً في الجانب الأيمن من الواجهة الشرقية يسار الداخل إلى مدرسته[2].

10 ـ الأشرف إينال:

بنى الأشرف إينال تربة حسنة في الصحراء في الصليبة في شارع السلطان أحمد بقرافة قايتباي في حي طولون، ولم تكن مجرد تربة فقط، وإنما كانت إلى جانب ذلك مجموعة معمارية، أريد منها الصلاة والتعليم[3]، وبنى السلطان خانقاه أيضاً[4]، كما تم بناء رباط زوجة السلطان إينال في شارع الخرنفش في القاهرة[5].

بنيت في عهد السلطان إينال القنوات والنواعير في حرم الخليل[6]، كما تم عمارة القبة التي أنشأها أحد الأمراء في منشية المهراني[7].

11 ـ الأشرف قايتباي:

أنشأ السلطان قايتباي أيام سلطنته العديد من الأعمال العمرانية في جميع أنحاء سلطنته نذكر منها ما أنشأها في القاهرة فقد بنى جامعاً بباب الخزف عند الشيخ سلطان شاه، وأنشأ بقربه سبيلاً ومكتباً. كما أنشأ زاوية في المرج والزينات، وأنشأ

---

[1] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص134 ـ 135 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج2 ص38.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص106 حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص25.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص106 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص37 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج2 ص38 مصر والشراكسة ص107.

[4] - الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسية ص70.

[5] - مصر والشراكسة ص107.

[6] - مدن الشام في العصر المملوكي ص124.

[7] - الطرب في العصر المملوكي ص102.

السبيل برأس سويقة عبد المنعم وأنشأ عدة زوايا، وسبيلاً وصهاريج وعدة ربوع وحوانيت في القلعة وأنشأ المقعد داخل الحوش وبيتين حوله، وبنى حواصل بجوار قاعة البحرة، وجدد عمارة الإيوان الناصري في القلعة، وكذلك قاعة العرش فيها أيضاً، وأنشأ مواضع كثيرة في القلعة، وجدد عمارة قنطرة باب البحر، وجدد عمارة أبو المنجا والقنطرة التي في شرمنت في الجيزة، وأنشأ هناك رصيفاً، وجدد عمارة قنطرة باب البحر، وجدد عمارة الميدان الكبير الذي بجوار بركة الناصري وقد أنشأ مقعداً وحديقة في دار البقر التي تحت القلعة، وجدد مقام سيدي أحمد البدوي، وأنشأ عدة قناطر وجسور في الشرقية والغربية، وأنشأ السبيل والمكتب قرب سوق تحت الربع وجدد عمارة الإمام الشافعي رحمه الله، وأنشأ زوايا في القاهرة، وأنشأ قرب جامع الأزهر، وأنشأ الخان الذي كان عند خان الخليلي[1]، وجدد بناء زاوية الشيخ عماد الدين، وجدد عمارة باب القرافة، وأنشأ مقعداً ومبيتاً وحديقة بدار البقاء تحت القلعة، وأنشأ عدة ربوع في الخشابين والبندرقانيين والجامع الأزهري[2]، وغير ذلك، كما بنى السلطان سبيلاً وكتاباً مستقلاً عن أي بناء آخر، ويقع في نهاية شارع الصليبة بالقرب من ميدان صلاح الدين في القلعة[3]، كما جدد السلطان سبيل المؤمني أو المؤمنين تحت الجبل في القاهرة في شارع العطارين[4]، كما بنى قبة حجرية على مقرنصات[5]، وبنى قصر الجوهرة وتقع جنوبي جامع محمد علي باشا في القلعة[6]، كما بنى الوكالة التي سميت في شارع النصر في

---

[1] - القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص125 العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص266 ـ 267.

[2] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص206 ـ 207 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص145 آثارنا في الإقليم السوري ص115 مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ص317 ـ 318 القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص125.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص117 ـ 118 ـ 289.

[4] - تاريخ البصروي ص37.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص41 ـ 276 مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ص313.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص155.

القاهرة[1]، كما بنى وكالة السلطان قايتباي في شارع الأزهر، وبنى بيت السلطان في سكة المارداني، وبنى سبيلاً وكتاباً في شارع شيخون، كما بنيت أيضاً في عهده قبة الفداوية في شارع العباسية، وكذلك مقعد بيت القاضي ، ويعرف باسم مقعد ماماي في ميدان بيت القاضي وكل هذه الأمكنة في القاهرة[2]، كما بنى السلطان خانقاه[3]، ويعتبر مدفن قايتباي في الصحراء الشرقية في القاهرة من أهم العمائر الباقية في عصر السلاطين الشراكسة[4].

أنشأ السلطان في الإسكندرية برج المنار العظيم مكان المنار القديم وحصن الإسكندرية، كما بنى برجاً في ثغر رشيد وحصناً فيها[5]، وبنى حصن دمياط[6].

بنى في بلاد الشام بيوتاً ودكاكين في دمشق، وبنى حمام السلطان قايتباي قرب حمام الحموي في زاوية أول الطريق المتجهة من مسجد الأقصاب إلى باب السلام في دمشق وعلى رأس الحمام اسم قايتباي، كما بنيت وكالة بالقرب من الحمام اندثرت كما نفذ قناة رئيسية ومشروع خزان لتزويد القدم بالمياه، كما جدد السلطان قنوات جر المياه[7].

جدد في حلب باب الفرج[8]، وكذلك جدد السلطان في حلب قسطل الرمضانية[9]، وانتهت أعمال تجديد وإعادة عمارة وفتح قلعة

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص233 ـ 290 مصر والشراكسة ص108.

[2] - مصر والشراكسة ص108.

[3] - الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسية ص70.

[4] - العصر المماليكي في مصر والشام ص381 مصر والشراكسة ص85.

[5] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص206 ـ207. نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص113 مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ص323 القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص125 مصر والشراكسة ص85.

[6] - مصر والشراكسة ص85.

[7] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص206 ـ266 ـ 267 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص164 مدن الشام في العصر المملوكي ص124.

[8] - آثارنا في الإقليم السوري ص73 تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص212.

[9] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص215.

عينتاب[1]، وحينما وصل السلطان في رحلته للشام إلى العريش بنى برجاً فيها[2]، كما رسم السلطان قايتباي عمارة خان وادي التيم، كما أمر أيضاً السلطان بعمارة جسر قرب مناظر الدركوش، كما أمر بإعادة الجسر الذي عمره السلطان إينال في تغري بعد أن خرب وردم، كما أمر بعمارة خان في سعسع على طريق دمشق القنيطرة، كما أمر بإصلاح قلعة صفد وعمارتها وإجراء الماء إلى البلد من العين[3].

جدد في الحجاز عمارة المسجد النبوي الشريف، كما أنشأ في مكة عدة ربوع[4]، كما حفر في نمرة صهريجاً وعمر بكرة خليص وأجرى العين الطيبة لها وعمر سقاية سيدنا عباس وأصلح بئر زمزم والمقام[5].

بأمر من السلطان للأمير يشبك (أشبك) بن مهدي الداودار تم تعلية وإصلاح باب زويلة في القاهرة[6]، بعد أن أصلح قصر قوصون للأمير يشبك زاد فيه زيارات ونقش اسمه ولقبه ورنكة على جانبي مدخل القصر[7]، والجدير بالذكر أن يشبك أنشأ أشياء كثيرة غيرها من العمائر في الديار المصرية من ربوع وحوانيت ودور جليلة وصهاريج (خزانات مياه) ومغاسل وأسبلة وزوايا، كما أنشأ قبة الطربة، وقبة برأس الحسينية[8]، وبنى الأمير أزبك بن ططخ الجركسي قصره المشهور في المنطقة التي عرفت باسمه وهي (الأزبكية)، وأنشأ حديقة الأزبكية المعروفة في وسط القاهرة وأجرى إليها الماء وأنشأ فيها البساتين والمباني والحمامات ثم حفر بركة، وجمل شواطئها وكذلك من منشآته قناة الجيزة[9]، أما بلباك فأنشأ النواعير في حماة

---

[1] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص129.

[2] - تاريخ البصروي ص74.

[3] - القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص52 ـ 60 ـ 64 ـ 89 ـ 92.

[4] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص206 نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص145 ـ 146.

[5] - مصر والشراكسة ص85.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص192.

[7] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص139.

[8] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص175 ـ 176 تاريخ البصروي ص48.

[9] - مصر والشراكسة ص80 ـ 134.

المعروفة باسم المأمورية[1]، وبنى أزدمر بن عبد الله الشركسي والي حلب فيها العديد من المباني منها خان في سوق الصابون، وحمام في ساحة باب المقام، وأقام تربة بقرب سوق الأنصاري، كما جدد سبيلاً من قبل برد بك، كما بنيت زاوية الحزيراتي في حلب من قبل قانصوه اليحياوي كافل الحلبية[2]، وتم بناء الرباط الزمني في باب المتوضاء تجاه المدرسة العثمانية في القدس من قبل شمس الدين محمد بن الزمن أحد خواص الملك قايتباي[3].

12 ـ قانصوه المحمودي:

أنشأ السلطان الظاهر قانصوه أبو سعيد قبة في القاهرة[4].

13 ـ الأشرف جانبلاط:

صاحب التربة خارج باب النصر، ذات المنارة بالرأسين وذات القبتين وله الدار الحافلة بخط الكافوري[5].

14 ـ العادل طومان باي:

أنشأ السلطان تربة حافلة أيام أمرته بالريدانية[6] كما أنشأ في حلب خاناً عرف باسمه قرب العين المباركة في الجنوب الغربي من حلب[7].

15 ـ قانصوه الغوري:

جدد السلطان العديد من العمران فمثلاً جدد الميدان وأعلى شرفاته وهو يقع تحت القلعة، وأنشأ في الجهة الغربية من الميدان قصراً ومنظرة وبحرة، وأنشأ قصراً على باب الميدان مطلاً على الرملة، وأمر بتجديد عمارة سبيل المؤمني، وجدد

---

[1] - آثارنا في الإقليم السوري ص103.

[2] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص183 ـ 207 ـ 210.

[3] - خطط الشام ج6 ص152.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص144 ـ 290.

[5] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص152.

[6] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص154.

[7] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص84.

أماكن في القلعة منها الدهيشة، وقاعة البيسرية، وقاعة العواميد[1]، وقاعة البحرة، وأنشأ المقعد القبطي الذي في الحوش، وجدد عمارة المطبخ وعمارة القصر الكبير الذي في القلعة وسائر البيوت فيها[2]، وأنشأ في الميدان القلعة المجراة ودارت الدواليب فيها وجرى الماء في المجراة حتى وصل إلى الميدان الذي تحت القلعة[3]، ومن الجدير بالذكر قصر قانصوه الغوري الذي بالصليبية بالقرب من جامع ابن طولون وما زالت أثار منه باقية، كما بنى أبنية كثيرة في مكان قصر الجوهرة الذي يقع جنوبي جامع محمد علي باشا في القلعة في القاهرة[4]، ومن أكمل الوكالات التي احتفظت إلى اليوم بالكثير من معالمها وكالة قانصوه الغوري التي تقع بحي الأزهر في الغورية، كما هدم السلطان الغوري خان الخليلي وأنشأ مكانه حواصل وحوانيت وربوعاً ووكالات يتوصل إليها من ثلاث بوابات[5]، وكذلك أمر السلطان الغوري بإبطال المجرى القديم عند درب الخولي بالقلعة في القاهرة، وشرع في بناء مأخذ ذي ست سواق (أقنية) على النيل عند فم الخليج تسير في قناطر تمتد لتتلاقى عند بقايا قناطر الناصر محمد بن قلاوون بالقرب من مشهد السيدة، ثم بسور صلاح الدين القديم وظلت تؤدي أعمالها إلى القرن التاسع عشر[6]، كما بنيت قبة مدفن وخانقاه ومقعد الغوري وتقع هذه المنشاة على رأس تقاطع شارع الغورية بشارع الأزهر، تحتوي على واجهتين الغربية وتشرف على شارع الغورية الشمالية وتطل على شارع الأزهر[7]، وأقام السلطان قلعة الطينية على ساحل بحيرة المنزلة وفيها عدة

---

[1] - مصر والشراكسة ص98.

[2] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص156 ـ 157 نور المقابس في تواريخ الجراكس ص13.

[3] - مصر والشراكسة ص97.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص47 ـ 105 ـ 155 ـ 290.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص179 ـ 233 ـ 246 مصر والشراكسة ص98 ـ 108.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص147.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص180 ـ 295 الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسية ص70.

أبـراج، وكـذلك الأبـراج والأسـوار التـي بناهـا في رشـيد، بالإضـافة إلى تجديـد أبـراج الإسكندرية[1].

عمر السلطان في مكة المكرمة باب إبراهيم، وبيوتاً حوله منها بناء فسقية خـارج باب إبراهيم على يمين الخارج وقناة تحت باب الوداع المدخل السـيول المسـتجمع في المسجد الحرام وقت السيل، كما أمر السلطان بمد طريق الحج[2]، وأقام به كثـيراً مـن الاستراحات والآثار[3]، ومن أعماله ترخيم في حجر البيـت الشريـف، ومنهـا بنـاء سـور جدة فإنها كانت بلا سور[4].

بنى في قلعة حلب جسراً ومدرجاً يقوم على ثماني قناطر، كما بنى برجاً مسـتطيل الشكل فيه كتابات تدل على أنه من بناء السلطان الغوري، كما بنى باب حلـب وهـو في الزاوية الشمالية الشرقية من السور، وكذلك باب الحنان في حلب وأعيد بناء برجـه مع ملاحظة أن باب الحنان هدم لتوسيع الطريق ولم يبق له أثـر حالياً[5]، كـما جـدد حمام الأشرف الجمالي في حلب من قبل السلطان[6]، كما بنيت زاوية التسـيمي تحـت القلعة في حلب كانت مسـجداً جـددها قانصـوه الغـوري[7]، وأمـر السـلطان الغـوري بتولي التقي برسباي الأشرف نائب القلعة في حلب بتجديد عمارة باب القلعـة والـبرج الشمالي وبرج القلعة القبلي[8].

بنيت في عهد السلطان قبة قايتباي الرماح[9]، كما بنى خير بك من مال باي بن عبـد اللـه الشركسي نائـب حلـب العديـد مـن الخانـات في حلـب منهـا خانـه الأعظـم وداره

---

[1] - مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ص323 مصر والشراكسة ص98 مدن الشـام في عصر الأيـوبيين والمماليك ص270.

[2] - تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج2 ص58 مصر والشراكسة ص98.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص190 مصر والشراكسة ص98.

[4] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص13.

[5] - آثارنا في الإقليم السوري ص73 ـ 211.

[6] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص215.

[7] - خطط الشام ج6 ص149.

[8] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص199 ـ 222.

[9] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص41.

في محلة سويقة حاتم في حلب[1]، كما ألحق بمدرسة خير بك في القاهرة مدفنان أحدهما كبير يعلوه قبة بصلية الشكل تقوم على رقبة برقعة يحيط بأعلى الجدار وزرة رخامية يعلوها نص كتابي يضم ألقاب خير بك وتاريخ الإنشاء أما المدفن الآخر صغير يغطيه قبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية، كما ألحق بالمدرسة سبيل يقع في الجهة الجنوبية الشرقية يتكون من عدة طوابق[2]، كما أنشأ سيباي ابن عبد الله الشركسي خلاء الجامع الكبير[3]، كما بنى سيباي في دمشق مزاراً جنوبي دار السعادة ويعرف بمزار سيدي عامود، وأنجز قناة العوني جنوبي السويقة وقصر حجاج، وأقام إلى جانبها مجموعة من المنشآت ذات النفع العام، وجدد خاناً له يدعى خان نقيب الأشراف جنوبي حارة السماق، ومن باب الجابية، وشرع في بناء تربة عند باب الجابية وبعد شهر توفيت والدته فكان أول من دفن فيها[4]، كما تجد في مدرسة الأمير قرقماش مجموعة معمارية تشمل سبيلاً يعلوه كتاب وقبة ومدفن لصاحب المنشاة[5]، في شارع السلطان أحمد بقرافة قايتباي في القاهرة، كما جدد باب الأحمر وباب الحديد في حلب من قبل المقر السيفي أيرك[6]، كما تم بناء بوابة خان الخليلي في القاهرة[7].

---

[1] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص184.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص266.

[3] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص184.

[4] - دمشق في عصر المماليك والعثمانيين ص65 ـ 66.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص279 مصر والشراكسة ص108.

[6] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص213.

[7] - مصر والشراكسة ص108.

أقوال وحقائق

1 ـ أقوال ضد عصر السلاطين:

كتب البعض ضد عصر السلاطين وخاصة الأجانب[1]، ودون ذكر الأسباب، ومنهم ذكر بعض الأسباب غير المقنعة، وتجد لدى البعض كراهية واضحة لذلك العصر، فتجد عبد الله الباسط شاهين: (الوارد في قوله مترجماً للصالح نجم الدين أيوب: وهو الذي جلب المماليك إلى مصر وليته ما فعل)[2]، وبغض النظر وقبلهم الأيوبيون ليسوا من العرب، يذكر أن سبب استقدام الملك الصالح لهم، له قصة ذكرها المقريزي وهي أنه لما تم إمساك الصالح وسجن، وتفرق الأكراد وغيرهم من العساكر عنه، لم يبق معه سوى المماليك فرعى لهم ذلك وزاد فيهم[3].

ذكر سبب العداء لعصر السلاطين بأن العثمانيين الذين أتوا من شرق آسيا، واستوطنوا الأناضول، وأنشأوا الدولة العثمانية، والتي حاولت بسط سيطرتها على البلاد العربية، كان السلاطين يحكمونها بتوكيل من خليفة المؤمنين العباسي في مصر، ذلك العداء الذي استمر زهاء قرن ونصف القرن، وبتعاون من الأوربيين في شراء الأسلحة والمدافع، استطاعوا احتلال البلاد العربية، والقضاء على الخلافة الإسلامية العربية العباسية وتلك الحروب ومقاومة السلاطين الشراكسة أفرزت كراهية العثمانيين للشراكسة، فبمجرد دخولهم مصر أثناء عودتهم أخذوا الكتب القيمة الموجودة في المكتبات المصرية، وشوهوا البعض منها، وأتلفوا بعض الصفحات، حتى الصناعات وأصحاب المهن ساقوهم معهم إلى استامبول، وفرضوا اللغة التركية لغة رسمية للدولة، وبالطبع كافة الكتابات بعد سيطرة العثمانيين ظهرت لتكتب بأن حكمهم هو الصحيح والشرعي والعادل وأن سابقيهم كفرة ظالمون، وتأمر بعض الكتاب العرب بالأتراك لسبب ما وعلى الأرجح شخصي. ولا

---

[1] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص13 ـ 20.

[2] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص29.

[3] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص29 ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص166.

تنس بأن العثمانيين سيطروا على البلاد العربية قرابة أربعمائة عام وتلك الفترة كافية لتأثر البعض بهم وبأقوالهم[1]، أو على الأقل التملق إليهم.

سبب آخر لكره العثمانيين للشركس يتجلى في الحروب القفقاسية الروسية لمواقفهم غير الصحيحة ـ أي العثمانيون فيما بعد ـ مع قياصرة الروس على تهجير الشركس عن موطنهم الأصلي وتشتيتهم إلى أكثر من خمسين دولة في العالم حالياً. ولكن في كل بقعة وصلها الشركس ـ مع أن العثمانيين وضعوهم في أمكنة متفرقة وفي أمكنة غير آمنة كما سميت وقتها، ومع كونهم مهجرين ـ كانوا (يتميزون بأخلاقهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية والمعيشية، كما أنهم أينما حلوا كانوا يفرضون احترامهم وتقديرهم ويشكلون طائفة متفوقة رغم فقرهم)[2]، ومع وصولهم حديث بعض الأجانب بسبب عدم تمييز المواطنين بين الشركس والأتراك وغيرهم. ولكن بعد فترة حدث الوفاق وأصبحوا كأهل البلد يعملون ويعيشون معاً بأمان وسلام.

كان للأجانب أغراض ضد السلاطين وزمنهم حيث كانوا يحملون بين ضلوعهم ضغائن لعدم تمكنهم من وصولهم إلى آمالهم في استملاك الشرق[3].

يكتب البعض عن عصر السلاطين بأن أعمالهم الخيرية من بناء المساجد والمدارس وأعمال العمران الكثيرة بأنهم لم يكونوا يقصدون منها سوى التكفير عن سيئاتهم[4]، ولكن ما هي السيئات التي يقصدونها؟ هل هي دفاعهم عن الوطن ضد أعتى الأعداء التتر والمغول والصليبيين؟ ألم يكن بمقدورهم أن لا يبنوا من تلك العمران الباقية إلى الآن؟ طالما وكما يقولون أنهم كانوا هم المسيطرين، وكما قيل: (إذا طهرتم العشرية من القهر والاستبداد فإنهم لا يشعرون بلذة السلم والإخاء ما لم ينتج عنها من ارتياح الضمير الإنساني، فالراكب لا يشعر بألم الماشي)[5].

---

[1] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص9.

[2] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص10.

[3] - مصر والشراكسة ص46.

[4] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص65 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص248.

[5] - عاد وثمود ص85.

وبعد لا بد أن نفصل النقطتين الهامتين التاليتين:

آ ـ المصادرات للمشاريع العامة:

يذكر في الكتب أن السلاطين لم يمارسوا المصادرات ولم يفكروا بذلك إلا حين الضرورة، وأقصد بذلك حين رفض الناس بيع الممتلكات الخاصة بهم للأعمال الخيرية العامة للناس. فكان السلاطين والأمراء غالباً ما يشترون تلك العقارات بالمال سواء كان خاصاً لعمل لهم، وكمثال على ذلك كان لنائب الشام تنكز دار تسمى دار الذهب من أغلى دور دمشق، وكذلك تساوي نصف مليون درهم، وحينما أراد تنكز شراء بيت مجاور ليلحقه ببيته في دمشق طلب منه صاحبه مبلغ أربعين ألف درهم وهو مبلغ مبالغ فيه كثيراً ومع ذلك دفعه ثمناً له. وهذا مثل أوردته وهو ليس المقصود في موضوعنا المرافق العامة، فمثلاً اشترى تنكز قناة بمبلغ خمسة وأربعين ألف درهم لجلب الماء إلى مسجد جديد في القبيبات[1].

باستطاعة النظام الاستيلاء على الممتلكات لتوسيع الأعمال العامة في الدولة مثل التحصينات الحربية، وكانت تدفع التعويضات لأصحاب الممتلكات المصادرة، وقد كان يضطر للضرورة القصوى أيضاً الاستيلاء على أبنية بقصد هدمها للحصول على المواد منها، مثلما حدث لأعمال قناة القاهرة، وكذلك لبناء قلعة حلب لتأمين الحجارة، ومثل هذه الحالات يتطلب إنجازها السرعة غالباً بسبب الحرب أو أي كارثة محتملة[2]، وكانوا دائماً يعودون إلى الشرع والقضاة لمعرفة صحة مطابقة الشرع لذلك، ولكن كنت تجد البعض يعارض بحجة أن هذا لا يتوافق مع المذهب الفلاني، وهذا يخالف ذلك المذهب و (في مثال واحد كان الشهود المالكية مستعدين للاعتراف أن للدولة حق إجبار المالكين على بيع ممتلكاتهم عندما تدفع التعويضات لهم وذلك من أجل تحسين أحد المساجد، ولكن الشافعية تمسكوا بوجهة النظر المعاكسة ومفادها لا يمكن إجبار المالك غير الراغب بذلك، أن يعطي ملكيته بأي حال من الأحوال، واعتبر العلماء أخذ المنازل رغماً عن إرادة أصحابها،

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص397.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص110.

أو أخذ الأوقاف دون إجراءات مناسبة أعمالاً شرعية، ولا تذكر التواريخ أسباب وجهة النظر المعارضة هذه)[1].

كان لا بد من استملاك بعض الممتلكات كحل وحيد اضطراري لتنفيذ الأعمال العامة في الدولة، وكان السلاطين والأمراء يساهمون في بناء الدولة وممتلكاتها العامة بالمال والنفس (وشكل الجنود جيشاً دائماً من العمال لتحقيق مشاريع الإنشاء الرئيسية التي تطلبت وجود أعداد كبيرة من العمال غير البارعين، وغالباً ما أنيط بالأمراء مهام تنفيذ إنشاء مجموعات القنوات والجسور والقلاع، أو ترميم الطرقات، وطلب منهم تنفيذ المشاريع الإنشائية مع جنودهم)[2].

تجد هناك في بعض الكتابات أشياء مثل (كان الرأي أن جميع الأراضي تعود ملكيتها من حيث المبدأ للسلطان، وأعطى أصحاب الممتلكات في عام 735هـ - 1335م نصف قيمة ممتلكاتهم للحصول على أرض لإقامة أحد المساجد، حيث اعتبروا أن ملكية الأبنية تعود لأصحابها، أما الأرض فهي للسلطان، وبالفعل بين ملكية الأرض والبناء في الضريبة الإسلامية والتطبيقات والإيجارات، وكانت رسوم الأرض والبناء عناصر منفصلة عن الممتلكات، وبما أن الأمراء كانوا موظفين للسلطان فقد رأوا من حقهم الاستيلاء على الأراضي والأبنية لتحقيق أهداف عامة)[3].

تسمع حالياً أيضاً في موضوع الأراضي في سورية بأن هذه الأرض أميرية لها سند تمليك وتعود ملكية الأرض للدولة والناس يستثمرونها، وتلك أرض ملكية لها طابو أي تعود ملكيتها لأصحابها حصلوا عليها عن طريق الشراء أو الوراثة[4]، وأيضاً في القوانين السورية هناك فرق توزع الحصص للورثة حسب نوع الأرض فالأرض التي لها طابو رسمي مثل مدينة دمشق مثلاً ومسجلة بالسجلات العقارية ويتم توزيع الحصص حسب الشريعة الإسلامية للذكر مثل حظ الأنثيين، أما الأراضي الأميرية توزع

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص111.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص112.

[3] - مدن الشام في العصر المملوكي ص112.

[4] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص230.

الحصص بالتساوي بين الذكور والإناث والسبب يعود إلى عصور فتح بلاد الشام. فحين فتحت دمشق أختلف في طريقة فتحها بالقوة؟ أم بالاستسلام؟ وفي الحالتين لمالك الأراض الحق بها إذا لم يحارب، ودفع الجزية فيبقى مالكاً لأرضه، وهذا ما حدث فلم توزع أراضي بلاد الشام للفاتحين المسلمين، واستمر الوضع لفترة، وبدأت الحملات الصليبية على بلاد الشام لطرد المسلمين منها، وبالطبع تم الاتصال مع أولئك الروم الباقين في بلاد الشام، ولكن انتصر العرب على المقاومين من بلاد الفرنجة فخاف من بقي في بلاد الشام من الروم وترك أرضه ورجع مع الجيش الفار والمنسحب من المعركة. وهنا كانت مشكلة الأرض، فلا تعتبر من الغنائم ولا توجد ورثة لها، فكان الرأي النهائي إلحاق الأرض بالدولة التي يمثلها الأمير فسميت بالأميرية، وأصبح التصرف بها عائداً للأمير مهما تغير، أي أن الأرض لا تورث لأولاد الأمير. وجرت العادة بأن يعطي أمير الشام الأراضي بالأجرة مثلاً على أن يعطي المستأجر منها للدولة أو بيت مال المسلمين عشر الإنتاج فسميت الأراضي العشرية، وقد يستغل أحد القواد الأرض مقابل أجرة أي مقابل الراتب[1]، وبعد احتلال العثمانيين لبلاد الشام استمر الوضع على حاله فكانت تعطى سندات يذكر فيها أن الأرض هي تابعة للأمير أو الوالي التركي، ويذكر اسمه وأن فلاناً يستغلها ويحدد أبعادها، وكان يدفع المواطن الفلاح عشر قيمة الإنتاج لذلك الأمير أو الوالي. وبعد ثورات الاستقلال العربية صدر مرسوم لتسجيل الأراضي بالسجلات العقارية فسجلت بعض الأراضي في بعض المدن السورية ثم توقفت إثر الحروب والاعتداءات المتكررة على البلاد، ومن هنا كان التمييز بين ذات الطابو وتلك الأراضي التي تم تسجيلها في السجل العقاري، وبين أرض أميرية لها سند تمليك، وبالعودة إلى عصر السلاطين تجد أن قرار تقييم الأرض وتقدير قيمتها يعود إلى القضاء عند استملاك أية قطعة من الأرض ويقال الأرض بنصف القيمة مثلاً. والسبب هو اعتبار الأرض

[1] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي الاقتصادي العسكري ص98 الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص50 المماليك171.

ملكاً للدولة، أما ما عليها فهي لصاحبها، فيكون التقدير على ما يوجد على الأرض من بناء وأشجار وليس على الأرض نفسها.

ب ـ الأمن الداخلي والخارجي:

كانت دولة السلاطين مرتكزة على الدفاع عن البلاد من الناحية الخارجية بالدرجة الأولى، وكانت الأمور الداخلية متروكة للمواطنين من القضاة ورجال الدين والمختصين بالتعليم وغيرها، وكان على رأسهم في ذلك العصر العلماء فهم قادة المجتمع العربي في ذلك العصر. ولكن كان البعض يحاول أن يشط عن الطريق القديم أو يرفض التقيد بأوامر العلماء وقادة البلد أو يقوم البعض بأعمال تخل بالأمن، فكان العلماء يلجأون إلى السلاطين والأمراء للدفاع عن الجماهير وحفظ الأمن مع أن العلماء كانت علاقاتهم مع الجماهير مباشرة ويستمدون سلطتهم من الجماهير، وكانوا كحكام للمدن. فمع ذلك احتاج العلماء لمساعدة السلاطين والأمراء (الغرباء لحماية الجماهير واعتمد العلماء على نظام عسكري لتحقيق الانضباط في المدن وقمع الهرطقة ومقاومة العنف الذي سببه المجرمون والمتمردون، حتى الجماهير أحياناً، وفوق كل ذلك، فقد اعتمدوا على النظام للدفاع ضد خطر تخريب المجتمع أو تهديم عقيدته، من قبل الغزاة الأجانب حيث كان من المحتمل أن يكونوا من الوثنيين أو الهراطقة أو من المسيحيين الكفرة)[1] ، على تعبير الكاتب.

كان العلماء القياديون سلبيين في الدفاع عن وطنهم وكانت (الجماهير المتدينة مستعدة للتبرؤ من المماليك في حال تعرضهم للهزيمة إذا وقعت عليهم غزوات فكرية، وأن تقبل المنتصر بمثابة صاحب الحق ليكون سيدهم الجديد، وفاق الإخلاص للنظام الجيد للمجتمع جميع أنواع الولاءات، وأخفق علماء المدن السورية في عدد من المناسبات في مساعدة المماليك للدفاع عن دولتهم، ورأى العلماء أن من واجبهم الاستسلام للفاتح والتعاون معه خشية وقوع الخراب الذي ستسببه الحرب والفوضى الداخلية الممكن حدوثها، بسبب الهزيمة العاجلة)[2].

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص206.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص206 ـ 207.

تجلى ذلك بشكل واضح في ثلاثة مواقف حربية. الأول حينما أتى قازان واكتسح المغول بلاد الشام فما كان من العلماء والقياديين وطبقات الموظفين إلا إرسال وفد لقازان للتوصل معه لحل، وقدموا له الاعتراف كحاكم وسيد مطلق.

كانت المرة الثانية حينما غزا تيمورلنك سورية عام803هـ فكان اجتماع الوجهاء والأغنياء والتجار وعدد من العلماء وعلى رأسهم القاضي ابن مفلح الحنبلي وطلبوا الاستسلام، ولم يكتفوا بذلك بل كان ابن مفلح يقنع الناس بالاستسلام ووافق على دفع فدية كبيرة للمحتل، وأصبح هو وبعض الموقعين على صك الاستسلام جباة لتيمورلنك يجمعون الفدية الكبيرة التي طلبها[1]، بل صادر الممتلكات الخاصة للمواطنين، والتي تركها الناس الهاربون من العدو. وكانت الحجة في المرتين السابقتين لتسويغ الاستسلام هي تفادي القتال وحقن الدماء ومنع النهب، أما السبب الحقيقي الذي دفع ابن مفلح لاتخاذ هذا الموقف هو حماية أسرته وعائلات أقاربه وخاصته، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ هل استطاع فعلاً أن يحقق شيئاً من الأهداف المعلنة أو المستترة؟ طبعاً لا. فقد نهب الغازي ضواحي المدينة: الصالحية وداريا والمزة، ونهب داخل المدينة وقلعتها فنهبوا الأشياء الثمينة فيها، وحرقوا المدينة وأسروا العديد من القادة وسيق الحرفيون وسبيت النساء، واتسم ما فعله أولئك بقلة التبصر، مع أنهم لم يشعروا بالخزي، وكانت النتائج مشؤومة على الناس كافة.

قبل وجهاء ذلك العصر العرب الحل السلبي لثالث مرة أيضاً حينما وصلها السلطان سليم فلم يحاربوا الفاتحين الجدد على حد قولهم واعترفوا كما في السابق بالفاتح الجديد، وكانت نتيجتها تأخر تقدم البلاد واحتلال العثمانيين للبلاد العربية أربعمائة عام[2].

---

[1] - قيام دولة المماليك ص140 ـ 141 ـ 142.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص207 ـ 208 ـ الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ج2 ص99 ـ 100.

جمع ابن مفلح للمغول الأموال وصادر أموال الناس وهو عالم إسلامي بارز في ذلك العصر، بينما كان يفتي بعض العلماء المسلمون في ذلك العصر بعدم الاستيلاء على المنازل لتوسيع شارع أو تنظيم قناة أو بناء جامع مع دفع المبالغ مقابلها، بل أكثر من ذلك كان العلماء يفتون بعدم أخذ أموال الناس في حالة الدفاع أو مقاتلة العدو بحجة أن على السلاطين تدبير ذلك ناسين أن الأرض أرض عربية، وينسون في تلك اللحظات الحقائق ويطالبون غيرهم بالدفاع، بل بما يلزم من تحصينات وأسلحة وما شابه ذلك، وكل يفتي ويؤكد أن فتواه صحيحة وكثيراً ما كانت الفتاوى تختلف ولتأكيد ذلك نذكر (رفض القضاة التصديق على الضريبة التي فرضها السلطان عام 803هـ ـ 1400م ـ حينما غزا تيمورلنك سورية ـ وذلك لمصادرة أموال الأوقاف والتجار ليدفع متطلبات الجيش وإنهاء المشروع)[1].

2 ـ مدح عصر السلاطين:

كتب العديد مادحين عصر السلاطين، ولا يمكن توضيح كافة الأمور بهم إذ أن ذلك يتطلب العديد من الكتب، ولكن لا بد من توضيح وسرد بعض ما كتب عن عصرهم.

آ ـ إحياء الخلافة الإسلامية:

بعد انهيار الخلافة الإسلامية العباسية في بغداد، تشتت المسلمون، وحتى قبل انهيار الخلافة العباسية في بغداد ظهرت هناك دويلات إسلامية متفرقة، وطمع بها المغول، وكانت معركة عين جالوت كحد فاصل لغزو المغول وكسر كبريائهم، وبرز حينها أول سلاطين الشراكسة بيبرس، وهو الذي أحيا الخلافة الإسلامية العباسية في مصر[2]، والتي استمرت لقرون إلى أن قضى عليها العثمانيون بعد ذلك،

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص218.

[2] - البداية والنهاية ج13 ص230 ـ 233 ـ 239 العصر المماليكي في صر والشام ص351 مصر في دولة المماليك البحرية ص180 ـ 180 ـ 181 الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري 10 النظام النقدي المملوكي ص215 الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص15 ـ 17 ـ 114 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص109 ـ 118 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص193 ـ 195.

وأصبحت في دولة السلاطين الخلافة للمسلمين في مصر فصار لهم نفوذ روحي على كل بلاد الشام كافة مع أن السلطان السياسي الفعلي كان بيد بيبرس ومن بعده باقي السلاطين الذين استلموا الحكم[1].

ب ـ النهضة العلمية:

عرف السلاطين بأن لا بد من نهضة علمية لتنهض البلاد من كبوتها، لذلك شجعوا التدريس والتعليم فبنوا المدارس والمعاهد العديدة، واستقدموا وجلبوا العلماء من كافة أنحاء العالم، وكان الطابع العام للتعليم وبشكل رئيسي دينياً مع نسيان كافة العلوم الأخرى وخاصة الطبية إذ أنشئت مشافي للمعالجة والتدريس، ومما يدل على النهضة الروحية والثقافية والعلمية ما تركوه للأجيال فيما بعد من خزائن الكتب ودورها بنفائس المؤلفات من جليل الآثار والتراث الضخم في مختلف العلوم والفنون[2].

ساهم السلاطين في ميادين عديدة لا تنسى، والشيء الأكثر شهوة لهم (هو السيادة العالمية في منطقة الشرق الأوسط بصفة خاصة وفي العالم الإسلامي على وجه العموم، هذا عدا النهضة الفنية التي خلدت تاريخهم ولم تزل شواهدها باقية إلى اليوم، ثم إن الاتساع الإمبراطوري لمصر، بلغ أقصاه في عهد هذه الدولة، وأن مصر ـ لكونها مركز الدولة ـ غدت في زمنهم قلب العالم الإسلامي والثقافة الإسلامية)[3]، كما بلغ التاريخ لديهم العصر الذهبي الثاني عند العرب[4].

ج ـ التجارة والاقتصاد:

لكي تستمر النهضة التي حدثت وعرفت في عصر السلاطين كان لابد من توفير الدخل اللازم، وكان اعتمادهم على الاقتصاد ولكون التجارة ذات مردود

---

[1] - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص13 ـ 14 الروض الزاهر في ـ سيرة الملك الظاهر ص99 ـ 100 ـ 101 تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج1 ص185 ـ 189 الدولة المملوكية التاريخ السياسي الاقتصادي العسكري ص11 النظام النقدي المملوكي ص211.

[2] - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص17 مصر في دولة المماليك البحرية ص189.

[3] - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص50.

[4] - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص4.

جيد لجأوا إليها لكون أوروبا بحاجة لبضائع الهند، ولم يكن قد اكتشف رأس الرجاء الصالح بعد، ولا بد من مرور البضائع عن طريق البحر الأحمر[1]، فتمكنت دولة السلاطين التحكم بالأرباح والضرائب المفروضة، ولم يكتفوا بذلك بل شجعوا على أعمال التجارة التي وفرت السيولة المالية بين أيديهم (وصارت حضارة مصر آنذاك مضرب الأمثال فمفاتيح التجارة العالمية بين الشرق والغرب في يد الشعب المصري)[2]، تلك التجارة التي عادت بالفائدة لأفراد الشعب العربي وعلى الأمراء والسلاطين لكونهم كانوا مسيطرين على المنطقة التجارية التي كانت ملتقى التجارة العالمية[3].

د ـ النظام في عصر السلاطين:

تقدم وعمران البلد كما ذكرنا يتطلب العلم والأموال، ولكن لا يكفي فلا بد من النظام الدقيق لإعطاء الحق ولوضع ضوابط[4]، وعرف السلاطين بأنهم (أدق رعاية على الولايات وأشد في فرض القانون والنظام وقد استمرت دمشق تنمو وتتطور في ظل النظام الجديد)[5]، فتوسعت دمشق التي كانت ثاني مدينة في ذلك العصر بعد القاهرة، فتوسعت الضواحي وباقي مدن بلاد الشام[6]، ومصر وما تبعها فكان لدولة السلاطين (ونظامهم دور حيوي ليؤدوه في هذا النظام السلس للعلاقات السياسية... بل بإمساك جميع الخيوط الاجتماعية الأساسية بأيديهم وأنشاوا روابط مباشرة مع العلماء وذوي المراتب العالية والصغيرة، ومع التجار، ومع العامة من الناس، من الأحياء والأسواق، وأخيراً مع طبقة الرعاع في المدينة)[7]، كما ترى كان نظامهم المحكم يتصل إلى الكبير والصغير، والعالم والجاهل، والغني

---

[1] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص134.

[2] - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص17 مصر في دولة المماليك البحرية ص210.

[3] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص92 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص394.

[4] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص417.

[5] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص68 ـ 69.

[6] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص46.

[7] - مدن الشام في العصر المملوكي ص397. مدن الشام في العصر المملوكي ص285.

والفقير وشهدت دولتهم (نظاماً إدارياً بالغ الدقة، ونهض بذلك النظام مجموعة كبيرة من الموظفين. وقد انقسم الموظفون إلى قسمين كبيرين، أرباب السيوف وأرباب القلم)[1] ، فقد استعمل السلاطين رجال الدين في إدارة الشؤون الدينية والمدنية في دواوين دولتهم[2]، أما الحياة الرسمية في البلاط السلطاني فقد اتصفت بالتقليد وأحيطت بمختلف مظاهر التضخم والتعظيم حتى وصفها بعض الكتاب المحدثين بأنها تطلب من قواعد البروتوكول ما يفوق أعظم بلاط في عصورنا الحديثة[3]، وكذلك حفلات الاستقبال للضيوف والكبار والسفراء العظام وبشكل رسمي وما يتبع الضيوف من الإقامة[4]، وكان كذلك قبل أن يتشرف أي رسول بالدخول على السلطان يبين رجال الحاشية للداخل قواعد البروتوكول السلطاني من ضرورة تقبيل الأرض أمام السلطان[5].

عرفت دولة السلاطين أيضاً نظام جوازات المرور طبقته بدقة فاستطاعت (بواسطة تلك الجوازات تسجيل المسافرين، وبالتالي معرفة تاريخ دخولهم وخروجهم بالإضافة إلى المعرفة الدقيقة لأموالهم وبضائعهم، وبذلك كانت تستوفي الضرائب منهم غير منقوصة)[6].

هـ ـ القانون فوق الجميع:

كان ينفذ ويحكم في الدعاوى القضاة وجلهم من العرب، وكانت بالطبع في ذلك العصر القوانين المطبقة مستمدة من الشرع الإسلامي الحنيف. ولكن الجدير بالذكر أن القوانين والأحكام تنفذ على الجميع وكان القانون هو السائد حتى على السلطان ففي أي دعوى أو شكوى على السلطان يطلب حضوره للقضاء،

---

[1] - العصر المماليكي في مصر والشام ص365 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص22. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص300.

[2] - صور ومظالم من عصر المماليك ص110.

[3] - مصر في دولة المماليك والمماليك البحرية ص132.

[4] - الطرب في العصر المملوكي ص29 مصر في دولة المماليك والمماليك ص65 ـ 66.

[5] - مصر في دولة المماليك والمماليك البحرية ص134 صور ومظالم من عصر المماليك ص67.

[6] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص250.

ويتساوى الخصم وينفذ الحكم الصادر[1]، كمثال على ذلك نذكر ما ذكره ابن كثير في تاريخه من محاسن بيبرس الكثيرة (إنه ـ أي السلطان بيبرس ـ حضر إلى دار العدل في محاكمة بسبب بئر بين يدي القاضي تاج الدين بن بنت الأعز فقام الناس له لما جاء سوى القاضي فإنه أشار إليه أن لا يقوم فقام هو وغريمه بين يدي القاضي وتداعيا وكان الحق بيد السلطان وله بينة عادلة فانتزعت البئر من يد الغريم وهو أحد الأمراء)[2].

و ـ صفات العصر:

لقد مدح الكثيرون من الكتاب عصر السلاطين فقيل عن عاصمته القاهرة بأنها عروس الشرق باتساعها وعظمتها وجمال مبانيها وجلال قصورها وازدحام سكانها من كل جنس ولون، وكان يجلب ما في سائر أقاليم الأرض من كل شيء غريب[3]، وتجد كتابات حديثة تمدح ذلك العصر أيضاً. كما كانت الكتب تتناول صفات أولئك الحكام أيضاً فمما قيل (أقاموا فيها دولتهم الناشئة الفتية، وهم قوم أشداء، ومارسوا الحروب والفروسية، واعتادوا الخشونة، وبعد الكثير منهم عن الترف وأخذوا يصبغون ملكهم بصبغة دينية... ودفعوا العلماء إلى نشر العلم بالتدريس والتأليف، وكان لهم في ذلك ومن انتصاراتهم على التتار وعلى الصليبين في أرض الشام مفاخر ومآثر لا تبلى، وزاد في عظمة أمرهم في عيون المسلمين أنهم أصبحوا حماة الخلافة الإسلامية المكلومة وملاذ الأمم العربية المهزومة، ومقصد الأحرار والعلماء من كل مكان)[4] ، وقيل (كانت دولتهم أرقى دولة في عصرها)[5]، وقيل كانت دولة المماليك عهد الازدهار الدائم، عهد حضارة وعمران[6]، واستمرت لنهاية القرن تقريباً، ثم تلت فترة الأزمات التي سادت في

---

[1] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص417 ـ 418.

[2] - الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ج2 ص63.

[3] - الطرب في العصر المملوكي ص44.

[4] - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص14 ـ 15.

[5] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص7.

[6] - مصر والشراكسة ص132 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص46.

النصف الأول من القرن الثالث عشر ـ مع أزماتها ـ فترة هادئة مزدهرة ومتآلفة في الإنجازات الثقافية والاقتصادية، كما انتهت هذه الفترة الأكثر روعة في حوالي عام 1388م[1].

ز ـ الحضارة العربية:

اعتبر العديد أولئك السلاطين أنقذوا الحضارة العربية[2]، من التدمير الشامل بانتصارهم في شقحب، كما يؤكد أكرم العلبي في كتابه معارك المغول الكبرى في بلاد الشام. إذ لو انتصر قازان على السلاطين لعاد الصليبيون إلى دويلاتهم تمهيداً لطرد العرب نهائياً من الشام ومصر إلى الجزيرة العربية كما كان يجري في الأندلس.

لهذه الأسباب تعد معركة شقحب، فتح الفتوح بالنسبة للشام ومصر لأن الظروف كلها كانت تنذر بالهزيمة، ولكن الله سلم[3].

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص39.

[2] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص7 ـ 15.

[3] - انتصار الوحدة في شمال القفقاس ص57.

1 ـ أين الحقيقة:

كتب الكثير عن عصر السلاطين، وأسهم الكثيرون في الكتابة والتقييم، وتفاوتت الآراء ما بين المدح والذم، مع كل هذا لا بد أنك لاحظت وشعرت بإنكار بعض ما كتب ولأسباب عديدة، وفي رأيي غالبية الآراء السلبية ناجمة عن عدم معرفة الكتاب بحقيقة أولئك السلاطين، وعدم معرفتهم عادات وتقاليد الشراكسة، ونظامهم الذي ساروا عليه منذ القدم، وحتى الآن. وتلاحظ أن بعضهم يستغربون بل يستهجنون بعض العادات الشركسية، والسبب واضح وهو أنهم لا يرون سوى الظاهر، ولا يكلفون أنفسهم عناء سبر الأغوار من جهة، أو لأنهم ضيقو الأفق والمعرفة، وليس لديهم اطلاع كاف على عادات الشعوب، قد تتغير بعض العادات والتقاليد، ولكن بعضها صعبة التغيير، وتبقى ظاهرة ومستمرة، وتعبر عن شخصية الأمة، هذا لا يقتصر على الشراكسة فقط بل يوجد لدى كل شعوب العالم حتى أنك تجد لكل حارة عادة خاصة بها تتبع في الأفراح والأحزان، وقد يعجب البعض منها، وقد يقال أن عادة ما مخالفة للدين أو الآداب أو المنطق أو تدل على التخلف، ولكن رغم ذلك ومع اقتناع البعض بعدم ملاءمتها لمتطلبات العصر، أو الظروف السائدة لكنها تتبع، ويكون الجواب: إنه العرف والعادة، أنها التقاليد، إنها جذور قوانيننا... الخ.

آ ـ علاقة العرب ببلاد الشركس:

نشأت علاقة بين بلاد القفقاس والتي تسمى حالياً بشمال القفقاس، وبين المسلمين الذين انتشروا في البقاع المختلفة ينشرون الدين الإسلامي الحنيف حيث (بدأ الإسلام في القفقاس سنة 22للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والموافقة سنة 600 ميلادية على يد مجاهدي العرب الذين جاؤوا)[1] ، إلى بلاد القفقاس فاتحين من جهة باب الأبواب، وهي جنوب بلاد الداغستان المعروفة

[1] - تاريخ القوقاز ص218 ـ 219 شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص6 قفقاسيا ص13.

حالياً،وباب الأبواب الذي يقع بين قزوين وسلسلة جبال القفقاس من الجهة الشرقية لها[1].

نذكر بعض قواد المسلمين الذين ذهبوا إلى بلاد القفقاس: ففي عهد الخليفة الأموي عبد الله بن مروان عين مسلم بن أبو سلمة عاملاً على العراق فأرسل إلى القفقاس جيشاً بقيادة القائد شبيب النهرواني، وبعد ذلك أرسل أيضاً جراح بن عبد الله بجيش. وفي عهد هشام بن عبد الملك أرسل جيشاً بقيادة (مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة على رأس جيش جديد قوي، مر من باب الأبواب... وبعد خمسين سنة، وكانت الدولة الأموية قد انهارت وقامت مكانها الدولة العباسية، وفي خلافة أبي جعفر المنصور أرسل الخليفة جيشاً إلى شمال القفقاس بقيادة حفيده أبو مسلم الروانكي، وكان إدارياً وعادلاً)[2] ، ويذكر أيضاً بأنه تأسست لأول مرة إمارة (طارق) الشامية، وكانت مدينة طارق القديمة عاصمة الإمارة وتعرف اليوم باسم بتروفسك، حينما غير الروس الكثير من أسماء المدن والمواقع[3]، وفي القرن الحادي عشر للميلاد انسحبت القوات العربية من القفقاس ولم يبق لها وجود[4]، كما ذكر كان من أسباب الانسحاب هو محاولة الصليبيين العودة إلى بلاد الشام، ومع انسحاب العرب أتى معهم العديد من المسلمين غير العرب، وكان منهم الكثير من الشركس الذين كانوا في جيش المسلمين، وكذلك الأقوام الأخرى مثل التركمان والأتراك وغيرهم.

ب ـ قدوم الشركس للبلاد العربية قديماً:

بعد أن ضعفت الدولة العباسية التي اعتمد الكثير من خلفائها على غير العرب، استلم هؤلاء المسلمون غير العرب مهمات مختلفة، وأصبحوا قواداً ووصل البعض إلى ولاة لبعض النواحي من البلاد الإسلامية، ثم أصبحت تلك الولايات تابعة اسمياً

---

[1] - الوطن في أدب الشراكسة ص73 قفقاسيا ص11 ـ 14 ـ 30.

[2] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص274.

[3] - تاريخ القوقاز ص255.

[4] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص245 الوطن في أدب الشراكسة ص74.

للخلافة العباسية، وبدأ كل والٍ يستقدم عناصر من جنسه ليثبت حكمه ولعدم التفكير بأي تغير لسلطتهم (وكان العرب الغالبية الساحقة من سكان دمشق، وكانوا يستعملون اللغة العربية في البيت والمدرسة والسوق، ولكن جماعات من غير الناطقين بالضاد وفدوا على دمشق في أيام المماليك، أو لعلهم أتت بهم السلطات الحكومية عمداً. فالتركمان جاؤوا أيام آل زنكي إن لم يكن قبلاً، وجاء صلاح الدين بالأكراد، كما أن الجنود الشراكسة والأتراك واكبوا الحكام وأمراء الأجناد من المماليك)[1].

ينعت بعض الكتاب أولئك الحكام بأنهم من المماليك، أو جيشهم من المماليك دون تعيين، وتعرف ما المقصود بذلك. وأحياناً يقال إننا كلنا ملك لله وما شابه ذلك. وربما ساعدت اللغة العربية بكلماتها إلى تغيير معنى بعض الكلمات التي عنيت معاني غير التي تتداول في هذه الأيام. كما أن الكثيرين وصفوا السلاطين بأنهم من العبيد تم شراؤهم ولكن في الوقت نفسه تجد أن ما كتب عنهم لا يستقيم مع الواقع والمنطق وسأضرب بعض الأمثلة عن كيفية استخدام البعض.

ذكر عن وصول أنس والد برقوق أنه (في يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة، وصل أنس بن عبد الله العثماني والد برقوق إلى القاهرة، فخرج ولده والعسكر لملتقاه، فالتقاه بعكرشا، ووصل صحبته قاضي حلب كمال الدين المصري وقاضي دمشق ولي الدين البقاء، ونزل في ذلك الموكب بالخانقاه ومد ولده سماطاً عظيماً. وأقعده في صدره، وقعد عن يمينه أيدمر الشمسي وعن يساره آقتمر عبد الغني، وقعد برقوق دون أيدمر. وكان أنس أعجمياً لا يعرف بالعربي ولا بالتركي حرفاً، ثم ركب معه إلى القاهرة وأعطاه تقدمة ألف)[2]، مع العلم عندما جاء أنس ـ أو أنص كما يكتبها البعض ـ إلى مصر لم يكن ابنه برقوق سلطاناً كان مجرد أمير فقط، ثم ما الذي جعل وفور وصوله إلى حلب ودمشق يستقبل فيهما، ثم يرافقه قاضي حلب ودمشق مع العلم بأن للقاضي في ذلك العصر مكانة مرموقة، ثم هذا

---

[1] - دمشق في عصر المماليك ص131.

[2] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص249.

الاستقبال الحافل المهيب وإعطاء رتبة أمير على ألف من الأمراء الصغار رتبة ولكل منهم ما لا يقل عن عشرة أتباع حسب التنظيمات العسكرية لذلك العصر، فهل يمكننا القول أو حتى مجرد التفكير بأن أنس جلب كعبد مشترى؟

مثال آخر عن الأمير أيتمش الذي بنى مدرسة بالقرب من القلعة في القاهرة (فسأل السلطان في شرائه منهم ـ أي شراء أيتمش ـ فاشتراه منهم بمائة ألف درهم ثم أعتقه وأمر له بأربع مئة ألف درهم وعد ذلك من الغرائب، فإن جرجي ـ أستاذ أيتمش ـ مات سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة هجرية ـ فأقام أيتمش سبع عشرة سنة في الرق يتصرف تصرف الأحرار إلى أن صار أكبر الأمراء بالديار المصرية)[1] ، والكاتب نفسه يستغرب بعد ما حدث من الغرائب. فإذا كان عبداً كيف كان يتصرف كالأحرار؟ ويصبح أميراً، ثم كيف يشترى بمائة ألف ثم يعط له مباشرة أربع مئة ألف؟.

جاء في فقرة أخرى من نفس الكتاب الذي سقت منه المثلين السابقين (في رجب 790هـ قدم بعض التجار بجماعة من أقارب السلطان الجراكسة فخرج عليهم طائفة من الفرنجة الجنوية فأسروهم، فبلغ الظاهر بالخبر فأمر بالقبض على من بالإسكندرية من الجنوية وختم على حواصلهم في أواخر شعبان فبلغهم الخبر، فأطلقوا من بأيديهم منهم فقدم الإسكندرية خواجا علي أخو الخواجا عثمان يجمع من أسره الفرنجة من أقارب السلطان، ففك الختم من حواصل الفرنجة وذلك في أواخر ذي الحجة... وفي تاسع عشر المحرم ـ 791هـ ـ حضر رسل صاحب جنوة ومعهم أخو عثمان الذي كان الفرنجة نهبوا مركبه وأسروا منه أخت قجماس بنت عم السلطان فأعادوا المركب بما فيه، وقدموا هدية فقبلت منهم[2]. يتضح لنا أن هذه الحادثة كادت أن تؤدي إلى قطع العلاقات بين مصر وجنوا ، وكذلك مصادرة أموال الجنوية في مصر، فلو كانوا عبيداً هل كانت السلطة ستلجأ إلى اتخاذ كل

---

[1] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص329.

[2] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص423 ـ 439.

هذه المواقف الصارمة علماً بأنه في ذلك العصر كان الاسترقاق معترفاً به في جميع أنحاء العالم تقريباً.

ثم بنت عم السلطان المذكورة، هل هي كانت من الإماء مثلاً؟ ومن الذي اشتراها؟ فإذا كان الخواجا الذي أحضرها هو المالك الذي يبيع العبيد هل يعقل أن يسامحه السلطان لشراء بنت عمه؟ وكثير من هذه التساؤلات قد لا تجد لها جواباً شافياً، ولكن في شتى الحالات تجد أنه هناك ثغرة بل ثغرات غير واضحة، ولا يمكن أن يكونوا عبيداً، وكلمة المماليك لم تعنِ في عصرهم العبيد أو معنى مرادفاً لها، بل هي تسمية أطلقت للتميز بين عصرهم والعصور الأخرى.

2 ـ دولة قوية مزدهرة:

آ ـ غنى السلاطين:

كتب العديد من الكتاب والسياح والنقاد، وأهل البلد عن غنى السلاطين[1]، وذكر البعض سبب غناهم بأنهم استغلوا أهل البلد، ولكن من له أية بصيرة يتضح له أن ذلك غير صحيح. وسبب غناهم نتج عن جهادهم المستمر حيث أن الإسلام أعطى للمجاهدين نصيب أربعة أخماس الغنائم من الفيء، فهم قاتلوا حينما أحجم الكثيرون ولم يدافعوا عن الإسلام وبلادهم فكانوا هم المنقذين لبلادهم وللمسلمين، وحاربوا أعداءهم من الصليبيين والمغول وغيرهم، ووسعوا الأراضي التي أصبحت تحت سيطرتهم مما لم تكن تابعة لا للعرب ولا للمسلمين، وبعد أن عم السلام البلاد، واستقر الوضع، وانقطعت الغنائم الحربية ـ لتوقف الحروب والفتوحات ـ اتجهوا للتجارة، وتجارتهم كانت خارجية ولا مجال لاستغلال أهل البلد، فكانت تجارتهم تأتي من الهند وينقلونها إلى أوروبا عبر بلادهم. أما ما كتبه البعض عن استغلال حصل داخل البلاد فغير صحيح. إذ كانت للسلاطين والأمراء

[1] - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص61 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص121 الطرب في العصر المملوكي ص25 صور ومظالم من عصر المماليك ص100 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص288.

إقطاعيات[1]، وهي عبارة عن أراضٍ لم تكن لأحد، وكانت الدولة تعطيها لموظفيها من عسكريين، ومدنيين مقابل الرواتب، فيستثمرونها بأنفسهم، أو من قبل أناس آخرين بالاتفاق على نسبة من الإنتاج، علماً بأنه كان للفلاحين أراضٍ خاصة بهم، وهذه الإقطاعيات ليست وراثية لهم أي لا يتملكونها ولا يستطيعون بيعها إذ الملكية للدولة. وكلما تغير العامل يأخذ إقطاعة السابق ويعطيها لغيره بدل الرواتب كما ذكر[2]، ولكي لا نبتعد كثيراً عن الموضوع أعود أؤكد بأن سبب الغنى هو الجهاد أولاً، فلما توقف المغول والصليبيون عن مهاجمة بلاد الشام ومصر توقفت الغنائم وسبب الغنى ثانياً هو اللجوء إلى التجارة التي هي عماد الاقتصاد لأي بلد كان، وهذا ليس بمستغرب على من يعرف الإسلام: فقد (روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اغزوا[3] تغنموا[4] وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا[5]) رواه الطبري في الأوسط ورواته ثقات[6].

كان السلاطين والأمراء والجنود وأتباعهم أغنياء، والمال يأتي بالمال كما يقال، ولا غنى لهم عن بركة الله تعالى فقد (روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بينما أيوب عليه السلام يغتسل عرياناً، فخر عليه[7]، جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه عز وجل، يا أيوب،

---

[1] - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص122 المماليك ص171.

[2] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص298.

[3] - اغزوا: جاهدوا في سبيل الله وحاربوا أعداء المسلمين.

[4] - تغنموا: تنالوا الأجر، وتتسع بلادكم ويكثر رزقكم.

[5] - سافروا تستغنوا: اخرجوا في أعمال التجارة بسهم، واذهبوا لجلب البضائع يحصل لكم الغنى وزيادة الربح والسعة والنعيم بالغنى وزيادة الرفاهة (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه).

[6] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج2 ص79.

[7] - فخر عليه (بالخاء المعجمة) أي: يسقط عليه جراد من ذهب.

ألم أكن أغنيتك عما ترى، قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى لي عن بركتك)[1] ، رواه البخاري[2].

كان الغنى واضحاً في عصر السلاطين للجميع، والأموال تبذل في المناسبات القومية والدينية، وما يصرف فيها سواء للخاصة أو العامة بلغ الكثير كما يذكره كتاب التاريخ، ممن عاصروا زمن السلاطين، وهذا يدل على الغنى الذي كان لديهم[3]، كما أكده العديد من الكتاب بعد ذلك العصر أيضاً. مما ذكر (كانت الحكومة على جانب كبير من القوة والسلطان والثراء، وذلك قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام1498)[4] ، نعم أثر اكتشاف الرجاء الصالح على التجارة العالمية والداخلية، ولكن لم يكن ذلك كثيراً. كما أنه كانت تحدث بعض الأزمات خلال التجهيز للحروب وخاصة إذا تتالت، وإذا كان الجيش ينطلق من القاهرة إلى أطراف البلاد مثلاً إلى أواسط تركيا، فكان ذلك الأمر يتطلب الكثير من الموارد، وهناك بعض أعمال الغوغائيين الذين كانوا يعتمدون على بعض الأنحاء، أضف إلى ذلك الكوارث والجائحات التي حدثت في عصر السلاطين وعلى الأخص الطاعون الذي كان يفتك بالناس، ومن الكوارث الطبيعية أيضاً فيضان النيل أو قلة الماء والجفاف لكن الدولة كانت تعيد الأمور إلى نصابها، وتعود الأمور طبيعية خلال فترة قصيرة. ثم إن الحياة المعيشية نسبية، فمن تعود على الرخاء الدائم قد ينزعج إذا قلت وارداته فمعدل المعيشة ومعدل الدخل الفردي كما هو معروف يختلف من دولة إلى أخرى.

كانت للدولة مصادر دخل أخرى فضلاً عن الغنائم والتجارة الخارجية فقد كانت موارد المملكة، شأنها في ذلك شأن الإمبراطورية المملوكية، يدخل في عدادها الخراج والزكاة، وهي المقررة على أهل الذمة والعشور والمواريث الحشرية

---

[1] - يتضح من ذلك جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر لله، وتسميه المال الذي يكون من هذه الجهة بركة.

[2] - رياض الصالحين ص217.

[3] - دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص175 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص180.

[4] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص19.

والتـي لا يوجـد وارث شرعـي لهـا، وأجـور الدولـة والتجـارة وضرب النقـود في مصر وضرائب الأرض والخراج وهو يؤخذ من التجار والواصلين في البحر إلى مصر، والمعادن المستخرجة من الأراضي[1]، وضريبة السفن وغيرهـا مـن الضرائـب الإضـافية، وأسـلاب الحرب والغنـائم كـما ذكـر[2]، أمـا المصـاريف كانـت تشـغل نفقـات الإدارة والجـيش والبريد والاهتمام بتنظيف الأنهار والترع وبناء الجسور والسواقي[3]، بالإضافة إلى ذلك كان يطلب (أحياناً من بعض الأمراء والموظفين القيام بتلبية متطلبات السكان، وذلـك بإطعام الفقراء حسب ثروة كل أمير أو موظف، أو حسب عدد المماليـك الـذين كـان ملتزماً بإيوائهم، وكان السـلطان بيـبرس أول مـن الحـق المتسـولين الفقـراء والصـوفية بـالأمراء والمـوظفين والتجـار والأغنيـاء وليتولـوا إطعـامهم، واتخـذ خلفـاؤه التـدابير نفسها)[4] ، علماً بأن بيبرس هو أول سلاطين الشراكسـة عـلى الأرجـح، ويعنـي أن بـدء الاهتمام بأوضاع الشعب والعمل على تحسـينه كـان بدايـة عصر السـلاطين موضـوع بحث هذا الكتاب[5]، ومما يدل على غنى الشعب هو (فرض قازان على دمشق أربعة ملايين درهم، ولم تجد المدينة صعوبة في دفع المبلغ)[6].

يتضح لك غنى الشعب، وبالطبع إذا كان الشعب غنياً فالسلاطين أغنيـاء. وذكرنـا الأسباب العديدة لذلك، وليس السبب الاستغلال كما ذكر البعض بل بـالعكس كانـت العدالة هي السائدة، وكما ذكر (كانت دمشـق لهـا مـن المـوارد مـا ورد ذكـره، تـنعم بثروتها التي لم تكن ولا شك موزعة توزيعاً سوياً)[7].

---

[1] - العصر المملوكي في مصر والشام ص309 ـ 311 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص214 إلى 217.

[2] - مصر والشراكسة ص121.

[3] - دمشق في عصر المماليك ص65.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص100 المماليك ص205.

[5] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص74.

[6] - دمشق في عصر المماليك ص145.

[7] - دمشق في عصر المماليك ص145.

ب ـ دولة عالمية ينظر ويتطلع إليها:

كانت لدولة السلاطين علاقات داخلية وخارجية واسعة مع عدد كبير من الدول الإسلامية وغير الإسلامية سواء كانوا من الأعداء كمغول وصليبيين أو علاقات ود مثل اليمن والحبشة وبعضها تأرجح بين الاثنين[1].

إجراء المعاهدات:

المعاهدات هي نصوص تكتب بين طرفين بعد إجراء مناقشات لما فيه خير الطرفين، والمعاهدات عرفت منذ القدم، قد تكون المعاهدات متساوية، منحازة لمصلحة أحد الأطراف مقابل أمن وسلامة الطرف الثاني، والمعاهدات تدل على رقي الشعوب ونبذ للحروب والخلافات، وإيجاد الحلول للمشاكل القائمة، وكانت دولة عصر السلاطين في مصر وبلاد الشام محط الأنظار لما لها من أهمية إستراتيجية لموقعها ولما لها من سيطرة واسعة. ويقول جاستون فييت عن القاهرة (هذه المدينة من الناحية السياسية والتاريخية والاقتصاية في العصور الإسلامية المتلاحقة، وبخاصة إبان حكم سلاطين المماليك البحرية والجراكسة، فيقرر بصراحة دون لبس أن القاهرة أصبحت في عصر سلاطين المماليك. بمثابة عاصمة عالمية مع بقائها مركزاً إسلامياً كما أصبحت وجهة أنظار الأوربيين بسبب الرخاء التجاري الذي نعمت به)[2].

نتذكر كيف عقد الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدات داخل نطاق دولته ومع من حوله، ويذكر بأن جرى عقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل البحرين وكانوا وقتها مجوساً، وجرى عقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل نجران وكانوا نصارى[3].

---

[1] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص62.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص10 ـ 11.

[3] - الجهاد في الإسلام ص122.

اهـتم السـلاطين في عصرهـم بالمعاهـدات والعلاقـات[1]، بمـا يعـود علـيهم وعـلى الشعب العربي بالخير الوفير، وكانت وسيلة ناجحة بدل الحـروب (وبفضـل المعاهـدات الرسمية، والعلاقات السياسية الجيدة، وتبـادل بعثـات الصـداقة وأمكـن ضـمان سـلامة التجار، فعلى سبيل المثال أعلن المماليك عن حماية شاملة في رسـالة عامـة (عهـد أمـان) وصدرت في 687هـ 1288م لتوزع في الهند والصين واليمن، وكانت هذه الرسـالة النظـير الشرقـي الضروري والبـديل للمعاهـدات الرسـمية مـع الأوربيـين، وسـعت الحكومـات الأجنبية بدورها لتشجيع التجارة)[2] ، وحقاً (كانت دولـتهم أرقـى دولـة في عصرهـا)[3]. وسأذكر بعض الاتصالات التي جرت بين السلاطين والأقطار والأنحاء الأخرى.

اتصالات مع الوطن العربي:

تم تبادل الاتصالات مع الأطراف العربية، ففي عصر السلطان بيبرس وصلت إليه رسل الـيمن يعلنـون وضـع أنفسـهم تحـت خدمتـه[4]، والخضـوع والانـتماء لـه، وأن يخطب في بلاد اليمن باسم السلطان كما أرسل الهدايا وتحفاً كثيرة، فأرسـل السـلطان إليهم هدايا وسنجقاً وتقليداً[5]، وكذلك تبادل برقوق مع ملك اليمن رسائل عدة[6].

بعد أن فتح اللـه على السلطان بيـبرس رأى أن يعلـم أهـل المغـرب العـربي فأرسـل لهم الرسل ذلك ليشد أزر المسلمين على الفرنجة[7]، وظلت علاقات الود متصـلة حتـى في عهد دولة الجراكسة مع ملوك المغرب، فيذكر أنه أرسـل أبـو عبـد اللـه محمـد بـن أبي

---

[1] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص95.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص195.

[3] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص17.

[4] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص128 ـ 290 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص141.

[5] - البداية والنهاية ج13 ص251.

[6] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص74 ـ 435 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص359.

[7] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص337 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص367.

يحيى بن أبي بكر سلطان تونس كتاباً رفيعاً فيه تهنئة صاحب تونس إلى السلطان برقوق بمناسبة عودته إلى ملكه، واستقبل برقوق رسل تونس[1]، وكان تبادل الرسائل بين السلطان برقوق وسلطان مراكش تؤكد المودة التي بينهما[2].

أرسلت رسالة من أبي عبد الله محمد الأحمر من غرناطة إلى السلطان الأشرف شعبان[3]، وقدم سفير غرناطة المسلم مقالة إلى السلطان جقمق جاء فيها: (أنت هو كبير الملوك والسلاطين وقديم الحرمين الشريفين). وظل أمراؤها يلتمسون من جانب أقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت، وأرسل أميرهم أبو عبد الله بن محمد رسالة للسلطان مضمونها التماس العون ووافق السلطان على مدهم بالمال لصعوبة إرسال قوة حربية لبعد المسافة[4].

أرسل صاحب بغداد تبريز حسين بن أويس في جمادي الأول 783هـ رسالة إلى السلطان يرقوق، وكذلك أويس في صفر 785هـ أرسل رسلاً إلى القاهرة ومعهم هدية وأحضروا إلى دار العدل، وأنزلوا بدار الضيافة[5].

اتصالات مع الدول الأجنبية:

أرسل ملك الحبشة رسالة إلى السلطان بيبرس، وأرسل السلطان جواباً له عليها، كما أرسل ملك الحبشة رسالة إلى السلطان قلاوون[6]، وأرسل السلطان وفداً إلى الحبشة لاستطلاع الأوضاع ثم كتب إلى ملك الحبشة ينكر عليه ويأمره أن لا

---

[1] - قيام دولة المماليك الثانية ص154 الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص125 ـ 430.

[2] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي الإسلامي ص 658 الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص74 ـ 410.

[3] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص73.

[4] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة من المقدمة ص ص وص 146 ـ 147.

[5] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص275 ـ 323.

[6] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص468 ـ 469 ـ 496.

يحدث أي شيء، وكان ذلك في رجب 783هـ[1]، وفي أواخر عام 788هـ وصلت إلى القاهرة رسل الحبشة بهدايا جليلة[2].

وصل رسل الملك شارل أخو الملك فرنسيس وهو صاحب مرسيلية، ووصلت معه العديد من الهدايا إلى السلطان بيبرس مع كتاب منه[3].

تبودلت الرسائل والهدايا بين السلطان قلاوون وألفونس العاشر صاحب قشتالة، وأرسل صاحب أشبيلية ألفونس رسالة إلى الظاهر يدعي ويطلب صداقته[4]، وحضر رسل صاحب اشبيلية من قبل ملك الكيتلان عام 784هـ يسألون السلطان الشفاعة في صاحب سيس[5]، وأرسل الظاهر بيبرس رسالة إلى ملك سيس هيثوم حول إطلاق سراح ولده مقابل تسليم شمس الدين سنقر الأشقر لما تم أسره في حلب، أي تبادل الأسيرين كما تم عقد هدنة بين السلطان قلاوون وملك سيس النكفور ليفون بيتوم[6]، كما دخلت رسل صاحب سيس 784هـ مع رسالة يخبر فيها أن كبير الأمن في بلادهم توفى فحكمت زوجته مدة ثم عزلت نفسها، واتفقوا على أن يفوضوا الأمر للسلطان فيختار لهم شخصاً، فاختار السلطان برقوق أميراً منهم ممن كانوا أسرى بيد المسلمين[7].

حضر رسل صاحب قيسارية، ورسل صاحب تكريت عام 785هـ إلى القاهرة طالبين أن يكونوا تحت حكم السلطان وأن يخطبوا باسمه فأجيب طلبهم[8].

---

[1] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص270 الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص83.

[2] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص280.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص201.

[4] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص399.

[5] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص300.

[6] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص468 ـ 472.

[7] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص300.

[8] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص327.

وصل الرسول الذي كان السلطان بيبرس أرسله إلى الكرج بكتابين أحدهما من ملك الأبخاز والآخر من ملك تفليس مضمونهما أنهما خرجا عن التتار لأجل السلطان[1].

حضر رسل علي باي بن قرمان صاحب قونية وغيرها من بلاد الروم في محرم 791هـ حاملين هدية فقبلت منهم[2].

أول عمل هام قام به السلطان بيبرس هو أنه أرسل رسالة إلى الملك بركة رئيس القبيلة الذهبية، وذلك حرصاً على ضم بركة إلى الإسلام[3]، هذا ووصلت رسالة الملك بركة إلى مصر[4].

قدم رسل طقتمش خان بن أزبك سلطان الدشت برئاسة حسن بن رمضان وهو ابن نائب القرم، فقبلت هديتهم، وتمت إجابتهم، وكان ذلك عام 786هـ وفي العام التالي في صفر أرسل طقتمش أيضاً رسلاً مع هدية طالباً أن يكون مع السلاطين كإخوة، وفي عام 788هـ أرسل اثنان هما الحاجب قدير وبكتمر العلائي من قبل السلطان إلى طقتمش خان وذلك من مصر إلى بلاد القبجاق[5].

وصل عام 787هـ رسل الأشكري صاحب اسطمبول مع الهدايا يطلبون أن يكون لهم قنصل في الإسكندرية، وتمت الموافقة على طلبهم[6].

وصل في شوال عام 787هـ تغر خجا التركماني عم قرا محمد التركماني طائعاً، وكان له الحكم على ماردين إلى الموصل وطلب أن يكون مع السلطان، وتمت الموافقة على طلبه[7].

---

[1] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص299 تاريخ الملك الظاهر ص168.

[2] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص439.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص9 ـ 10 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص355.

[4] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص214 البداية والنهاية ج13 ص238 العصر المماليكي في مصر والشام ص240.

[5] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص347 ـ 361 ـ 376.

[6] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص361.

[7] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص361.

وصل الأمير الوزير خليل بن شاهر بن الشيخي نائب ملطية في 20 جمادي الآخرة 847هـ وقدم هديته وأعطاه السلطان خلعة الاستمرارية في نيابته[1].

أرسل ملك التتار أحمد إلى السلطان المنصور قلاوون رسالة يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم فأجابه قلاوون[2]، وكذلك وصل إلى دمشق من عند ملك التتار الخواجة مجد الدين إسماعيل بن محمد ياقوت السلامي ومعهم هدايا للمصالحة[3]، ووصل في 27 جمادي الآخرة 847هـ إلى القاهرة القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك، وقاصد جهان شاه بن قرا يوسف صاحب تبريز[4]، ووصل إلى القاهرة جهان المذكور مرة ثانية في صفر 855هـ ، وقدموا هدية وكتاباً عربياً فكان فحواه التودد إلى السلطان وأنه تحت طاعته[5]، وفي يوم الاثنين 17 ذي الحجة 856هـ عمل السلطان واجب الضيافة بالحوش لقضاء جهان شاه، وليعلم السلطان بأن جهان شاه خسر عساكر يابو بن باي واستولى على عدد من البلاد، وكذلك في 19 ذي الحجة 860هـ طلع جهان شاه بن قرا يوسف وقبل الأرض بين يدي السلطان وأدى رسالة مرسله بعد الإسلام[6].

وصل رسل من قبل إسماعيل شاه الصفوي في شعبان 913هـ يعتذر عن ما وقع من عسكره في دخولهم بلاد السلطان ويؤكد بأنه لم يكن بإذنه ولا علم له بذلك، وقبل الاعتذار[7].

---

[1] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص95.

[2] - البداية والنهاية ج13 ص299.

[3] - البداية والنهاية ج14 ص97.

[4] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج1 ص95.

[5] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص320. مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص124.

[6] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2 ص382 ـ 596.

[7] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص223.

ارتبطت دولة هندستان مع سلطنة المماليك في علاقات الود والمحبة، فقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دلهي في توطيد دعائم دولته وحالف سلطنة المماليك في مصر بوصفها إسلامية مناهضة لمغول فارس[1].

كان الهدوء والتقارب بين السلاطين والعثمانيين في بداية ظهور العثمانيين، وكان بينهما تبادل الرسائل، واستمر السلم وتبادل الزيارات والترحيب والحفاوة وتقديم الهدايا الثمينة[2]، فنجد السلطان مراد الأول العثماني أرسل سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية ومع ذلك لم يستطع برقوق أن يخفي مخاوفه من أطماع العثمانيين[3]، وبقيت العلاقات ودية، ووصل إلى القاهرة رسل السلطان بازيد ومعهم هدية للسلطان برقوق منها مائة أسير من الفرنجة الفرنسيين والإيطاليين[4]، واشتهر يلدرم بازيد بالجهاد في الكفار، وكاتبه السلطان برقوق[5]، كما أرسل السلطان برقوق رسالة لصاحب القسطنطينية[6]، وتجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلاطين في مصر فأرسل مراد الثاني سفارة إلى القاهرة لتهنئة السلطان برسباي بالسلطنة ومعه هدية وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها، كما زادت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني والسلطان جقمق وحرص مراد أن يبعث لمصر عدد من أسرى انتصاره على الجانب الأوروبي عند قارنا، واستمرت السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثاني والسلطان إينال[7]، كما أرسل السلطان العثماني محمد الفاتح إلى سلطان مصر الأشرف إينال يخبره بفتح

---

[1] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص366.

[2] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص203.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص268 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص384.

[4] - قيام دولة المماليك الثانية ص147.

[5] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج2 ص119 مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص162 ـ 163.

[6] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص152.

[7] - العصر المماليكي في مصر والشام ص270 ـ 271.

القسطنطينية، كما أرسل السلطان رسالة جوابية لمحمد الفاتح[1]، وحينما ورد نبأ وفاة السلطان العثماني أبو زيد بن محمد بن مراد خان حزن سلطان مصر الغوري، وصلى عليه صلاة الغائب، وكان آخر اللقاءات قبل بداية تحرشات العثمانيين بدولة السلاطين كان إرسال الأمير أقباي الطويل إلى سليم لتهنئته بالملك وإقامة علاقات مودة بينهما، وكان خروج أقباي في مصر في 10 ذي القعدة 918هـ وعاد في ربيع الأول وقد بالغ السلطان سليم في إكرامه[2].

عادت رسل السلطان محمد بن قلاوون عند الملك طقطاي ملك بلاد القبجق والجركس والقوقاز[3].

وصلت رسل الفرنجة في جمادي الآخرة 918هـ، رع 788هـ بهدايا جليلة[4].

عقدت هدنة بين أهل جنوة وبين السلطان قلاوون[5]، وكذلك حضرت رسل جنوة في 17 محرم791هـ ومعهم الخواجا علي أخ عثمان الذي كان الفرنجة قد نهبوا مركبه، وقدموا هدية فقبلت منهم[6].

وصلت رسل جارلا كما تسميه الفرنجة ويجار أخو لويس المعروف بالريد فرانس فكتب السلطان بيبرس إليه بقبول شفاعته في الساحلية[7].

عقدت هدنة بين السلطان المنصور وملك أراغون وأخيه ملك صقلية وأخيهما الآخر، كما عقدت بين السلطان قلاوون وبين الريد راكون الرشلوني وأخيه صاحب صقلية[8].

---

[1] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص443 ـ 448.

[2] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص266 ـ 229 ـ 230.

[3] - مصر والشراكسة ص36.

[4] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص380.

[5] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص480.

[6] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص380.

[7] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص236.

[8] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص 84 ـ 485.

أبرمت معاهدة بين السلطان والبندقية، وجعل بموجبها خدمات سنوية تقوم في الإسكندرية[1]، كما أرسل السلطان فرج بن برقوق رسالة إلى دوق البندقية[2].

عقدت معاهدة بين السلطان الغوري مع جمهورية فلورنسا وإيطاليا[3].

كلف فلوفيان رئيس الأسبتارية مندوباً عنه إلى السلطان برسباي لعقد معاهدة مع جزيرة رودس، وقدم هدية إلى السلطان، ووعد بدفع جزية سنوية له[4].

ج ـ هل هذا عصر انحطاط:

أكد جميع كتاب عصر دولة السلاطين والرحالة والباحثون، وفيما بعد عصرهم أيضاً، سواء من العرب أو الأجانب الغنى والرخاء الذي كانت عليه دولة السلاطين (يقول المفكر العربي وواضع علم الاجتماع ابن خلدون خلال القرن الثامن الهجري 14م ما نصه: من لم ير القاهرة لا يعرف عز الإسلام فهي حاضرة الدنيا وبستان العالم، ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في وجوهه تزهر الخوانك والمدارس بآفة، وتضئ البدور والكواكب من علمائه، وقد مثل بشاطئ النيل الجنة، وعلى الجانب الآخر كثيراً ما حدثنا الرحالة عن ثراء سكان القاهرة فيقول أحدهم[5]:إذا كان لي أن أصف ثراء هذه المدينة فلن يكفيني هذا الكتاب، إذ لو أمكن ضم رومة وميلانو وأدمرة وفلورنسة أربعة أخرى من المدن بعضها إلى بعض، أقسم أنها جميعاً تحتوي نصف ثروة القاهرة[6].

وصف التاجر باسل الروسي القاهرة في عصر السلاطين بأنها أربعة شوارع ودروب، ولكل منها باب وحارسان، ولكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلاً

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص60.

[2] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص514.

[3] - مصر والشراكسة ص93.

[4] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص105.

[5] - جاستون فييت.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص9 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص163.

عن سوق كبير للحاجات اليومية للسكان بعد أن تغلق الأبواب يشدد الجراكسة عليها[1].

تدل الظاهرات العمرانية على أنها دولة عالية، ولا تخلف فيها، وأهم سبب للازدهار هو اعتمادهم على التجارة التي هي من دعائم اقتصاد دولتهم[2]، فيصف هولاكو القائد المغولي القاهرة في إحدى رسائله بأنها (كروان سراي) أي محطة تجارية عالمية، أو سوق تجاري عالمي، ويقول المقريزي في الخطط: سمعت الكافة ـ أي الناس جميعاً ـ ممن أدركتهم يفاخرون بمصر وسائر البلاد[3]، فالتجارة سواء المحلية والموسمية والسنوية[4]، كانت مربحة لأفراد الشعب[5]، ولا فساد فيها وكانت المراقبة الدائمة من قبل السلطة، وكان الناس مرتاحين نفسياً لذلك، والأموال متوفرة ولا مشكلة لدى أفراد الشعب فكثرت المحلات التجارية (وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الأمور بأن في دمشق من المتاجر ما يكفي حاجات العالم المسيحي سنة كاملة)[6]، كما يمكن الاستدانة لفتح مشروع فقد (كان بإمكان أي واحد اقتراض المال والشروع في عمل بيع الألبسة)[7]، ولم تقتصر التجارة على التجارة الداخلية[8] فحسب بل التجارة الخارجية أيضاً وكان لهم دور الوسيط في تجارة جنوب شرقي أسيا وتركيا وإيران وأوروبا[9]، كما لم يكونوا مستهلكين للتجارة فقط بل مستثمرين فيها، وأنشأوا المشاريع والشركات مع تجار آخرين، وقد تشارك الأمراء والسلاطين برأس المال مع التجار[10]، (إن سلاطين الشراكسة لم

---

[1] - العصر المماليكي في مصر والشام ص188 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص164.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص12.

[3] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص69.

[4] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص211.

[5] - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص213.

[6] - دمشق في عصر المماليك ص108 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص254.

[7] - مدن الشام في العصر المملوكي ص422.

[8] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص287.

[9] - دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص67 ـ 68.

[10] - مدن الشام في العصر المملوكي ص190.

يعملوا على الاحتفاظ بقوة مصر وسلطانها فحسب، بل عملوا كذلك على نشر تجارتها الخارجية في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وعقدوا اتفاقات تجارية)[1]. وجعلت أسواق مدنها وخاصة مدينة القاهرة ودمشق متعددة ومتخصصة بمعنى أن كل سوق اختص بنوع معين[2].

ازدهرت الصناعة كثيراً[3] في مصر عصر السلاطين نتيجة لكثرة الثروة فيها، واحتلت الصناعات الحربية مكاناً بارزاً في النشاط الصناعي وجدد في القاهرة سوق كبير اسمه سوق السلاح، وكذلك ارتبطت الصناعات الحربية بالسفن إذ أنشأ السلاطين أسطولاً بحرياً قوياً يحمي الشواطئ الواسعة، وكانت السفن الحربية على أنواع منها الشواني والحراريق والطرائد[4]، كما عرفت مصر صناعة السجاد التي استخدمت للقصور والمساجد[5].

اهتم السلاطين في مصر بالزراعة اهتماماً كبيراً، حيث كانت الزراعة دائماً الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم السكان، ومعروف أن أراضي مصر الزراعية كانت إقطاعيات وزعت بدل الرواتب، وهي غير وراثية لم تعط له، وتؤخذ منه بعد انتهاء عمله في حال تغير وظيفته، وهذه الاقطاعات وزعت على السلطان والأمراء والأجناد وغيرهم من الموظفين، وبعد أن قسمت إلى أربعة وعشرين قيراطاً كما مسحت الأراضي الزراعية وقيست ومسحت أكثر من مرة في عصر السلاطين، وتبع ذلك فك الزمام وتعديله، هي العملية المعروفة باسم الروك نذكر منها الروك الحسامي، والروك الناصري[6]، وبالإضافة

---

[1] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص33.

[2] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص251.

[3] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص237.

[4] - العصر المماليكي في مصر والشام ص288 ـ 289 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص200.

[5] - دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص21 ـ 22.

[6] - العصر المماليكي في مصر والشام ص283 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص197 الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص12 ـ 101 ـ 134 ـ 135 المماليك ص171 ــ 172 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص297 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص283.

إلى الثروة الزراعية عني السلاطين أيضاً بالثروة الحيوانية فأكثروا من إنتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها حتى ازداد عدد المواشي وارتفعت سلالتها، وكان من هؤلاء السلاطين الناصر محمد الذي عني بإنتاج المواشي والأغنام، وليس على المناطق القريبة من عاصمته، وإنما صار يتبع مراعيها في فيذاب وقوص وغيرها من أنحاء البلاد[1].

كانت الصناعات الحرفية دوراً هاماً ومثار إعجاب للشرق والغرب على السواء [2]، وذلك في عصر السلاطين، فقد كانت دمشق تنتج السكر[3]، كما كانت تصنع فيها المنسوجات المتنوعة القطنية والحريرية[4]، وكذلك صناعة الزجاج العادي والملون والبللور الصخري، وكانت الصناعات الخشبية[5]، والخزف والفخار والمزخرفات الحديدية والكاغد والصابون والعطور، كما كانت الصناعات الزيتية فقد انتشرت معاصر زيت اللفت في أرجاء البلاد، وهناك الصناعات الزيتية الصناعية مثل صناعة الزيت بعصره من السمسم فضلاً عن الكتان والذي كان يستخرج منه الزيت الحار، وكذلك صناعة الورد وماء الزهر، والشموع والأحذية[6]، وكانت المدينة مشهورة أيضاً بصياغة الذهب والفضة[7]، والنحاس، وراج تطعيم البرونز

---

[1] - العصر المماليكي في مصر والشام ص287 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص198.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص154.

[3] - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص207 الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص162.

[4] - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص67 ـ 68 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص201 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص238 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص285.

[5] - العصر المماليكي في مصر والشام ص292 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص201 ـ 203 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص285.

[6] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص167 ـ 174.

[7] - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج2 ص101.

بالنحاس والذهب والفضة[1]، واشتهرت هذه الأعمال في القاهرة، وكان بعض الأوروبيين يفضلونها على باريس وفلورنسة[2]، كما اهتم السلاطين بصناعة السفن وخاصة الحربية منها[3]، وكذلك صناعة لوازم الدواب، وكانت لها أسواق وخاصة مثل سوق المرجليين، وسوق المهمازين، وسوق اللجميين، وسوق الحوائطيين، كما كانت صناعة الورق مزدهرة في القاهرة، كما عرفت في دولة السلاطين (صناعة السكاكين والأقلام المذهبة والمطعمة بالجواهر والسلاسل الذهبية وأساور وخلاخيل النساء، والخواتم والقلادات الذهبية والفضية)[4].

تعددت مركز دور ضرب النقود وسكها في زمن السلاطين، وشملت عدداً من أقاليم الدولة ومدنها المختلفة بعضها في القاهرة والإسكندرية وقوص وغيرها، واستخدمت دور الضرب ثلاثة معادن لإصدار العملات النقدية وهي الذهب والفضة والنحاس[5].

تطورت المدن وتوسعت[6]، واستتب الأمن والاطمئنان (ولم يعد السكان يشعرون بالحاجة إلى ضرورة البقاء داخل أسوار دمشق، ومن ثم فقد طرأ على الضواحي تطور جذري، وهو تطور لم يجاره إلا التطور الاقتصادي في المدينة)[7]، فخرج الناس من القلاع ونشأت الضواحي في المدن وأصبح التطور والتوسع العمراني واضحاً في المدن وخاصة مدينة دمشق التي صارت حولها ضواح متطورة، وكان من عوامل

---

[1] - العصر المماليكي في مصر والشام ص291 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص205 الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص 173 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص239 مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص285.

[2] - دمشق في عصر المماليك ص104.

[3] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص154 ـ 168 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص207.

[4] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص170 ـ 172.

[5] - النظام المملوكي النقدي ص52 ـ 82 السكة الإسلامية في عصر دولة المماليك الجراكسة ص33 ـ 41 ـ 155 ـ 193.

[6] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص155.

[7] - دمشق في عصر المماليك ص62.

التطور الأخرى (الازدهار الاقتصادي وحكم القانون واستعادة المناطق الساحلية من الصليبيين وتركيز التجارة على الطرق السورية بسبب ما كان يعترض الطريق الشمالي البيزنطي من متاعب)[1].

كان واضحاً اهتمام السلاطين والأمراء برفاهية المدن، فهم لم يكونوا منعزلين عن أفراد الشعب مع العلم بأنهم ليسوا من العرب، وهذه الصفة قد تجعل كلا الطرفين على حذر من الآخر ومع ذلك (وصل الاهتمام بالرخاء العام إلى القمة في القرن الرابع عشر، حيث أعطيت فترات المنصب الطويلة فرصاً لتحقيق الثراء الذاتي، ولنمو الروابط الأسروية والسياسية مع السكان الطبيعين، وبالضرورة أدى التورط في المسائل المحلية إلى الاعتماد على الوجهاء المحليين لتحقيق الشرعية والمعونة الإدارية والسياسية)[2].

لقد أسهبنا في الحديث ووصف الرفاه الذي كان قائماً في عصر دولة السلاطين [3]، وذلك لأن الكثير كتب عن عصرهم واصفاً إياه بأنه عصر الانحطاط رغم توفر الخيرات لديهم فمثلاً كانت (تباع جميع المآكل في الشوارع كالخبز والماء واللحم المطهو على اختلاف أنواعه، وكل أصناف الفواكه، إذ أن الناس هناك لا يطبخون في البيوت، وأنهم يبعثون في طلب كل ما يرغبون فيه من السوق)[4] ، ألا يدل ذلك على الرفاهة؟ وكذلك نجد المساكن التي قلما لا تجد فيها نافورة ماء، كذلك الإضاءة الليلية للشوارع، فقد كتب عن مدنهم (أن جميع الشوارع الواقعة داخل سور المدينة تنيرها في الليل مصابيح معلقة فيها. وبيوتها مرتفعة مبنية من الخشب الذي لا يظهر للعيان، إذ أن جدرها الداخلية مطلية باللون الأزرق الفاتح، وأرضها مكسوة بالفسيفساء وما أقل البيوت التي لم يكن فيها نواعير منحوتة من

---

[1] - دمشق في عصر المماليك ص115.

[3] - مدن الشام في العصر المملوكي ص120.

[3] - صور ومظالم من عصر المماليك ص92.

[4] - دمشق في عصر المماليك ص106 صور ومظالم من عصر المماليك ص92 دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص117.

الرخام، وهي متعة للناظرين)[1]. وللمدن حرس في الشوارع وخاصة للمحلات التجارية[2]، فقد عرف عنهم أيضاً بأن (كان لهم ترتيب جميل لحراسة الشوارع التي فيها التجار والصناع ليلاً، إن أكثر شوارع دمشق مسقوفة أو معقودة يتخللها النور بالقدر اللازم من فتحات في السقف، وإذا جن الليل أوقدوا المصابيح الزجاجية في الشوارع كلها بحيث يكون بين المصباح والآخر اثنا عشر ذراعاً، فترى ليلاً كأنها في وضح النهار،بسبب المصابيح الكثيرة التي توقد، وقد قيل إن عدد المصابيح التي كانت توقد كل ليلة كان يبلغ نحو الثلاثين ألف مصباح، وكان في كل شارع حراس يقومون على حراسة الحوانيت)[3] ، ولتوفير أسباب الراحة للتجار والوافدين أقيمت المؤسسات التجارية المتنوعة داخل المدن وخارجها على امتداد طرق التجارة مثل الخانات والوكالات والفنادق، وكان بعضها مثل خان السبيل يقام لنزول أبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة[4]، ويجدر بنا أن نشير إلى أن الكتاب المعاصرين وفي أواخر عصر السلاطين أطلقوا اسم الفندق على الخان[5].

عرف السلاطين البريد لما له من أهمية، فقد كانت هناك مراكز للبريد منها مراكز للحمام الزاجل، حيث تربط الرسائل على أرجلها[6]، كما بنيت مراكز بين كل منها مسافة قدرت بتعب الفرس المسرع، فتحمل الرسائل من مصر مثلاً وينطلق ساعي البريد على الحصان مسرعاً فحين يتعب الحصان يكون قد وصل إلى مركز بريد جديد فيه خيول مستريحة فيترك الحصان القديم، ويمتطي فرساً آخر، وينطلق دون توقف، وهكذا ينتقل بالخيول في المراكز المتفرقة إلى أن يصل وجهته[7]،

---

[1] - دمشق في عصر المماليك ص105.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص187.

[3] - دمشق في عصر المماليك ص108 ـ 109 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص164 ـ 148 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج7 ص139.

[4] - العصر المماليكي في مصر والشام ص297 الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص207.

[5] - العصر المماليكي في مصر والشام ص300.

[6] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص13 ـ 14 العصر المماليكي في مصر والشام ص87 ـ 370.

[7] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص96.

واستفاد كافة الناس من هذه الخدمات وبالأخص التجار[1]، والصناع ولنقل أخبار تحركات الأعداء، وكانت المعاملة في المراكز العديدة ميسرة فقد (منح التجار إلى جانب الحماية مساعدة هامة بالخدمات الرسمية، والنزل المتعددة على طول الطرق الرئيسية، والتي دعمتها الدولة أو الأطراف، وتمكنوا بذلك من إيجاد المأوى والزاد، وهكذا كانت هذه الخدمات ذات قيمة كبيرة وكلفة عالية)[2].

أولى السلاطين عناية خاصة بالصحة العامة عن طريق فتح البيمارستانات أي المشافي للمعالجة والتعليم، واعتنوا بالنظافة العامة للمدن[3] فقد (طلب حاكم دمشق من القضاة والشهود المصادقة على الإجراءات اللازمة لمصادرة الحمامات والمراحيض الملوثة لماء نهر بردى، ونجد في أمثلة أخرى أنه تم الحصول على إذن بهدم المنازل والمتاجر[4].

اهتم المماليك بالدفاع عن البلاد ضد أي اعتداء على دولتهم إضافة إلى حفظ النظام الداخلي، وهذا كان العمل الأساسي لديهم، ولكن في فترات السلم كانت العناية توجه إلى العمران وتجميل المدن وتوسيعها، وحفظ الأمن إضافة إلى اهتماماتهم الاعتيادية على تعليم أفراد الشعب بالمجان والعناية بالمساجد. وقبل أن أختم الكتاب أود الإشارة إلى اهتمام السلاطين بلغة الضاد لغة القرآن الكريم ولغة العرب وعنايتهم الفائقة بها وعدم محاولتهم فرض لغة أخرى على شعوبها فقد كانت (اللغة الرسمية في عهدهم اللغة العربية... وكانت دولتهم أرقى دولة في عصرها[5].

---

[1] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص286.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص197.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص328 مصر عصر دولة المماليك البحرية ص164 مدن والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص288.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص110.

[5] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص7.

المراجع

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني.الدكتور:عمر موسى باشا.مطبعة الإحسان بدمشق. سورية1979 ـ 1980م.

3 ـ مصر والشراكسة تأليف: راسم رشدي.دار صوت النارتيين للنشر، عمان الأردن.

4 ـ من الموجز في تاريخ سورية تأليف:يوسف الدبس. بيروت.لبنان 1906م.

5 ـ الوطن في أدب الشراكسة تأليف: إيمان بقاعي.دمشق.سورية.

6 ـ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي تأليف: الدكتور محمد ماهر حمادة. مؤسسة الرسالة. بيروت.لبنان.الطبعة الأولى 1980.

7 ـ فلسطين والقرشاي. تأليف:محمد عمر بغداي.دمشق سورية.

8 ـ مدن الشام في العصر المملوكي.تأليف: إيراما رفين لابيدوس. ترجمة: الدكتور سهيل زكار. دار حسان للطباعة والنشر.الطبعة الأولى1980م.

9 ـ الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني. تأليف محمد عبد المنعم خفاجي. القاهرة.مصر.1984م.

10 ـ مقالات الكوثري. تأليف:محمد زاهد الكوثري. بيروت.لبنان.1994م.

11 ـ كنوز الأجداد. تأليف: محمد كرد علي.دمشق.سورية.1950م.

12 ـ الجهاد في الإسلام.تأليف:الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر. الطبعة الأولى.1993م.

13 ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. تأليف:جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي 12 جزء. الطبعة الأولى 1925م.

14 ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك. تأليف: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور. دار النهضة العربية. بيروت.لبنان.

15 ـ مختار الصحاح.تأليف:محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. دار المتنبي للطباعة والنشر. بيروت.لبنان. الطبعة الأولى.1982م.

16 ـ المصباح المنير. تأليف: أحمد بن محمد بن عبي الفيومي المقـري. بـيروت. لبنـان 1990م.
17 ـ منجد الطلاب. تأليف: فـؤاد إفـرام البسـتاني. دار المشرق ش م م. بـيروت لبنـان. الطبعة الأربعون 1992م.
18 ـ رياض الصالحين. تأليف: يحيى بـن شرف النـووي. دار المـأمون للـتراث. الطبعـة الرابعة عشر. دمشق.سورية.1994م.
19 ـ إحياء علوم الدين.تصنيف الإمام: أبي حامد بن محمد الغزالي. المجلـد الأول. دار الفكر للطباعة والنشر. بيروت. لبنان 1994م.
20 ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف. الأجزاء الأول والثاني والثالـث. تـأليف: زكي الدين بن عبد القوي المنذري. ضبط أحاديثه وعلق عليه: مصطفى محمد عمارة.
21 ـ تنظيم الأسرة في التراث الإسلامي. تأليف:الدكتور عبد الرحيم عمران.
22 ـ لباب الخيار في سـيرة الرسـول محمـد صـلى الـلـه عليـه وسـلم. تـأليف:الشـيخ مصطفى الغلاييني. المكتبة الأدبية. حلب. سورية. الطبعة الثالثة 1924م.
23 ـ العصر المملـوكي في مصر والشـام. تـأليف: الـدكتور سـعيد عبـد الفتـاح عاشـور. الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية. مصر. الطبعة الثالثة 1994م.
24 ـ طومان باي. تأليف: الدكتور عبد المـنعم ماجـد. الطبـع والـنشر مكتبـة الأنجلـو المصرية. مصر 1978م.
25 ـ قصص الأنبياء. تأليف: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري 1989م.
26 ـ سفر التكوين.
27 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر. الجزء الأول. تـأليف: المسـعودي. بـيروت لبنـان 1966م.
28 ـ الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج1.ج2.تأليف:السيد أحمد بن زيني دحلان.
29 ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي.تأليف: الـدكتور محمـد ماهر حمادة. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى1980م.

30 ـ ولاة دمشق في عهد المماليك.تأليف: محمد أحمد دهمان. دار الفكر. دمشق. سورية.الطبعة الثانية1984م.
31 ـ والإسلاماه. تأليف: علي أحمد باكثير. دار مصر للطباعة. القاهرة. مصر.
32ـ أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس.الجزء الأول. تأليف: الدكتور شوكت المفتي. عمان.الأردن.1974م.
33 ــ حوادث وقضايا المرأة والتراث والحرية.تأليف: نبيل فياض. دمشق. سورية.الطبعة الأولى.1992م.
34 ـ معجم البلدان. من ج1 إلى ج10. تأليف: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. مطبعة السعادة بمصر. الطبعة الأولى 1906م.
35 ــ البداية والنهاية ج1 2 13 14. تأليف: أبو الفداء الحافظ بن كثير. مكتبة المعارف. بيروت.لبنان. الطبعة الخامسة 1983م.
36 ـ المماليك. تأليف: الدكتور السيد الباز العريني. دار النهضة العربية للطباعة والنشر.بيروت. لبنان.
37 ـ اليهود في القرآن. تأليف:عفيف عبد الفتاح طبارة. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان. الطبعة الحادية عشرة 1986م.
38 ـ جريدة الموقف الرياضي السورية العدد 1574 تاريخ 1995/11/25.
39 ـ نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال. تأليف: الدكتور زهدي سطاس، الدكتور راتب سطاس، ملك أرسلان، أميرة قبرطاي. دار شرق مغرب للخدمات الثقافية والطباعة. دمشق. سورية. الطبعة الأولى 1997م.
40 ـ دروب الهجرة. تأليف: إسكندر مجار. نقلها إلى العربية: بسام حجار. دار النهار للنشر ش م ل. بيروت. لبنان. طبعة 1995م.
41 ـ تفسير البشائر وتنوير البصائر. تفسير: علي الشربجي. طار البشائر. دمشق. سورية. الطبعة الأولى. 1997م.
42 ـ مجلة العربي الكويتية. العدد 366 أيار 1989. والعدد 367 حزيران 1997م.
43 ـ أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة. تأليف: باتراي أوزبك. ترجمة: أحمد راتب زنداقي. مكتبة الشباب ومطبعتها. عمان. الأردن 1988م.

44 ـ تاريخ القوقاز. تأليف: مت جوناتوقه يوسف عزت. تعريب: خوستوقه عبد الحميد غالب بك. القاهرة. مصر 1912م.
45 ـ موجز تاريخ الجركس. تأليف: شورا بكمرزا نوغمو. تعريب: شوكت المفتي حبجوقة. طبعة الأردن. عمان. الأردن.
46 ـ عشائر الشام.ج1 ج2. تأليف: أحمد وصفي زكريا. دار الفكر. دمشق. سورية.
47 ـ إبادة الشراكسة. تأليف: علي حسن قاسوم، وحسن علي قاسوم. ترجمة: الدكتور عمر شابسيغ. صوت النارتيين. دمشق. سورية. الطبعة الأولى. 1995م.
48 ـ عبر دروب الجبال. تأليف: أبو ر آ إيدميرون. ترجمة: حميد يونس. مكتبة الشباب ومطبعتها. عمان. الأردن. 1986م.
49 ـ الأبخاز الشراكسة. تأليف: أميرة محمد مصطفى قبرطاي. مطبعة دار الشام. دمشق. سورية. 1994م.
50 ـ مجلة الشرق الأوسط العدد 5863. تاريخ 1994/2/17م.
51 ـ حرب بزيقوه. تأليف: اسحق مشباش. ترجمة: محمد خير خواج. ج1 ج2. مطبعة العجلوني دمشق. سورية. 1989م.
52 ـ ميرزا باشا وصفي. تأليف: محمد خير حغندوقة. عمان.الأردن.1986.
53 ـ العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار. تأليف: محمد بن محمود الحلبي الملقب بابن أجا. صنّفه: محمد أحمد دهمان. دار الفكر. دمشق. سورية. الطبعة الأولى. 1986م.
54 ـ محاضرة بعنوان: العرف والأساطير الشركسية للمؤلف ألقيت في 1998/5/2م.
55 ـ الشركس في فجر التاريخ. تأليف: برزج سمكوغ. دار علاء الدين. دمشق. سورية. الطبعة الأولى. 1995م.
56 ـ موسوعة تاريخ القفقاس والجركس. المجلد الأول. تأليف: محمد جمال صادق أبه زاو. دار علاء الدين. دمشق. سورية. 1996م.
57 ـ الشيشان حرب إبادة وجريمة عصر. تأليف: إحسان عبد الحميد خن. دمشق. سورية. 1998م.

58 ـ احتلال الروس للقفقاس. تأليف: جون.ف.بادليي. تعريب: صادق إبراهيم عودة. مكتبة الأقصى للنشر والتوزيع. عمان. الأردن. الطبعة الأولى 1987م.
59 ـ شامل في القفقاس وفي روسية. تأليف: م.تشيتشا غوفا.ترجمة: نبيل حاج علي. دار طلاس. دمشق. سورية. الطبعة الأولى 1996م.
60 ـ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تأليف: محي الدين بن عبد الظاهر. تحقيق: عبد العزيز الخويطر. الرياض. الطبعة الأولى 1976م.
61 ـ الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة. تأليف: الدكتور أبو الحمد محمود فرغلي. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 1991م.
62 ـ صور ومظالم عن عصر المماليك.تأليف: الدكتور نظير حسان سعداوي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. مصر 1966م.
63 ـ دمشق في عصر المماليك. تأليف: الدكتور نقولا زيادة. مكتبة لبنان 1966م.
64 ـ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري. تأليف: أنطوان خليل ضومط. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية 1982م.
65 ـ تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل. تأليف: المستر جورج يانج. تعريب: علي أحمد شكري. الناشر دار الفرجاني. القاهرة. طرابلس. لندن.
66 ـ مصر في عهد دولة المماليك البحرية. تأليف: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. مصر 1959م.
67 ـ نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر. تأليف: الدكتور عبد المنعم ماجد. الطبعة الثانية 1979م.
68 ــ مصر في دولة المماليك الجراكسة. تأليف: الدكتور إبراهيم طرخان. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. مصر 1960م.
69 ـ دمشق بين المماليك والعثمانيين. تأليف: أكرم حسن العلبي. الشركة المتحدة للتوزيع. دمشق. سورية. الطبعة الأولى. 1982م.
70 ــ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور. ج1ج2.تأليف: ابن تغري بردي. تحقيق: الدكتور محمد كمال الدين عز الدين. الطبعة الأولى. 1990م.

71 ـ نور المقابس في تواريخ الجراكس. تأليف: نوح المرتوقي. المطبعة الكريمية ببلدة قزان في الإمبراطورية الروسية. 1912م.
72 ـ بناء دولة محمد علي (السياسية الداخلية). تأليف: محمد فؤاد شكري وعبد المقصود العناني وسيد محمد خليل. دار الفكر العربي. القاهرة. مصر.1948م.
73 ـ الأصول الشركسية في اللغة السومرية. تأليف: منذر بج. دار الفكرة. حلب. سورية. الطبعة الأولى. 1995م.
74 ـ العلاقة بين اللغتين السومرية والشركسية. تأليف: منذر بج الأصيل. حلب. سورية. 1996م.
75 ـ الحلقة المفقودة. تأليف: الدكتور عمر رفقي جه جوق. مصر.
76 ـ مجلة البروز. دمشق. سورية. العدد التاسع. كانون الثاني شباط 1998م
77 ـ مبادئ الجغرافية العامة والعالم. كتاب مدرسي. 1995م.
78 ـ تاريخ البصروي. تأليف: الشيخ علاء الدين علي بن يوسف بن أحمد الدمشقي البصروي الشافعي. تحقيق ودراسة: أكرم حسن العلبي. الطبعة الأولى 1988م.
79 ـ أنباء الغمر بأبناء العمر. المجلد الأول.تأليف: أحمد بن علي الشهير بابن حجر العسقلاني. تحقيق: أحمد دهمان. دمشق. سورية.1399هـ
80 ـ قيام دولة المماليك الثانية.تأليف: الدكتور حكيم أمين السيد. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. القاهرة. مصر 1966م.
81 ـ الطرب في العصر المملوكي. تأليف: محمد قنديل البقلي. 1984م.
82 ـ تاريخ البيمارستانات في الشام. تأليف: الدكتور أحمد عيسى بك. دار الرائد العربي. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية 1981م.
83 ـ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد (الشيخ المحمودي). تأليف: بدر الدين العيني. حققه وقدم له: فهيم شلتوت. راجعه: الدكتور محمد مصطفى زيادة. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. القاهرة. مصر 1967م.
84 ـ النظام النقدي المملوكي. تأليف: حمود بن علي النجدي. الإسكندرية. مصر 193م.

85 ـ رحلات إلى الأقاليم الجنوبية الشركسية من الإمبراطورية الروسية. تأليف: ب.س. بالاس. تجميع وإعداد: وصفي ميرزا باشا. ترجمة وإخراج: الأستاذ فهمي شما. عمان. الأردن 1982م.

86 ـ حكاية جدي. تأليف: ألفة الادلبي. دمشق. سورية. الطبعة الأولى 1990م.

87 ـ محاضرة تحت عنوان: الشراكسة في مصر منذ عهد محمد علي باشا. تأليف: فيصل موسى حبطوش. ألقيت في تموز 1991م.

88 ـ السيف والتابوت. تأليف: الدكتور عبد السلام العجيلي. دار الشرق. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية.

89 ـ دليل الأنساب الشركسية. تأليف: محمد خير إسماعيل. دمشق. سورية. الطبعة الأولى 1994م.

90 ـ الجولان أطماع العدو تاريخياً وبشرياً وجغرافياً واقتصادياً. تأليف: عصام أباظة وهشام شيشكلي. دمشق. سورية. 1975م.

91 ـ عاد وثمود. تأليف: الدكتور محمد علي بك بشيمالوق. تعريب: يوسف كمال حتاتة. دمشق. سورية. 1929م.

92 ـ فتوح الشام للواقدي وبهامشه تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من المولاة والسلاطين. للإمام الشيخ: عبد الله الشرقاوي.ج1 ج2. المكتبة الشعبية. بيروت.لبنان.

93 ـ قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة. تأليف: محمد أفندي مصطفى. المطبعة البهية المصرية، مصر 1316هـ

94 ـ مختصر صحيح البخاري مع شرحه من: فتح الباري الحافظ ابن حجر العسقلاني. المجلد الثاني. تأليف: خالد عبد الرحمن العك. دار الحكمة للطباعة والنشر. دمشق. سورية. الطبعة الأولى 1991م.

95 ـ تفسير القرآن العظيم للإمام: إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت. لبنان 1969م.

96 ـ قفقاسيا. تأليف: محمود شاكر. مؤسسة الرسالة.

97 ـ شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة. تأليف: عز الدين سطاس. مطابع الإدارة السياسية. دمشق. سورية. 1994م.

98 ـ أصل الشركس. تأليف: أيتك ناميتوق. ترجمة: الدكتور فؤاد يحيى توغوج. كار صوت النارتيين للنشر. دمشق. سورية. 1991م.
99 ـ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين تأليف: ابن دقماق.ج1 ج2. تحقيق: محمد كمال عز الدين علي. الطبعة الأولى 1985م.
100 ـ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين. تأليف: عبد الباسط بن خليل ابن شاهين المطلي. تحقيق: محمد كمال عز الدين علي. الناشر مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 1987م.
101 ـ السكة الإسلامية في مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة. تأليف: الدكتور رأفت محمد النبراوي. مركز الحضارة للإعلام والنشر. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 1993م.
102 ـ الملك المظفر قطز. تأليف: حسن أكرم. دار المأمون للتراث. دمشق. سورية. الطبعة الأولى 1987م.
103 ـ كتاب خطط الشام. ج1 إلى ج6. تأليف: محمد كرد علي. مطبعة المدينة. دمشق. سورية. 1925م.
104 ـ تاريخ الملك الظاهر. تأليف: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد باعتماد أحمد حطيط 1983م.
105 ـ الملك الأشرف خليل بن قلاوون. تأليف: أكرم حسن العلبي. دار المأمون للتراث. دمشق. سورية. الطبعة الأولى 1987م.
106 ـ مجلة النشرة الثقافية. دمشق. سورية. العدد 4 آذار 19990م.
107 ـ المطبخ السلطاني زمن الأيوبيين والمماليك. تأليف: دكتور نبيل محمد عبد العزيز. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. مصر.
108 ـ مقالة تحت عنوان: (الشيشان تفاؤل وقلق).
109 ـ الحيل في حرب دولة المماليك. تأليف: الدكتور عبد العزيز محمود عبد الدايم. طبعة 1983م.
110 ـ آثارنا في الإقليم السوري. تأليف: أبو الفرج العش. دمشق. سورية. الطبعة الأولى 1960م.

111 ـ القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام. تأليف: القاضي بدر الدين المعروف بابن جدعان. تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري. منشورات جرس. برس. الطبعة الأولى 1984م.
112 ـ تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء. تأليف: الأستاذ فالح بكور. دمشق. سورية. الطبعة الثانية 1992م.
113 ـ انتصار الوحدة في شمال القفقاس. تأليف: يوري موسى شنبة. تعريب: أميرة محمد مصطفى قبرطاي. مطبعة الرازي. دمشق. سورية.
114 ـ الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة. الدكتور محمد كمال الدين عز الدين. عالم الكتب. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 1990م.
115 ـ نظم العقيان في أعيان الأعيان. تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. حرره الدكتور فيليب حتي. المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك 1927م.
116 ـ الدارس في تاريخ المدارس. تأليف: عبد القادر محمد النعيمي. الجزء الأول. عني بنشره وتحقيقه: جعفر الحسني 1948م.
117 ـ مآذن دمشق تاريخ وطراز. تأليف: الدكتور قتيبة الشهابي. منشورات وزارة الثقافة. دمشق. سورية 1993مز
118 ـ أعلام الأدب والفن. تأليف: أدهم الجندي. الجزء الثاني. مطبعة الاتحاد. دمشق. سورية. 1958م.
119 ـ الشيشان حقائق. للمؤلف. دمشق 2001م.

الكتب التي نشرت للمؤلف...

1 ـ الشيشان حقائق 2001م
2 ـ حقيقة المماليك 2001م
3 ـ تواريخ..أحداث وشخصيات ج1 2002م
4 ـ تواريخ..احداث وشخصيات ج2 2003م
5 ـ لسان الشركس 2004م
6 ـ حكاية والدي 2004م
7 ـ أدب وأدباء 2004م
8 ـ أبطال..ومقاتلون..قادة 2007م